

الدون المفسر في إنبال باربي

أو تلخيص الأبريز في تلخيص باربي
رفاعة رافع الطهطاوي

حررها وقدمها: علي أحمد كنفان



المؤسسة
العلمية
للدراسات
والنشر



المؤسسة
العلمية
للدراسات
والنشر



رفاعة رافع الطمطومي



الديوان النفيس في إيوان باريس

سفر نامه

٣

٦

١٢

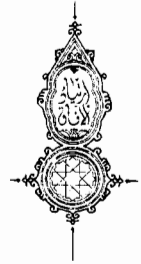
الرحلة

هذه رحلة عالم عربي مصري إلى باريس، أوفدتها حكومة بلده
إيماناً بالصلوة والوعظ مع بعثة من الطلبة السبع إلى أوروبا والتقى العالم
الحديثة. لكن تميز الطرح الذي يحب العالم والموسم الشعري والحسن التقدي الرفق
جعلها بقاء بين الواقع المتروى الذي يعينه البلد والعربية والوسيلة
وبين الأمور المتقدمة في الدول الأوروبية، فلم يخل من كل ما رأى فيها
منفعة لبلده وشعبه.

إن أهميتها هذه الرحلة تعلى في أن هذا العالم الذي زهري وضع الأسس
المدنية العالمية والقانونية لبناء الدولة الحديثة التي تولى أمرها محمد علي باشا.
لم يتف هذا الرائد المت نور بوصف مريمته باريس وأحوالها في تلك
الفترة المبكرة من القرن التاسع عشر، بل باور إلى إحصاء اللغة الفرنسية
والطرح الواسع على أرواحها، فكان رائد في التزعم إلى العربية والتمسك
المصطلحات المناسبة عندما وضع موجز لأطلس العالم، وقد مرصداً قانونياً
للسور الفرنسي ومن بين الدولة ومؤسستها، إضافة إلى شرح عالمي لأهم
الأمراض وتسميمها وطرق علاجها، وأهم مشاغلها، فكان رائد في ذلك كله
وله من أن أهميتها هذه الرحلة هي التي جعلت محمد علي باشا يوجهي بزمها
إلى الترقية.

الرحلة
الأفان

الدون المفسر
في المثلث المثلث
أو تخلص المثلث في تلخيص باريز



الديوان النفيس في إيوان باريس ، أو « تخلص الإبريز في تلخيص باريز » / أدب رحلات
رفاعة رافع الطهطاوي / مؤلف ، [حرّرها وقّدم لها : علي أحمد كنعان]
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢
حقوق الطبع محفوظة



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنائع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب : ٥٤٦٠ - ١١ ، العنوان البرقي : موكيالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨



دار السويدية للنشر والتوزيع
أبو ظبي ، ص.ب : ٤٤٤٨٠
الإمارات العربية المتحدة ،
هاتف : ٦٣٢٢٠٧٩ ، فاكس : ٦٣١٢٨٦٦

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo

التنفيذ والإشراف الفني :

سيك

الخطوط وتصميم الغلاف :

منير الشعراي / مصر

الصفّ الضوئي :

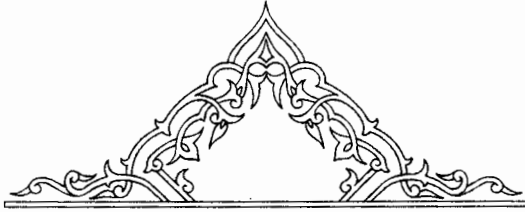
القرية الإلكترونية / أبو ظبي + مطبعة الجامعة الأردنية / عمّان

التنفيذ الطباعي :

سيكو للطباعة والنشر / بيروت ، لبنان

All rights reserved . No part of this book may be reproduced , stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publishers .

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشرين .

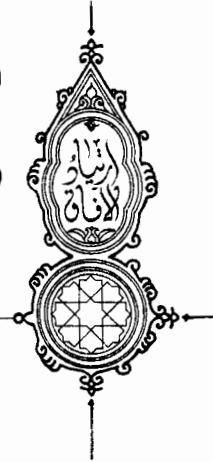


الدونزالنس فیس فیه ابونزال بامریس

أو تخلیص الإبریز فی تلخیص باریز

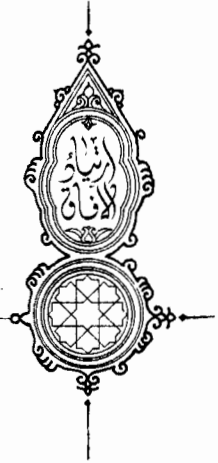
رفاعة رافع الطهطاوی

حررها وقدّمها: علی أحمد کفان



يشرف على هذه السلسلة:

نوري الخراج



«... وانظر إلى زمن تلك المدينة فإنه دائماً معتم في سائر أيام الشتاء ، وغالب أيام الحرّ ، فإذا تنزه الإنسان ساعة تنكد ساعة أخرى ، وذهب حظه بالرعد والبرق وانهطال المطر والصواعق ، إلا أن الثلوج بها ومجرة البالوعات تقي من الوحل المضّر (...). وأهلها لا يبالون بذلك ، فيقال في سائر أيامها ما قاله بعضهم في وصف يوم شديد البرد ، من أنه يوم يجمد خمرة ، ويحمد جمره ، وينحف فيه الثقيل إذا هجر ، ويثقل فيه الخفيف إذا هجم . إلا أن الفرنساوية يكثر من الملاهي في ليالي الشتاء ، لأنهم يبذلون جهدهم في التوقي من مضارها ، نسأل الله تعالى الوقاية من برد الزمهرير . فلو تعهدت مصر وتوفرت فيها أدوات العمران ، لكانت سلطان المدن ورئيسة بلاد الدنيا ، كما هو شائع على لسان الناس من قولهم : مصر أم الدنيا ...» .

من نص الرحلة ص 84

«قدوة الأماثل الكرام الأفنديّة المقيمين في باريس لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم ، ينهى إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية والجداول المكتوب فيها مدّة تحصيلكم ، وإن كانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمّة ، لم يفهم منها ما حصلتموه في هذه المدّة ، وما فهمنا منها شيئاً ، وأنتم في مدينة مثل مدينة باريس التي هي منبع العلوم والفنون . فقياساً على قلة شغلكم في هذه المدّة ، عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم ، وهذا الأمر غمنا غماً كثيراً ...» .

من رسالة محمد علي إلى البعثة

من نص الرحلة ص 200



تَهْدَفُ هذه السُّلْسَلَةُ بَعَثَ واحدٍ من أعرق ألوان الكتابة في ثقافتنا العربية ، من خلال تقديم كلاسيكيات أدب الرحلة ، إلى جانب الكشف عن نصوص مجهولة لكتاب ورخالة عربٍ ومسلمين جابوا العالم ودونوا يومياتهم وانطباعاتهم ، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخبروه في أقاليمه ، قريبةً وبعيدةً ، لاسيما في القرنين الماضيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النخب العربية المثقفة ، ومحاولة التعرف على المجتمعات والناس في الغرب ، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرة الاستشراق والمستشرقين الذين ملؤوا دروب الشرق ، ورسموا له صوراً شتملاً مجلدات لا تُحصى عدداً ، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم ، ومن منطلق المستأثر بالأشياء ، والمتهيئ لترويج صور عن «شرق ألف ليلة وليلة» تغذي أذهان الغربيين ومخيلاتهم ، وتُمهّد الرأي العام ، تالياً ، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق . ولعل حملة نابليون على مصر ، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية ، هي النموذج الأتم لذلك . فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي

لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري .
على أن الظاهرة الغربية في قراءة الآخر وتأويله ، كانت دافعاً ومحرضاً
بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في مواجهة صور
غربية لمجتمعاتها جديدة عليها ، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري ، لتجد
نفسها تملك ، بدورها ، الدوافع والأسباب لتشدد الرحال نحو الآخر ، بحثاً
واستكشافاً ، وتعود ومعها ما تنقله وتعرضه وتقله في حضارته ونمط عيشه
وأوضاعه ، ضاربة بذلك الأمثال للناس ، ولينبعث في المجتمعات العربية ،
وللمرة الأولى ، صراع فكري حاد تُستقطب إليه القوى الحية في المجتمع بين
مؤيد للغرب موال له ومتحمس لأفكاره وصياغاته ، وبين معاد للغرب ،
رافض له ، ومستعد لمقاتلته .

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تخطيط الشرق والشرقيين ، عبّر
رسم صور دنيا لهم ، بواسطة مخيلة جائعة إلى السحري والأیروسی
والعجائبي ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم ، كما سيتضح من
خلال نصوص هذه السلسلة ، ركّز ، أساساً ، على تتبع ملامح النهضة العلمية
والصناعية ، وتطور العمران ، ومظاهر العصرية ممثلة في التطور الحادث في نمط
العيش والبناء والاجتماع والحقوق . لقد انصرف الرّحالة العرب إلى تكحيل
عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات ، مدفوعين ، غالباً ، بشغف
البحث عن الجديد ، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط ، من
باب الفضول المعرفي ، وإنما ، أساساً ، من باب طلب العلم ، واستلهم
التجارب ، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث ، واقتفاء أثر الآخر
للخروج من حالة الشلل الحضاري التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها .
هنا ، على هذا المنقلب ، نجد أحد المصادر الأساسية المؤسسة للنظرة الشرقية
المندهشة بالغرب وحضارته ، وهي نظرة المتطلع إلى المدنية وحدائتها من

موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة ، المتحسّر على ماضيه التليد ،
والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية .

إن أحد أهداف هذه السّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم ، هو
الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكّل عن طريق الرحلة ، والأفكار
التي تسرّبت عبر سطور الرّحالة ، والانتباهات التي ميّزت نظرتهم إلى الدول
والناس والأفكار . فأدب الرحلة ، على هذا الصعيد ، يشكّل ثروة معرفيّة
كبيرة ، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار ، فضلاً عن كونه مادة سردية
مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمدهش مما التقطته عيون تتجول وأنفس
تنفعل بما ترى ، ووعي يلمّ بالأشياء ويحلّلها ويراقب الظواهر ويتفكّر بها .

أخيراً ، لا بد من الإشارة إلى أن هذه السّلسلة التي قد تبلغ المائة كتاب
من شأنها أن تؤسس ، وللمرة الأولى ، لمكتبة عربية مستقلة مؤلفة من
نصوص ثريّة تكشف عن همّة العربيّ في ارتياد الآفاق ، واستعداده للمغامرة
من باب نيل المعرفة مقرونة بالمتعة ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في
أربع جهات الأرض وفي قارّاته الخمس ، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر
وعالمه ، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال
تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء ،
وغيرهم من الرّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية .

محمد أحمد خليفة السويدي



هذه رحلة عالم عربي مصري رائد ، بكل ما للعلم والريادة من معان ودلالات وإحياءات وما فيهما من آثار الاكتشاف والإنارة والتسامي والتأثير . إن رفاعة الطهطاوي ، الشيخ الأزهرى ، الذي كلفه القصر الملكي بمرافقة أول بعثة علمية يرسلها محمد علي باشا إلى فرنسا ، ليكون المرجع الفقهي للطلبة المبعوثين ، لم يتفرغ للوعظ والإشراف الديني ، ولم يتطرق إلى ذكر تلك المهمة الروحية في كتابه ، بل اعتبر نفسه طالبا موفدا لمتابعة التحصيل العلمي ، فأقبل على دراسة اللغة الفرنسية ودراسة التاريخ والجغرافية والأدب . لكنه لم يقنع بذلك ، إنما كان يحمل في خفايا نفسه هاجسا موسوعيا وطموحا كبيرا لاستيعاب مزيد من العلوم ، فاطلع على مناهج زملائه في الطب والهندسة والزراعة والرياضيات وحتى الفلك ، مما يذكرنا بهمة الجاحظ وابن خلدون وأبي حيان التوحيدي وأمثالهم . ويوم عاد إلى مصر كان جديرا بحمل مسؤولية الترجمة التي كلفه بها الباشا ، كما كان أهلا للقيام بافتتاح أول مدرسة للترجمة وإدارتها والإشراف عليها ، فضلا عن عشرات الكتب والمقالات التي ترجمها .

ويكفي هذا العالم التنويري الكبير دأبا وتحصيلا وتألقا أنه أجاد اللغة الفرنسية خلال فترة قياسية ، وراح يترجم عنها إلى العربية حتى أنجز اثني عشر كتابا خلال إقامته في باريس التي استمرت نحو ثلاث سنوات وتسعة أشهر ، قضى منها

خمسین یوما فی الحجر الصحي إثر نزوله فی مرسلیا ، قبل مواصلة السفر إلی باریس . إن الأهمية البالغة لهذه الرحلة تعود لأكثر من سبب وترتاد أكثر من أفق : إنها سجل مكثف لإنجازات أول بعثة علمية تخرج من بلد عربي إلی أوروبا الغربية ، بينما كانت السلطة العثمانية المتخلفة تنیخ بأغلالها وظلماتها ومظالمها علی أبناء البلاد العربية الأخرى . إن القیام بهذه الخطوة العلمية فی ذلك الوقت المبكر جعلها تشق طریقا بکرا وتشکل سابقة میمونة وقدوة حسنة لجميع البعثات التالية . كما أن الحقول العلمية التي أوفد ذلك الرعیل من أجل دراستها ، والعودة لإقامة نهضة البلاد علیها ، تكشف عن مدى الوعي الذي كان محمد علي يتمتع به ، بعيدا عن طغیان السلطنة المترهلة وصراعات رجالها ومفاسد قصورها .

بدأ الطهطاوي دراسة اللغة الفرنسية منذ نزوله فی البر الفرنسي وهو خاضع لإجراءات الحجر الصحي فی مرسلیا . ثم تابع المهمة بجدة العالم وشغف العاشق واهتمامه بعد وصوله إلی باریس والإقامة فیها . ومن اللغة بدأ دراسة الجغرافية قبل أي علم آخر . وفي تصوري أنه راح یترجم مباشرة معظم الدروس الجغرافية التي یطالعها یومیا ویستوعبها ، ثم یرى فائدة معرفية فی ترجمتها . وهذا التصور یستند إلی الملاحظات العديدة التي لا تخفی علی القارئ فی ثنایا تلك المعلومات ، إذ كان رائدا ومجتهدا فی نحت كثير من الأسماء وابتکار العديد من المصطلحات العربية المناسبة أو الموازية ، وبخاصة أن بعض تلك الأسماء قد تغير بعد مرور حربین عالمیتین وتکالב الدول الاستعمارية علی اقتسام ترکه الرجل المريض .

بعد ذلك درس رحالتنا الدستور الفرنسي وسعی إلی معرفة واستيعاب بناء مؤسسات الدولة ومخططات باریس وبيوتها وحدائقها ومستشفياتها ومراكز العلاج فیها ، فضلا عن أحوال سكانها وأعيادهم وعاداتهم فی السكن و اللباس والغذاء وحتى وسائل اللهو ، ولم یغفل حتی عن الحديث فی تشخيص عدد من الأمراض والخوض فی طرائق معالجتها والوقاية منها . إن دقة الرصد وصدق المثابة وعمق النظر وطول الصبر فی محاولة فهم الآخر ، هذه الخصال الحميدة التي یمتاز بها العلماء ، لم تصرف أفكار الطهطاوي عن هموم وطنه وحاجاته الأساسية ، بل إن الصفحات المشرقة فی حياة باریس وسيادة القانون فیها كانت تذكره دائما بمصر وسائر البلدان

العربية والإسلامية وأحوالها البائسة المؤسفة ، وضرورة حدوث تغيير تنويري جذري فيها .

كان رفاعة رافع الطهطاوي في الخامسة والعشرين من عمره يوم احتضنته باريس بكل ألقها وزهوها وإغراءاتها المذهلة ، رغم برودة شتاءاتها . لكنه لم يذهب لارتشاف المتع المتاحة ، وإن كانت مباحة له في حدود الشريعة ، لأن وقته كله كان مكرسا للعلم والسهر في سبيل تحصيله حتى أرهق بصره ونصح الأطباء بمراعاة صحته ، فلم يستطع الامتثال لنصائحهم ، لأن العشاق لا يملكون من أمرهم شيئا . وقد استطاع هذا الفتى الجدي الدؤوب ، ومن خلال ما ترك لنا من آثار ، أن يحقق ما لم تحققه مؤسسات تربوية وثقافية عدة لأن القائمين عليها لم يكن العلم شاغلهم بالقدر الذي شغل الطهطاوي . وهنا يتجلى مدى حبه لوطنه وشعبه ، كما يظهر لنا عمق احترامه لذلك الإنسان الكبير المسؤول عن إرساله في تلك البعثة . وحسبي هنا أن أقتطف بعض ما ورد في رحلة هذا العالم المتفتح الجليل . يقول الطهطاوي :

«أشار عليّ بعض الأقارب والمحبين ، لا سيما شيخنا العطار ، أن أنبه على ما يقع في هذه السفرة ، وعلى ما أراه وما أصادفه من الأمور الغريبة ، والأشياء العجيبة ، وأن أقيده ليكون نافعا في كشف القناع عن محيا هذه البقاع التي يقال فيها إنها عرائس الأقطار ، وليبقى دليلاً يهتدي به إلى السفر إليها طلاب الأسفار ، خصوصاً وأنه من أول الزمن إلى الآن لم يظهر باللغة العربية ، على حسب ظني ، شيء في تاريخ مدينة باريس ، كرسي مملكة الفرنسيين ، ولا في تعريف أحوالها وأحوال أهلها .»

ثم يتابع تبيان مهمته قائلا : « . . الحمد لله الذي جعل ذلك بأنفاس وليّ النعمة وفي عهده ، وبسبب عنايته وتقويته للعلوم والفنون ، فما قصرت في أن قيدت في سفري رحلة صغيرة نزعتها عن خلل التساهل والتحامل ، وبرأتها عن زلل التكاسل والتفاضل (. . .) وأنطقتها بحث ديار الإسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنائع . فإن كمال ذلك ببلاد الإفرنج أمر ثابت شائع ، والحق أحق أن يتبع . ولعمر الله إني ، مدة إقامتي بهذه البلاد ، في حسرة على تمتعها بذلك وخلوّ ممالك الإسلام منه . وإياك أن تجد ما أذكره لك خارقاً عن عادتك ، فيعسر عليك

تصديقه فتظنه من باب الهذر والخرافات ، أو من حيز الإفراط والمبالغات . وبالجمله ،
فبعض الظن إثم ، والشاهد يرى ما لا يراه الغائب .»

وكما هو شأن معظم العلماء الرواد في تواضعهم وتجنبهم للمبالغة أو المحاباة ،
وتوجسهم خيفة من ألسنة الجهلة والمغرضين ، لم يتردد هذا العالم الأديب بالتأكيد
على أنه ينطلق في كتابته وآرائه من موقف موضوعي غير منحاز إلا للعلم والحقيقة
والإنصاف فيقول :

« . . . وقد أشهدت الله سبحانه وتعالى على أن لا أحيد في جميع ما أقوله عن
طريق الحق ، وأن أفشي ما سمح به خاطري من الحكم باستحسان بعض أمور هذه
البلاد وعوائدها على حسب ما يقتضيه الحال . ومن المعلوم أنني لا أستحسن إلا ما لم
يخالف نص الشريعة المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأشرف التحية . وليست
هذه الرحلة مقتصرة على ذكر السفر ووقائعه ، بل هي مشتملة أيضاً على ثمرته
وغرضه ، وفيها إنجاز العلوم والصنائع المطلوبة ، والتكلم عليها على طريق تدوين الإفرنج
لها واعتقادهم فيها وتأسيسهم لها . ولذلك نسيت في غالب الأوقات الأشياء التي
هي محل للنظر وللاختلاف ، مشيراً إلى أن قصدي مجرد حكايتها .»

مكثت البعثة في الإسكندرية نحو شهر بانتظار السفر . وخلال تلك المدة المحدودة
نرى الطهطاوي ينكب على دراسة تاريخ المدينة ليعطينا فكرة ضافية عنها وعن
أحوالها ، وبخاصة أنه يزورها لأول مرة ولا يفوته أن يشير إلى كثرة الأجانب فيها . ولا
ريب أن هذا الشغف الأصيل بالعلم واستقصائه سوف يرافق هذا الشيخ الفتي الجليل
طوال إقامته في الغربة ، ولا يبدو أن وهجه قد خف بعد عودته إلى وطنه وأهله .

وحين نتابع خط رحلته نرى أنه غادر الاسكندرية على متن سفينة حربية فرنسية
في 6 رمضان 1241هـ الموافق 23 مارس/آذار 1826 فوصل إلى مرسيليا بعد 33 يوما .
وهناك بقي في الحجر الصحي 50 يوما ، ثم غادرها مع أصحابه متوجها إلى باريس .
وبعد مكوثه في باريس دارسا وباحثا مدة ثلاث سنوات وسبعة أشهر تقريبا غادرها
عائدا إلى مصر في شهر رمضان المبارك سنة 1246 هـ (فبراير/مارس 1830م) . وإذا
كان قد حدد باليوم تاريخ سفره من مصر ، فإنه اكتفى بذكر الشهر الذي غادر فيه
باريس ، وهو شهر الصيام .

إن اختيار المؤلف عنوانين لرحلته وإيرادهما معا في النص المنشور يجعلنا نتوقف قليلا أمام هذين العنوانين ، وبخاصة أن السجع - وهو من الزخارف اللفظية والمحسنات البديعية التي كانت شائعة في ذلك العصر - جاء في العنوانين كليهما . فالمؤلف شاعر مسكون بإيقاع البحر الخليلي وسحر القافية ، لذلك رأى ضرورة إدخال السجع في العنوان أسوة بأسلوب شيوخه ومعلميه . العنوان الأول أدبي بسيط ، وثيق الصلة بالشعر ، ديوان العرب . من هنا جاءت عبارة «الديوان النفيس» ، ثم تذكر الشاعر الشاب قصيدة «إيوان كسرى» للبحتري ، وما فيه من عجائب الفرس الأقدمين ، فاستعار كلمة «الإيوان» وقرنها بباريس .

العنوان الثاني كان مزيجا من العلم والأدب . إن «تخليص الإبريز» يعني تنقية الذهب من الشوائب العالقة به . وفي هذه العبارة إشارة رمزية بارعة إلى ما رأى وما خبر في باريس ، إضافة إلى ما اكتسبه من علوم ومعارف هناك ، وهو يعدها أهم من الذهب وأعلى . وحين أراد «تخليص باريز» بما كتبه عنها كان يرى في كتابه ، وما جمع بين دفتيه ، ذهابا خالصا مصفى . وفي عبارة الذهب المصفى إلحاح ذكية إلى أحاديث وكتابات آخرين لم يكونوا في مستوى صدقه وصراحته وسعة اطلاعه . لكنه لم يدع لنا أية إشارة إلى ذلك خارج هذا العنوان . ويدل العنوان كذلك على أشياء كثيرة لا تخلو من العيوب والهفات السلبية تحفل بها باريس ، لكن المؤلف الأديب عفا عن ذكرها صراحة في ثنايا كتابه .

وفي النص الذي اعتمدنا عليه في مراجعة هذه الرحلة ، كان العنوان الأول هو «تخليص الإبريز» ، إنما أثّرنا أن يكون العنوان الأول «الديوان النفيس» انطلاقا من تقديرنا أن الشعر يمتاز بالأهمية الأولى والقيمة المثلى لدى المؤلف . ولو كان العنوان الثاني لديه أقل قيمة من الأول لما أوردهما معا . وربما كان اسم «باريز» شائعا في تلك الأيام أكثر من «باريس» ، لذلك أثر البدء به . وهذا تقدير خاص أوحى به العنوان المزدوج الذي وسم المؤلف به رحلته .

ولعل من أبرز ما تكشف عنه هذه الرحلة ، إلى جانب ما ذكرنا أنفا ، أن الطهطاوي لم يشغل نفسه بالأمور الشخصية والعائلية فلم يتطرق إلى ذكر أي من مراسلاته مع أساتذته وأهله وأصحابه ؛ فالعلم هو شاغله الأول والأخير . كما أن

أسلوب المؤلف ومضمون حديثه جاء في الختام مختلفين عما كانا عليه في البداية . فإذا كنا نعثر في مستهل الكتاب على كلمات وعبارات تفصح عن نفوره من الأجانب واستنكاره لمعتقدهم مثل «هذه البلاد التي هي ديار كفر وعناد» فإن هذه العبارات ومثيلاتها سرعان ما اختفت ، حين دخل الفتى في حياة المدينة المدهشة ، وعاشر أهلها ونهل من علومها . ثم لم يلبث أن تحول موقفه إلى رجاء وابتهاال إلى الله تعالى بأن «يوقظ (بكتابه هذا) من نوم الغفلة سائر أم الإسلام من عرب وعجم ، إنه سميع مجيب ، وقاصده لا يخيب .»

والكاتب يوضح أسلوبه منذ البداية ويرى هدفه جيدا ، فيقول : «... حاولت في تأليف هذا الكتاب سلوك طريق الإيجاز وارتكاب السهولة في التعبير حتى يمكن لكل الناس الورد على حياضه ، والوفود على رياضه ، ولو صغر حجمه ، وقل جرمه ، فهو مشحون بما لا يحصى من فوائد الفرائد ، وبما لا يستقصى من جزائل الخرائد .» وقد اتبع في ترتيب كتابه منهجا مبتكرا أو مقتبسا من بعض الكتب التي قرأها هناك ، فبدأ بمقدمة ضمنها عدة أبواب . ثم وضع (المقصد) الذي يحتوي على أربع مقالات في الطبعة الأولى وست مقالات في الطبعة التي استأنسنا بها . وهذا استنتاج خاص توصلنا إليه من كون المقالتين الخامسة والسادسة جاءتا في النص ، ولم يرد لهما ذكر أو إشارة في (المقصد) ، مما يدل على أنهما أضيفتا إلى المقالات السابقة بعد الطبعة الأولى .

ولكن ، من هو رفاعة الطهطاوي؟ يقول خير الدين الزركلي في موسوعة (الأعلام) :

«رفاعة رافع بن بدوي بن علي الطهطاوي (1216-1290هـ/1801-1873م) ، يتصل نسبه بالحسين السبط (. . .) وهو من أركان نهضة مصر العلمية في العصر الحديث . ولد في طهطا ، وقصد القاهرة سنة 1223 هـ (1808م) فتعلم في الأزهر . وأرسلته الحكومة المصرية إماما للصلاة والوعظ مع بعثة من الشبان أوفدتهم إلى أوربة لتلقي العلوم الحديثة ، فدرس الفرنسية وثقف الجغرافية والتاريخ . ولما عاد إلى مصر ولي رئاسة الترجمة في المدرسة الطبية ، وأنشأ جريدة «الوقائع المصرية» وألف وترجم عن الفرنسية كتباً كثيرة (. . .) وقال عنه عمر طوسون : «... وهو مؤسس مدرسة

الألسن وناظرها ، وأحد أركان النهضة العلمية العربية بل وإمامها في مصر .
ومن الكتب التي ترجمها «قلائد المفاخر في غرائب عادات الأوائل والأواخر» من
تأليف دينغ ، وكذلك «المعادن النافعة» لفيرارد ، و«تعريب القانون المدني الفرنسي» ،
و«جغرافية ملطبرون» ، كما ألف العديد من الكتب في الهندسة والجغرافية وتاريخ
مصر القديم . ومن مؤلفاته في السيرة النبوية كتاب «نهاية الإيجاز» . وله فضل كبير
في تعريب كثير من المصطلحات الطبية والهندسية والجغرافية .

إن الطهطاوي ، باختصار ، داعية علم واستنارة . وهو يقرن العلم بالعمل ، ويرى
أن الحياة الكريمة مرهونة بقيم الحرية والعدالة وسيادة القانون . إن ضرورة المحافظة على
كرامة الإنسان وسعادته وحياته الحرة الآمنة لا تتحقق إلا بحماية تلك القيم والمبادئ
والتمسك بها . من هنا أولى اهتماما خاصا في ترجمة القانون الفرنسي ، كما نراه
يأتي بعدد من الأمثلة المضيئة في التاريخ العربي والإسلامي ، فالنعمان واجه
كسرى بشجاعة وصراحة ولم يبخل بحياته في سبيل ذلك ، والفاروق جعل الفتى
المصري يقتص من «ابن الأكرمين» ولد عمرو بن العاص عامله على مصر ، قائلا
كلمته الرائعة التي مازال يتردد صداها عبر الأجيال : «متى استعبدتم الناس وقد
ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟»

لن أطيل على القارئ لثلا أحرمه من متعة القراءة ومتابعة تلك التفاصيل التي
شغلت فكر الطهطاوي ووقته واهتمامه . ويكفي في الختام أن أشير إلى أنني أمضيت
وقتا كافيا مع هذا النص . ذلك أنه يتضمن كثيرا من الأسماء الجغرافية والتاريخية
التي يختلف لفظها وصيغة كتابتها في أيامنا عن تلك الأيام التي ترجمت فيها عن
مصادر فرنسية أو تركية . كما يتضمن أيضا قصائد ومقتطفات شعرية شتى ، حاولت
جاهدا أن أبين قائلها أملا في أن تدفع الشباب إلى مراجعة أصولها لتكون لهم زادا
معرفيا إضافيا ، لكن عديدا من الشواهد التي أوردها المؤلف في النص لم أجد لها
مرجعا ، ولعل بعضها كان من نظمه دون أن يشير إلى ذلك .

وسوف يلاحظ القارئ الكريم أن كثرة الاستطرادات الشعرية تقطع سياق الرحلة
في أكثر من موضع ، وربما خطر لنا أنها تقلل من جاذبية الاكتشاف وتخفف من متعة
المتابعة . ولا شك أن قصائد المدح الأخيرة ليست جذيرة بأن تكون جزءا من هذا

الكتاب ، لكن ولع المؤلف بالشعر يبدو واضحاً وملحاً ، وعلينا أن نغض النظر عن مستوى هذا النظم الهش وضعف قيمته الفنية والجمالية وتهافت عاطفته . ولعله أراد ، على طريقة الجاحظ ، أن يبعد قارئه عن الإحساس بالرتابة والملل ، وبخاصة أنه يطرق باباً جديداً غير مألوف من قبل . وإذا صادفنا بعض الآراء التي لا تتفق فيها مع رؤية المؤلف وموقفه الفكري (كمسألة العبودية والسواد ، مثلاً ، ومسألة المتوحشين والمتحضرين ، ونظرتة إلى المرأة) فعذره - إن كان ثمة من عذر مقبول - أنه جاء في عصر مختلف عن عصرنا ، وليس لنا أن نطالبه بحمل أفكارنا . وأود هنا أن ألفت النظر إلى أن الناشر قد ختم الكتاب بالكلمة الآتية :

«وافق الفراغ من طبع هذا الكتاب الجليل ، المشتغل على كل وصف جميل ، بدار الطباعة العامة ، الكائنة ببولاق مصر القاهرة ، يوم الخميس المبارك رابع وعشر صفر الخير سنة 1265 من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية .» (وهذا التاريخ يوافق أوائل يناير/كانون الثاني 1849م) .

وفي الختام ، أرى من واجبي أن أشير إلى أن المرارة التي كان يحس بها هذا الرائد بسبب تخلف أحوال الأمة ما زالت مجتمعاتنا العربية تعاني منها ، وربما تراجعت النفوس عن تلك الهمم والتطلعات العظمى التي كان يعيشها جيل الطهطاوي ونخبته المتعلمة في سبيل التقدم ومحاولة اللحاق بالبلدان التي سبقتنا . ويكفي هنا أن نتأمل صورة باريس في عشرينات القرن الثامن عشر لنقارنها بصورتها اليوم . وإذا لمس القارئ بعض الهنات والأخطاء ، فإن تبعثها تقع على كاهل المحرر وحده ، وجل من لا يخطئ . والقارئ هو الحكم الفصل أولاً وأخيراً .

والله ولي الفلاح والتوفيق .

علي كنعان

أبو ظبي في 23 / 3 / 2002

مسار الرحلة

الانطلاق

- القاهرة ، في النيل ، في يوم الجمعة 8 شعبان 1241هـ/ 17 مارس 1826م
- الوصول إلى الإسكندرية ، الأربعاء في 13 شعبان 1241هـ/ 22 مارس 1826م
- مغادرة الإسكندرية في 5 رمضان 1241هـ/ 12 أبريل 1826م
- جزيرة كريت في اليوم السابع من الرحلة .
- جزيرة صيقلية في اليوم الثالث عشر
- مينة مسينة في اليوم الخامس عشر
- تجاوز مدينة نابولي في اليوم الرابع والعشرين .
- جزيرة قرسقة (كورسيكا)
- النزول في مرسليليا (بعد 33 يوما في البحر)
- مرسليليا (المكوث فيها 50 يوما)
- ليون
- باريس

العودة

- مغادرة باريس في رمضان 1246 (فبراير/مارس 1831)
- فنتبلو
- نيمور
- كونه (على نهر لوار)
- مولن
- روانه (على نهر لوار ، قرب ليون)
- ليون
- أورغون
- مرسيليا فالعودة إلى مصر .

ديباجة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سبحان من سير أقدام الأنام إلى ما مضى في سابق علمه ، ويسر للإنسان الإقدام على محتم قضائه وحكمه ، فلا محيص لقوي وضعيف ، ووضيع وشريف ، عما جرى في أم الكتاب ، ولا مفر لغني وفقير ، وخطير وحقير ، عن الاقتراب إلى مطوي ذلك الحجاب ، أحمده سبحانه وتعالى حمد من ابتلاه فصبر ، وأغناه فشكر ، وأشكره شكر من توجه بجنانه للسير إلى مرضاته ، فتنزهه في رياض القبول وجناته ، وأصلي وأسلم على من سارت ركائب شوقه إلى مدبره ، وأشارت مواكب حسن خلقه إلى طيب عنصره ، سيدنا محمد الذي سافر إلى الشام وهاجر إلى المدينة ، وسار من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وكان جبريل أمينه ، وعلى آله وأصحابه ، وعترته وأحبابه ، وأتوسل إلى الحضرة العلية ، بالحضرة المحمدية ، في نشر ألوية العز والعدل ، وكمال الجاه والفضل ، على سائر الأقطار المصرية ، وجميع ما فيها من الأهل والرعية ، بإشراف طالع التدبير العجيب ، والتشييد الغريب ، الوزير الأعظم ، والدستور المكرم المفخم ، نادرة وزراء الزمان ، وشاردة أمراء الأوان ، من أحبي العلوم باجتهاده ، ونصب رسوم الإسلام بغزوه وجهاده ، صاحب العلم المنيف ، وفاتح الحرم الشريف ، حضرة أفندينا ولي النعم ، عظيم الشيم ، الحاج محمد علي باشا بلغه الله تعالى ما يشاء وما

شاء ، أمين .

أبقاه ربي بخير
وعزة وسعادة
بجاه خير البرايا
والآل أهل السيادة

أما بعد فيقول العبد الفقير إلى إمداد سيده ومولاه ، السائر حيث وجهه وولاه ،
المعتمد على الكريم النافع ، رفاعة ابن المرحوم السيد بدوي رافع ، الطهطاوي بلد
الحسيني القاسمي نسبا ، الشافعي مذهبا ، لما من الله سبحانه وتعالى عليّ بطلب
العلم بالجامع الأزهر ، والمحل الأنور ، الذي هو جنة علم دانية الثمار ، وروضة فهم
يانعة الأزهار ، كما قال أستاذنا العلامة العطار :

لازم إذا رمت الفضائل مسجداً
بشموس أنواع العلوم تنورا
فيه رياض العلم أينع زهرها
فلذلك المعنى تسمى الأزهارا
وقال بعضهم وأحسن بيتين ، معترضاً بعلماء الحرمين :
ومن يغترب عن أزهر العلم فلينج
على بعد دار العلم والعلماء
ففيه بحور طاميات وغيره
بحور عروض لا تجود بماء

وحصلت ما يسر به عليّ الفتاح بما يخرج به الإنسان من الظلام ، ويمتاز به عن
مرتبة العوام ، وكنت من معشر أشراف جارت عليهم الأيام بعد أن أجرت غيبتها في
ديارهم ، وأشارت إلى نصبهم الأعوام بعد أن نصبت أعلام راحتها في مزارهم ، ومن
المركز في الأسماع في القديم والحديث ، وعليه الإجماع بعد الكتاب والحديث ، أن
خير الأمور العلم ، وأنه أهم كل مهم ، وأن ثمرته في الدنيا والآخرة على صاحبه
تعود ، وأن فضله في كل زمان ومكان مشهود ، سهل لي الدخول في خدمة صاحب
السعادة أولاً في وظيفة واعظ في العساكر الجهادية ، ثم منها إلى رتبة مبعوث إلى

باريس صحبة الأفندية المبعوثين لتعلم العلوم والفنون الموجودة بهذه المدينة البهية ، فلما رسم اسمي في جملة المسافرين ، وعزمت على التوجه أشار عليّ بعض الأقارب والمحبين ، لا سيما شيخنا العطار ، فإنه مولع بسماع عجائب الأخبار ، والاطلاع على غرائب الآثار ، أن أنبه على ما يقع في هذه السفارة وعلى ما أراه وما أصادفه من الأمور الغريبة ، والأشياء العجيبة ، وأن أقيده ليكون نافعا في كشف القناع ، عن محيا هذه البقاع ، التي يقال فيها إنها عرائس الأقطار ، وليبقى دليلاً يهتدي به إلى السفر إليها طلاب الأسفار ، خصوصاً وأنه من أول الزمن إلى الآن لم يظهر باللغة العربية ، على حسب ظني ، شيء في تاريخ مدينة باريس ، كرسي مملكة الفرنسيين ، ولا في تعريف أحوالها وأحوال أهلها . فالحمد لله الذي جعل ذلك بأنفاس وليّ النعمة وفي عهده وبسبب عنايته وتقويته للعلوم والفنون ، ما قصرت في أن قيدت في سفري رحلة صغيرة نزعتها عن خلل التساهل والتحامل ، وبرأتها عن زلل التكاسل والتفاضل ، ووشحتها ببعض استطرادات نافعة ، واستظهارات ساطعة ، وأنطقتها بحث ديار الإسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنائع ، فإن كمال ذلك ببلاد الإفرنج أمر ثابت شائع ، والحق أحق أن يتبع . ولعمر الله إنني مدّة إقامتي بهذه البلاد في حسرة على تمتعها بذلك وخلوّ ممالك الإسلام منه . وإياك أن تجد ما أذكره لك خارقاً عن عادتك ، فيعسر عليك تصديقه فتظنه من باب الهذر والخرافات ، أو من حيز الإفراط والمبالغات . وبالجمل ، فبعض الظن إثم ، والشاهد يرى ما لا يراه الغائب .

وإذا كنت بالمدارك غرّاً
ثم أبصرت مدركاً لا تمار⁽¹⁾
وإذا لم تر الهلال فسلم
لأناس رأوه بالأبصار
وقد أشهدت الله سبحانه وتعالى على أن لا أحيد في جميع ما أقوله عن طريق

(1) شعر الأمير الصنعاني (1688 - 1768م) : محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الكحلاني ، ولد

بمدينة كحلان ونشأ وتوفي في صنعاء .

الحق وأن أفشي ما سمح به خاطري من الحكم باستحسان بعض أمور هذه البلاد وعوائدها على حسب ما يقتضيه الحال . ومن المعلوم أنني لا أستحسن إلا ما لم يخالف نص الشريعة المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأشرف التحية . وليست هذه الرحلة مقتصرة على ذكر السفر ووقائعه ، بل هي مشتملة أيضاً على ثمرته وغرضه ، وفيها إنجاز العلوم والصنائع المطلوبة ، والتكلم عليها على طريق تدوين الإفرنج لها واعتقادهم فيها وتأسيسهم لها . ولذلك نسيت في غالب الأوقات الأشياء التي هي محل للنظر وللإختلاف ، مشيراً إلى أن قصدي مجرد حكايتها . وقد سميت هذه الرحلة «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» ، أو «الديوان النفيس بإيوان باريس» ، وقد رتبته على مقدمة وفيها عدة أبواب ، وعلى مقصد وفيه عدة مقالات ، وكل مقالة فيها عدة فصول أو كتب مشتملة على فصول ، وعلى خاتمة .

وقد حاولت في تأليف هذا الكتاب سلوك طريق الإيجاز وارتكاب السهولة في التعبير حتى يمكن لكل الناس الورود على حياضه ، والوفود على رياضه ، ولو صغر حجمه ، وقل جرمه ، فهو مشحون بما لا يحصى من فوائد الفرائد ، وبما لا يستقصى من جزائل الخرائد .

فإذا بدا لا تستقلوا حجمه

وحياتكم فيها الكثير الطيب

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا الكتاب مقبولاً لدى صاحب السعادة وليّ النعم ، معدن الفضل والكرم ، وأن يوقظ به من نوم الغفلة سائر أمم الإسلام من عرب وعجم ، إنه سميع مجيب ، وقاصده لا يخيب .

مقدمة المؤلف

الباب الأول

في ذكر ما يظهر لي من سبب ارتحالننا إلى هذه البلاد التي هي ديار كفر وعناد ،
وبعيدة عنا غاية الابتعاد ، وكثيرة المصاريف لشدة غلو الأسعار فيها غاية الاشتداد .
أقول إن هذا يحتاج إلى تمهيد ، وهو أن الأصل في الإنسان السذاجة والخلوص عن
الزينة والوجود على أصل الفطرة ، لا يعرف إلا الأمور الوجدانية . ثم طرأ على بعض
الناس عدة معارف لم يسبق بها ، وإنما كشفت له بالصدفة والاتفاق أو بالإلهام
والإيحاء ، وحكم الشرع أو العقل بنفعها فاتبعت وأبقيت . مثلاً ، كان في أوائل
الزمن يجهل بعض الناس تنضيح المطعومات بالنار لجهل النار بالكلية عندهم ،
ويقتصرون على الغذاء بالفواكه أو بالأشياء المنضجة بالشمس أو أكل الأشياء النيئة ،
كما هو باق في بعض البلاد المتوحشة إلى الآن . ثم حصل ، اتفاقاً ، أن بعضهم رأى
خروج شرارة نار من الصوان بمصادمة حديدة أو نحوها ، ففعل مثل ذلك وقدم وأخرج
النار وعرف خاصيتها . وكان في الناس من يجهل الصبغ والتلوين للثياب باللون
الأرجواني ، مثلاً ، فرأى بعضهم كلباً أخذ محارة من البحر وأكل ما فيها فاحمر

حنكه وتلون بما فيها ، فأخذوها وعرفوا منها صناعة الصباغة بهذا اللون ، كما يحكى بذلك عن أهالي صور بئر الشام . وكانت الناس في أول الأمر تجهل ركوب البحر ، ثم بإلهام إلهي أو باتفاق بشري ، عرفوا أن من خواص الخشب السيح على وجه الماء فصنعوا السفينة . ثم تبخروا في السفن وعمروها ونوعوها أنواعاً ، فكانت أولاً صغيرة للتجارات ، ثم ترفعوا فيها حتى صلحت للجهاد والحرب . وقس على ذلك ما أشبهه من المحاربة بالسهم والرمح أولاً ثم بعد ذلك بالسلح ثم بالمدافع والأهوان⁽¹⁾ وقد كانت الناس في أول الزمن تعبد الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك ، ثم بإلهام الله تعالى وإرساله الرسل ، صاروا يعبدون إلهاً واحداً . فكلما تقادم الزمن في الصعود ، رأيت تأخر الناس في الصنائع البشرية والعلوم المدنية ؛ وكلما نزلت ونظرت إلى الزمن في الهبوط ، رأيت في الغالب ترقيهم وتقدمهم في ذلك . وبهذا الترقى وقياس درجاته وحساب البعد عن الحالة الأصلية والقرب منها ، انقسم سائر الخلق إلى عدة مراتب⁽²⁾ : المرتبة الأولى مرتبة الهمل المتوحشين ، المرتبة الثانية مرتبة البرابرة الخشنين ، المرتبة الثالثة مرتبة أهل الأدب والظرافة والتحضر والتمدن والتمصر المتطرقين . مثال المرتبة الأولى همل بلاد السودان الذين هم دائماً كالبهائم السارحة ، لا يعرفون الحلال من الحرام ولا يقرؤون ولا يكتبون ولا يعرفون شيئاً من الأمور المسهلة للمعاش أو النافعة للمعاد ، وإنما تبعثهم الوجدانية على قضاء شهواتهم كالبهائم ، فيزرعون بعض شيء أو يصيدونه لتحصيل قوتهم ، ويخصصون بعض الخصاص⁽³⁾ أو الخيام للتوقي من حرّ الشمس ونحوه . ومثال المرتبة الثانية عرب البادية ، فإن عندهم نوعاً من الاجتماع الإنساني والاستثناس والائتلاف لمعرفة الحلال من الحرام والقراءة والكتابة وغيرها وأمور الدين ونحو ذلك ، غير أنهم أيضاً لم تكمل عندهم درجة الترقى في أمور المعاش والعمران والصنائع البشرية والعلوم العقلية والنقلية ، وإن

(1) أهوان : جمع هاون ، والصحيح أن تجمع على هواوين وهاونات .

(2) هذا التقسيم مأخوذ ترجمة من المصادر الفرنسية ، والنظرة الاستعمارية العنصرية فيه واضحة وجارحة .

(3) الخصاص : جمع خص ، وهو كوخ من القصب أو أغصان الشجر .

عرفوا البناء والفلاحة وتربية البهائم ونحو ذلك . ومثال المرتبة الثالثة بلاد مصر والشام واليمن والروم والعجم والإفرنج والمغرب وسنار⁽⁴⁾ وبلاد أمريقة على أكثرها وكثير من جزائر البحر المحيط ، فإن جميع هؤلاء الأمم أرباب عمران وسياسات ، وعلوم وصناعات ، وشرائع وتجارات ، ولهم معارف كاملة في آلات الصنائع والحيل على حمل الأشياء الثقيلة بأخف الطرق ، ولهم علم بالسفر في البحور إلى غير ذلك . وهذه المرتبة الثالثة تتفاوت في علومها وفنونها وحسن حالها وتقليد شريعة من الشرائع وتقدمها في النجاة والبراعة في الصنائع المعاشية ، مثلاً البلاد الإفرنجية قد بلغت أقصى مراتب البراعة في العلوم الرياضية والطبيعية وما وراء الطبيعة ، أصولها وفروعها . ولبعضهم نوع مشاركة في بعض العلوم العربية ، وتوصلوا إلى فهم دقائقها وأسرارها كما سنذكره ، غير أنهم لم يهتدوا إلى الطريق المستقيم ولم يسلكوا سبيل النجاة ولم يرشدوا إلى الدين الحق ومنهج الصدق . كما أن البلاد الإسلامية قد برعت في العلوم الشرعية والعمل بها وفي العلوم العقلية وأهملت العلوم الحكيمة بجملتها ، فلذلك احتاجت إلى البلاد الغربية في كسب ما لا تعرفه وجلب ما تجهل صنعه . ولهذا حكم الإفرنج بأن علماء الإسلام إنما يعرفون شريعتهم ولسانهم يعني ما يتعلق باللغة العربية ، ولكن يعترفون لنا بأننا كنا أساتيدهم في سائر العلوم وبقدمنا عليهم . ومن المقرر في الأذهان وفي خارج الأعيان أن الفضل للمتقدم . أو ليس المتأخر يغترف من فضالته ، ويهتدي بدلالته؟ وما أحسن قول الشاعر :

وما شجاني أنني كنت نائماً
أعلل من فرط الكرى بالتنسّم
إلى أن بكّت ورقاء في غصن أَيْكة
تردّد مبكاها بحسن التّرثّم
فلو قبل مبكاها بكيت صباة
بسعدى شفيت النفس قبل التندّم

(4) سنار (بتشديد النون) : مدينة سودانية في مديرية النيل الأزرق ، أسسها الفونج وكانت مملكة مزدهرة

ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا
بكاهها فقلت الفضل للمتقدم
ويعجبني أيضاً قولهم في هذا المعنى عند المكافأة :
أنا الشجاع الذي قد كنت في ظمأ
وسط الهجير على الرمضاء في الوادي
فجدت بالماء فضلاً منك مبتدأ
بغير قل فأشفي غلة الصادي
هذا جزاؤك منا لا تمنّ به
فضلاً بفضل وكان الفضل للبادي

فإننا كنا في زمن الخلفاء العباسيين أكمل سائر البلاد تمدناً ورفاهية وتربية زاهرة زاهية . وسبب ذلك أن الخلفاء كانوا يعينون العلماء وأرباب الفنون وغيرهم ، على أن منهم من كان يشتغل بها بنفسه . فانظر إلى المأمون بن هارون الرشيد ، فإنه زيادة عن إعانة ميقاتية دولته ، كان يشتغل بنفسه في علم الفلك ، كيف وهو الذي قد حرّر ميل دائرة فلك البروج على دائرة الاستواء ، فوجده بالامتحان ثلاثاً وعشرين درجة وخمساً وثلاثين دقيقة وغير ذلك . وقد أعان جعفر المتوكل من العباسية أصفطافان⁽⁵⁾ على ترجمة الكتب اليونانية ككتاب ديسقوريدس في الأدوية . وكذلك الملك عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس ، فإنه طلب من ملك قسطنطينية المسمى أرمانوس أن يبعث إليه رجلاً يتكلم باللسان اليوناني واللاتيني ليعلم له عبيداً يكونون مترجمين عنده ، فبعث له راهباً يسمى نقولا إلى غير ذلك . فمن هنا تفهم أن العلوم لا تنتشر في عصر إلا بإعانة صاحب الدولة لأهله ، وفي الأمثال الحكمية : الناس على دين ملوكهم . وقد تشتت عز الخلفاء وانهدم ملكهم ، فانظر إلى الأندلس فإنها بأيدي النصاري الاسبانيول من نحو ثلاثمائة وخمسين سنة . وقد قويت شوكة

(5) أصفطافان (أسطافان) بن باسيل : من المترجمين العرب في بداية القرن التاسع الميلادي . ترجم كتاب

(الخصائص في الطب) لديوسقوريدس Dioskorides .

الإفرنج ببراعتهم وتدبيرهم بل وعدلهم ومعرفتهم في الحروب وتنوعهم واختراعهم فيها ، ولولا أن الإسلام منصور بقدرة الله سبحانه وتعالى لكان كل شيء بالنسبة لقوتهم وسوادهم وثروتهم وبراعتهم وغير ذلك . ومن المثل المشهور : إن أعقل الملوك أبصرهم بعواقب الأمور . ولهذا تنبه ولي النعمة ، حفظه الله تعالى حيث ولاه الله سبحانه وتعالى على بلاد مصر القاهرة ، أن يرجع إليها شبابها الدائم ، ويحيي رونقها الرميم . فمن مبدأ توليه ، حفظه الله سبحانه وتعالى ، وهو يعالج في مداواة دائها الذي لولاه كان عضلاً ، ويصلح فسادها الذي قد كاد يكون زواله محالاً ، يلتجئ إليه أرباب الفنون البارة ، والصنائع النافعة من الإفرنج ويغدق عليهم فائض نعمته ، حتى إن العامة بمصر بل وبغيرها من جهلهم يلومونه في أنفسهم غاية اللوم بسبب قبول الإفرنج وترجييه بهم وإنعامه عليهم ، جهلاً منهم بأنه حفظه الله إنما يفعل ذلك لإنسانيتهم وعلومهم لا لكونهم نصارى ، فالحاجة دعت إليه . ولله در من قال :

إن المعلم والطبيب كلاهما

لم يبذلا نصحاً إذا لم يكرما

فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه

واصبر لجهلك إن جفوت معلما

ولا يتأتى لإنسان أن ينكر أن الفنون والصنائع الغربية بمصر قد برعت الآن بل وقد وجدت بعد أن لم تكن ، ويرجى بلوغها درجة كمال وفوقان . فما أنفقه صاحب السعادة على ذلك كان في محله اتفاقاً . فانظر إلى الورش والمعامل والمدارس ونحوها ، وانظر إلى ترتيب أمر العساكر الجهادية من إليات ومدارس حربية ، فإنه من أحسن ما صنعه صاحب السعادة وأحق ما يؤرخ من فعل الخيرات . ولا يمكن إدراك ضرورة هذا النظام إلا لمن رأى بلاد الإفرنج أو شاهد الوقائع ، وبالجمل والتفصيل . فولي النعمة آماله دائماً متعلقة بالعمارة ، ومن الحكم المعروفة العمارة كالحياة والخراب كالموت ، وبناء كل ملك على قدر همته . وقد سارع ولي النعمة - حفظه الله تعالى - في تحسين بلاده ، فأحضر فيها ما أمكنه إحضاره من علماء الإفرنج ، وبعث ما أمكنه بعثه من مصر إلى تلك البلاد ، فإن علماءها أعظم من غيرهم في العلوم الحكيمة . وفي الحديث : الحكمة ضالة المؤمن يطلبها ولو في أهل الشرك . قال بطليموس الثاني :

خذوا الدر من البحر والمسك من الفارة والذهب من الحجر والحكمة ممن قالها . وفي الحديث : اطلب العلم ولو بالصين⁽⁶⁾ . ومن المعلوم أن أهل الصين وثنويون ، وإن كان المقصود من الحديث السفر إلى طلب العلم . وبالجملة ، حيثما أمن الإنسان على دينه فلا ضرر في السفر ، خصوصاً لمصلحة مثل هذه المصلحة . ولعل هذا كله مطمح نظر صاحب السعادة في هذه الإرسالية وغيرها من الإرساليات المتتالية المتسلسلة . فثمرة هذا السفر تحصل ، إن شاء الله تعالى ، بنشر هذه العلوم والفنون الآتية في الباب الثاني وبكثرة تداولها وترجمة كتبها وطبعها في مطابع وليّ النعم . فينبغي لأهل العلم حث جميع الناس على الاشتغال بالعلوم والفنون والصنائع النافعة . وليس هذا الزمان قابلاً لأن يقال فيه كما قال بهاء الدين أبو حسين العاملي⁽⁷⁾ في صرف العمر في جمع كتب العلم وادّخارها ومطالعتها في شعره :

على كتب العلوم صرفت مالك
وفي تصحيحها أتعبت بالك
وأنفقت البياض مع السواد
إلى ما ليس ينفع في المعاد
تظل من المساء إلى الصباح
تطالعها وقلبك غير صاح
وتوضيح الخفا في كل باب
وتوجيه السؤال مع الجواب

(6) حديث موضوع . انظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني برقم / 416 . الجزء الأول .

(7) بهاء الدين محمد بن الحسين العاملي (1547-1626م) : فقيه إمامي ، أديب شاعر ، ولد في بعلبك وأصله من جبل عامل في لبنان ، من كتبه «العروة الوثقى» في التفسير ، و«الحبل المتين» في الحديث ، وله كتب في الفلك والرياضيات .

لعمري قد أضلتك الهداية
ضلالاً ماله أبدأً نهاية
وبالمحصل حاصلك الندامة
وحرمان إلى يوم القيامة
وتذكرة المواقف والمراصد
تسدّ عليك أبواب المقاصد
فلا ينجي النجاة من الضلالة
ولا يشفي الشفاء من الجهالة
وبالإرشاد لم يحصل رشاد
وبالتبيان ما بان السداد
وبالإيضاح أشكلت المدارك
وبالمصباح أظلمت المسالك
وبالتلويح ما لاح الدليل
وبالتوضيح ما اتضح السبيل
صرفت خلاصة العمر العزيز
على تنقيح أبحاث الوجيز
بهذا الأمر صرف العمر جهل
فقم واجهد فما في الوقت مهل
ودع عنك الشروح مع الحواشي
فهن على البصائر كالغواشي

وقوله :

أيها القوم الذي في المدرسة
كل ما حصلتوه وسوسة
فكركم إن كان في غير الحبيب
ما له في النشأة الأخرى نصيب

فاغسلوا بالراح عن لوح الفؤاد
كل علم ليس ينجي في المعاد
لأن هذا مقال من تجرد عن الدنيا ، وانهمك على الأخرى ، أو من اشترى العلوم
بأعلى ثمن ، فبخس صفقتها حادث الزمن .

الباب الثاني (من المقدمة)

يتعلق بالعلوم والفنون المطلوبة، والحرف والصنائع المرغوبة

ولنذكر لك هنا الصنائع المطلوبة لتعرف أهميتها ولزومها في أي دولة من الدول .
وهذه الفنون إما واهية في مصر أو مفقودة بالكلية . وهي قسمان : قسم عام للتلامذة ،
وهو الحساب والهندسة والجغرافيا والتاريخ والرسم ؛ وقسم خاص متوزع عليهم ، وهو
عدة علوم : العلم الأول علم تدبير الأمور الملكية ويتشعب عنه عدة فروع ، والحقوق
الثلاثة التي يعتبرها الإفرنج وتسمى بالنواميس وهي الحقوق الطبيعية ، والحقوق
البشرية ، والحقوق الوضعية ، وعلم أحوال البلدان ومصالحها وما يليق بها ، وعلم
الاقتصاد في المصاريف ، وعلم تدبير المعاملات والمحاسبات والخازندارية وحفظ بيت
المال . العلم الثاني علم تدبير العسكرية . العلم الثالث علم القبطانية والأمور البحرية .
العلم الرابع فن معرفة المشي في مصالح الدول ، يعني علم السفارة ، ومنه الإيلجية وهي
رسالة البلدان ، وفروعه معرفة الألسن والحقوق والإصطلاحات . العلم الخامس فن
المياه ، وهو صناعة القناطر والجسور والأرصفة والفساقي ونحو ذلك . العلم السادس
الميكانيكا ، وهي آلات الهندسة وجرّ الأثقال . العلم السابع الهندسة الحربية . العلم
الثامن فن الرمي بالمدفع . العلم التاسع فن سبك المعادن لصناعة المدافع والأسلحة
وغيرها . العلم العاشر علم الكيمياء وصناعة الورق ، والمراد بالكيمياء معرفة تحليل الأجزاء
وتركيبتها ، ويدخل تحتها أمور كثيرة كصناعة البارود والسكر ، وليس المراد بالكيمياء حجر
الفلاسفة كما يظنه بعض الناس ، فإن هذه لا تعرفه الإفرنج ولا تعتقده أصلاً . العلم
الحادي عشر فن الطب ، وفروعه فن التشريح والجراحة وتدبير الصحة ، وفن معرفة مزاج

المريض ، وفن البيطرة أي معالجة الخيل وغيرها . العلم الثاني عشر علم الفلاحة ، وفروعها معرفة أنواع الزروع وتدبير الخلاء بالبناء اللائق به وغيرها ، ومعرفة ما يخصه من آلات الحراثة المدبرة للمصاريف . العلم الثالث عشر علم تاريخ الطبيعيات ، وفروعها الحيوانات ومرتبة النباتات ومرتبة المعادن . العلم الرابع عشر صناعة النقاشة ، وفروعها فن الطباعة وفن حفر الأحجار ونقشها ونحوها . العلم الخامس عشر فن الترجمة ، يعني ترجمة الكتب ، وهو من الفنون الصعبة خصوصاً ترجمة الكتب العلمية ، فإنه يحتاج إلى معرفة اصطلاحات أصول العلوم المراد ترجمتها ، فهو عبارة عن معرفة اللسان المترجم عنه وإليه والفن المترجم فيه . فإذا نظرت بعين الحقيقة رأيت سائر هذه العلوم المعروفة معرفة تامة لهؤلاء الإفرنج ناقصة أو مجهولة بالكلية عندنا . ومن جهل شيئاً فهو مفتقر لمن أتقن ذلك الشيء ، وكلما تكبر الإنسان عن تعلمه شيئاً مات بحسرتة . فالحمد لله الذي قيض وليّ النعمة لإنقاذنا من ظلمات جهل هذه الأشياء الموجودة عند غيرنا . وأظن أن من له ذوق سليم وطبع مستقيم يقول كما أقول ، وسأذكر بعضها بالاختصار في آخر الكتاب ، إن شاء الله تعالى وهو المستعان .

(8) الباب الثالث

(من المقدمة)

في ذكر وضع البلاد الإفرنجية ونسبتها إلى غيرها من البلاد ومزية الأمة الفرنسية على من عداها من الإفرنج وتبيين تخصيص صاحب السعادة لها بإرسالنا فيها دون ما عداها من ممالك الإفرنج فنقول:

اعلم أن الجغرافيين من الإفرنج قسموا الدنيا من الشمال إلى الجنوب ومن المشرق إلى المغرب خمسة أقسام ، وهي بلاد أوربا (بضم الهمزة والراء وتشديد الباء) وبلاد

(8) يبدو أن بعض الأسماء الجغرافية الواردة في هذا الباب قد تغيرت في أطلس العالم ، أو أن المؤلف ترجمها من قاموس جغرافي قديم . ومن الواضح إبدال الكاف قافاً والصاد سيناً كما في (موسقو ، السرب ، نيورق . . الخ) .

آسيا (بكسر السين) وبلاد الأفريقية ، وبلاد الأمازيقية ، وجزائر البحر المحيط المسماة الأوقيانوسية . فبلاد أوروبا محدودة جهة الشمال بالبحر المتجمد المسمى بحر الثلج الشمالي⁽⁹⁾ ، وجهة الغرب ببحر الظلمات المسمى البحر المظلم والبحر الغربي⁽¹⁰⁾ ، وجهة الجنوب ببحر الروم المسمى البحر المتوسط والأبيض وبلاد آسيا ، وجهة الشرق ببحر الخزر⁽¹¹⁾ (بضم الخاء والزاي آخره راء) ، ويقال له بحر الخزر (بحاء مهملة مفتوحة ثم زايين معجمتين ، أولاهما مفتوحة) ، ويسمى أيضاً بحر جرجان وبحر طبرستان ، وبلاد آسيا . فحينئذ بلاد أوروبا تقال على بلاد الإفرنج وبلاد الأروام وبلاد قسطنطينية وبلاد الخزر والبلغار والأفلاق والبغدان والسرب وغيرها ، وهي نحو ثلاث عشرة أرضاً أي ولاية أصلية : أربعة منها في الشمال ، وهي بلاد الإنكليز وبلاد دانيمرق (بكسر النون وفتح الميم وسكون الراء) وبلاد أسوج⁽¹²⁾ (بفتح الهمزة وسكون السين وكسر الواو) وبلاد الموسقو ؛ وستة في الوسط ، وهي بلاد الفلمنك وبلاد الفرنسيين وبلاد السويس وبلاد النيمسة وبلاد البروسة (بضم الباء) وبلاد جرمانية المتعاهدة ؛ وثلاثة في الجنوب ، وهي بلاد أسبانيا مع البرتغال وبلاد إيطاليا وبلاد الدولة العثمانية في بلاد أوروبا التي هي بلاد الأروام والأرناؤط والبشناق والسرب (بالباء أو الفاء) والبلغار والأفلاق والبغدان (بضم الباء وسكون الغين) . فمن ذلك تعلم أن تفسير بعض المترجمين بلاد أوروبا ببلاد الإفرنج فيه قصور ، اللهم إلا أن تكون بلاد الإفرنج تطلق على ما يعم بلاد الدولة العلية ، ولكن يناقض ذلك أن الدولة العثمانية يقصرون بلاد إفرنجستان على ما عدا بلادهم من بلاد أوروبا ، ويسمون بلادهم ببلاد الروم ، وإن كانوا يعممون أيضاً في لفظ الروم فيريدون به بعض الأحيان ما يعم بلاد الإفرنج وبعض البلاد الداخلة في حكمهم من بلاد آسيا . وبلاد آسيا محددة أيضاً جهة الشمال بالبحر المتجمد الشمالي ، وجهة الغرب ببلاد أوروبا

(9) المحيط المتجمد الشمالي .

(10) المحيط الأطلسي .

(11) المعروف اليوم أن اسم هذا البحر يلفظ بفتح الخاء والزاي ، لا بضمهما ، وهو في آسيا .

(12) أسوج : السويد .

والأفريقية ، وجهة الجنوب ببحر الهند وبحر الصين ، وجهة الشرق ببحر الجنوب المحيط وبنهر بهرنغ (بكسر الباء وسكون الهاء وفتح الراء وسكون النون وبالغين أو الكاف) وهي تنقسم أيضاً إلى عشرة أراضٍ أصلية : واحدة جهة الشمال وهي بلاد سبير ، وسبعة في الوسط وهي بلاد الدولة العلية العثمانية التي هي الشام وأرمينية وكردستان وبغداد والبصرة وقبرص وغيرها ، ثم بلاد العجم وبلاد بلوچستان وبلاد قابولستان وهي أفغانستان ، وبلاد التتار الأكبر وبلاد الصين وبلاد يابونيا⁽¹³⁾ ، واثنان في الجنوب وهي بلاد العرب وبلاد الهند فبلاد الحجاز وبلاد الوهابية تحت حكم الدولة العلية وبلاد اليمن تحت حمايتها وبلاد عمان مستقلة وكلها أقاليم جزيرة العرب ، فهذه هي ولايات آسيا . ثم بلاد الأفريقية وهي محدّدة جهة الشمال ببحر الروم ، وجهة الغرب بالبحر الأطلنطيقيّ المسمى بحر الظلمات ويسمى بحر المغرب ، وجهة الجنوب بالبحر المحيط الجنوبيّ ، وجهة الشرق ببحر الهند وبيغاز⁽¹⁴⁾ باب المندب وبحر القلزم المسمى البحر الأحمر وبلاد العرب . ويمكن تقسيم الإفريقية إلى ثمانى أراضٍ أصلية : اثنتان من الشمال وهما بلاد المغاربة وبلاد مصر ، وأربعة في الوسط وهي السينيغيا وبلاد الزنج وبلاد النوبة وبلاد الحبشة ، واثنان في الجنوب وهما بلاد غينا وبلاد كفرة . فهذا ما يسمى الآن عند الإفرنج بلاد أفريقية ، وإن كانت أفريقية في الأصل بلدة معلومة جهة تونس وما حواليتها . ثم أضيف إلى بلاد أوروبا ما قاربها من الجزائر ، وكذلك لبلاد آسيا وأفريقية . وهذه الأقسام الثلاثة يعني أوروبا وآسيا وأفريقية تسمى الدنيا القديمة والأرض القديمة يعني المعروفة للقدماء ، وأما بلاد أمريكة أو أمريكة (بالكاف أو القاف) فتسمى الدنيا الجديدة ، وتسمى أيضاً الهند الغربيّ ، وتسمى في بعض الكتب العربية عجائب المخلوقات . وهي إنما عرفت للإفرنج بعد تغلب النصارى على بلاد الأندلس وإخراج العرب منها . فإن هذا الوقت كان مبدءاً للسياحة ، وجوب البحر المحيط واستكشاف البلاد بإعانة الدول لأرباب الأسفار والملاحه . وأما الآن فقد كادت السياحة تكون عند الإفرنج فنا من الفنون ، فليس كل

(13) يابونيا : اليابان .

(14) بيغاز أو بوغاز (كلمة تركية) : مضيق مائي .

أحد يحسنها ولا كل دولة تتقنها ، وذلك أنه لما كثرت الآلات الفلكية والطبيعية ، سهلت الاكتشافات البرية والبحرية ، وتداولت الأسفار ، واستكشفت الأماكن والأقطار ، وضم إلى ما يعرف من قديم الزمان ، هذه الدنيا الجديدة التي انتظمت في سلك معرفة ولي العرفان . ثم زاد الحال باختراع سفن النار ، ومراكب البخار ، فتقاربت الأقطار الشاسعة ، وتزاورت أهالي الدول وصارت المعاملات والمخالطات بينها متتابعة . وبما قام مقام آلات السياحة قبل ابتداعها ، وناب عن أدوات الملاحة قبل اختراعها ، الأنوار المحمدية ، والغيرة الإسلامية ، بل والمعارف الوافرة في العلوم الرياضية والفلكية والجغرافية ، في زمن الخلفاء العباسية ، ففتحوا بلاد مصر والسودان والمغرب والعجم وبلاد قابول وبخارى والهند والسند وجزائر سيلان وسومطرا وبلاد التبت والصين وعدة ولايات ببلاد أوربا مثل ممالك الأندلس وصقلية وبلاد الروم وغير ذلك ، وتقدمت عندهم العلوم الجغرافية واشتهر من علماء الجغرافية كثيرون كالمسعودي وابن حوقل والشريف الإدريسي وابن الوردي والسلطان عماد الدين أبي الفدا ، صاحب حماة . ثم لما خمدت عندهم أنوار هذه المعارف وأهملوها ازدراء لها أو لسبب آخر ، قلت سياحاتهم وقام مقامهم طوائف الإفرنج وبرعوا في ذلك ، واستفادت الدولة والرعية الفوائد الجسمية بالأمر السياسية والتجارية ، وصيروا الأمم أشباه البهائم إلى ملة النصرانية ، وكان الإسلام أولى بتلك المزية . ولقد تصدى وليّ النعم ، وعليّ الهمم ، لإحياء هذه المعارف ، التليد منها والطارف ، حتى لاحت تباشير بدور العلوم ، وتلاشت عن المعارف غياهب الأحلاك والغيوم . شعر :

وإذا رأيت من الهلال غموة

أيقنت أن سيصير بدراً كاملاً⁽¹⁵⁾

ثم إن بلاد الأمازيق تتصل بستة بحور ، فيتصل بها من جهة الشمال البحر المتجمد وبحر بافين ، ومن جهة الشرق ببحر المغرب وبحر جزائر الأنتيلة وبحر المحيط الأكبر المسمى أقيانوس وبحر بهرنغ جهة الغرب ، وهي قسمان ، الأمازيق

(15) الشاعر هو أبو تمام (803-845م) : حبيب بن أوس بن الحارث الطائي . وقد ورد البيت في

(الموسوعة الشعرية) كما يلي : إن الهلال إذا رأيت غموة أيقنت أن سيصير بدراً كاملاً

الشمالية والأمريكية الجنوبية : فأمريكة الشمالية ست أراض أصلية : وهي الأمريكة الروسية⁽¹⁶⁾ أو المحكومة بالموسقو ، وبلاد أغرونلند ، وبلاد ابرطانية الجديدة أو بلاد الإنكليز الجديدة ، وبلاد الإيتازونيا وهي الأقاليم المجتمعة ، وبلاد مكسيك ، وبلاد غواتيمالا . والأمريكة الجنوبية تسع أراض : وهي بلاد كلنبيا ، وبلاد ابرزيله ، وبلاد برّو ، وبلاد بولويه وهي برّو العليا ، وبلاد براغيا ، وبلاد بلاطة ، وبلاد شلي (بكسر الشين وتشديد اللام المكسورة) وبلاد بتاغونيا (بفتح الباء والتاء وضم الغين وكسر النون) . وأما جزائر البحر المحيط فإنها غربي بلاد الأمريكة ، وعلى الجنوب الشرقي من بلاد آسيا ، وهي محدّدة من سائر جهاتها بالبحر المحيط وهي ثلاثة أجزاء أصلية النوتازية (بضم النون المشدّدة وكسر الزاي) والاستورالية (بضم الهمزة وسكون السين وضم التاء وكسر اللام) والبولينيزية (بضم الباء وكسر اللام والنون والزاي) ، ثم بلاد أوربا ، فيها أربع بنادر أصلية مشهورة بالتجارة : إسلامبول تحت الدولة العلية ، ولوندره (بضم اللام وسكون النون وفتح الدال) تحت بلاد الإنكليز ، وباريس تحت بلاد الفرنسيين ، ونابلي (بضم الباء) ببلاد إيطاليا . والبنادر الأصلية ببلاد آسيا أربعة أيضاً : بكين (بكسر الباء والكاف) قاعدة بلاد الصين ، وقلقوطة (بفتح القاف واللام وضم القاف) ويقال كلكتة (بكافين) قاعدة بلاد الهند التي تحت حكم الإنكليز ، وصورة ببلاد الهند أيضاً ويقال هي التي كانت تسمى المنصورة⁽¹⁷⁾ ، ومياقو⁽¹⁸⁾ (بكسر الميم وضم القاف) في بلاد جزيرة يابونيا . والبنادر الأصلية ببلاد الأفريقية أربعة : القاهرة قاعدة مصر ، وسنار قاعدة حاكم بلاد النوبة ، والجزائر وتونس ببلاد المغاربة . والبنادر الأصلية ببلاد أمريكة الشمالية هي مكسيكو ببلاد مكسيك ، ونويرق⁽¹⁹⁾ في بلاد الإيتازونيا ، وفيلادلفيا (بكسر الفاء والدال وسكون اللام وكسر الفاء) ومدينة

(16) المقصود ألاسكا قبل أن يبيعها الروس للأميركان .

(17) صورة : ميناء Surat على ساحل الهند الغربي .

(18) مياقو : Miyako مدينة يابانية على ساحل المحيط الهادئ ، وهي ليست من الموانئ المشهورة .

(19) نويرق : نيويورك ، لكنني لم أعثر على (إيتازونيا) .

وسهنتون⁽²⁰⁾ (بسكر السين وكسر الهاء ثم نون ساكنة بعدها غين مكسورة) ، وأربعة في أمريقة الجنوبية وهي ريوبانيز⁽²¹⁾ (بكسر الراء وضم الياء وكسر النون) في بلاد ابريزله ، وبنوسيرس (بكسر الباء والسين والراء) في بلاد بلاطة⁽²²⁾ ، وليمة (بكسر اللام) في بلاد برو ، وقيطو⁽²³⁾ (بكسر القاف) في بلاد غرناطة الجديدة . وفي بلاد البحر المحيط بندران شهيران وهما مدينة بتاوبا⁽²⁴⁾ بندر جزيرة جاوة ومدينة مانيلة الواقعة في جزيرة مانيلة ، إحدى جزائر فيليبينية . فهذه المدينة هي قاعدة جميع هذه الجزائر . ثم إن بلاد أوربا أغلبها نصارى ، وبلاد الدولة العلية هي بلاد الإسلام بهذه القطعة . وأما بلاد آسيا فإنها منبع بلاد الإسلام بل وسائر الأديان ، وهي أوطان الأنبياء والمرسلين ، وبها نزلت سائر الكتب السماوية ، وهي تتضمن أشرف الأماكن والأراضي المباركة والمساجد التي لا تشد الرحال إلا إليها ، وفيها منشأ ومضم عظام سيد الأولين والآخرين والصحابة . وهي منشأ الأئمة الأربعة رضي الله تعالى عنهم ، لأن منشأ الإمام الشافعي رضي الله عنه غرة ، ومنشأ الإمام مالك رضي الله عنه المدينة المشرفة ، ومنشأ الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان الكوفة ، ومنشأ الإمام أحمد بن حنبل بغداد التي كانت كما قيل في أيام الخلفاء بالنسبة للبلاد كالأستاذ في العباد . وكلها من بلاد آسيا ، وبها يعنى ببلاد آسيا العرب ، وهم من أفضل القبائل على الإطلاق ، ولسانهم أفصح الألسن باتفاق . وفيهم بنو هاشم الذين هم ملح الأرض وزبدة المجدود ودرع الشرف . وما يدل على فضلها أن بها الأماكن المفضلة كالقبلة التي يجب على كل إنسان أن يتوجه إليها خمس مرّات في اليوم واليلة ،

(20) واشنطن Washington ، ويمكن أن نلاحظ مدى الاختلاف بين الاسم الحقيقي والترجمة الحرفية عن الفرنسية .

(21) ريوبانيز : هي ريوبانيتو في البرازيل .

(22) لا بلاتا : بلدة جنوب بوينس أيرس في الأرجنتين ، وهذا الاسم منتشر في عدد من الدول الأميركية ، شمالها وجنوبها .

(23) قيطو : كيتو Quito في الإكوادور . أما غرناطة الجديدة Nueva Granada فهي اليوم في كولومبيا .

(24) يلفظ هذا الاسم بالأجنبية باتاقبا وهي نفسها جاكركا العاصمة .

والمدينتين اللتين نزل بهما القرآن العظيم ، ففضائلها لا تحصى وأثار أهلها لا تستقصى . قال بعض أهلها :

عطفة يا جيرة العلم
يا أهيل الجود والكرم
نحن جيران لذا الحرم
حرم الإحسان والحسن
نحن من قوم به سكنوا
وبه من خوفهم أمنوا
وبآيات الكتاب عنوا
فاتئد فينا أخوا الوهن
نعرف البطحا وتعرفنا
والصفاء والبيت يالفنا
ولنا المعلى وخيف منى
فناعلمن هذا وكن وكن
ولنا خير الأنام أب
وعلي المرتضى حسب
وإلى السبطين ننتسب
نسباً ما فيه من دخن⁽²⁵⁾

ومع أن الإسلام قد تولد فيها وانتشر منها إلى غيرها ، ففيها جزء عظيم باق على الابتداء أو الكفر كبلاد الصين وبعض بلاد الهند ، وجزء سالك في إسلامه طريق الضلال كروافض العجم⁽²⁶⁾ . وأما بلاد إفريقية فإنها تشتمل على أعظم البلاد ، كبلاد مصر التي هي من أعظم البلاد وأعمرها ، وهي أيضاً عش الأولياء والصلحاء والعلماء ، وبلاد المغرب التي أهلها أهل صلاح وتقى وعلم وعمل . وإن شاء الله يمتدّ

(25) الدخن (بفتح الدال والحاء) : الكدر والفساد .

(26) يعني مذاهب الشيعة

بها الإسلام عند كفار السودان بأنفاس وليّ النعمة حفظه الله تعالى . وأما أمريقة
فهى بلاد كفر ، وذلك أنها كانت عامرة في الأصل بهمل عبدة الأصنام ، فتغلب
عليها الإفرنج لما قويت شوكتهم في الفنون الحربية ، ونقلوا إليها جماعة من بلادهم ،
وأرسلوا إليها قسيسين فتنصر كثير من أهلها . فالآن بلاد أمريقة غالبها نصارى إلا
الهمل فهم وثنيون ، ولم يوجد بها دين الإسلام . وسببه قوة الإفرنج في علم ركوب
البحر ، ومعرفتهم العلوم الفلكية والجغرافية ، ورغبتهم في المعاملات والتجارات ،
وحبهم للسفر قال الشاعر :

إن العلا حدثتني وهي صادقة
فيما تحدث أن العز في النقل
لو كان في شرف المأوى بلوغ منى
لم تبرح الشمس يوماً دائرة الحمل

وقال آخر :

قلقل ركابك لل فلا
ودع الغواني والقصور
فمُحالفوا أوطانهم
أمثالُ سكّان القبور
لولا التفرب ما ارتقت
درر البحور إلى النحور

وقال الحريري :

لَجَوْبُ البلادِ مع المتربة
أحبُّ إليَّ من المرتبة

وقال غيره :

قم واغترب في البلاد مجتهداً
فمن ثوى في بلاده هانا

كبيدق لا يزال محتقراً
حتى إذا صار صراراً فرزانا⁽²⁷⁾

وقال :

أنفق من الصبر الجميل فإنه
لم يخش فقراً منفق من صبره
والمرء ليس ببالغ في أرضه
كالصقر ليس بصائد في وكره

ومن المعلوم أن الدر والمسك لا يشرفان ما لم يفارقا وطنهما ومعدنهما ، وكل هذا
لا ينافي أن حب الوطن من شعب الإيمان ، لأن المقصود السياحة والأخذ في أسباب
طلب الرزق . وهذا لا يمنع من تعلق الإنسان بوطنه ومسقط رأسه ، فإن هذا أمر
جِبلي⁽²⁸⁾ قال الشاعر :

يا بعييد الدار عن وطنه
مفرداً يبكي على شجته
كلما جدّ الرحيل به
زادت الأسقام في بدنه

وقال غيره :

ولقد زادني الفؤاد شجى
طائر يبكي على فننه
شفه ما شفني فبكي
كلنا يبكي على سكنه
ولا ينافي أيضاً هذا الأمر مادة التوكل والاعتماد على المولى ، كما يفهم من كلام
الشاعر في قوله :

(27) الفرزان (في الشطرنج) : الوزير .

(28) جبلي (بكسر الجيم والباء واللام المشددة) : فطري ، من طبيعة الإنسان كما أبدعها الخالق .

لقد علمت وما الإسراف من خلقي
إن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فيعييني تطلبه
ولو قعدت أتاني ليس يعييني

وقول الآخر :

اقنع بأيسر رزق أنت نائله
واحذر ولا تتعرض للإرادات
فما صفا البحر إلا وهو منتقص
ومما تكدر إلا في الزيادات

فإن هذا معناه التسلية لمن لا يحب الأسفار أو النهي عن السفر للطمع . وأما بلاد جزائر البحر المحيط ، فإنها قد فتح كثير منها بالإسلام كجزيرة جاوة ، فإن أهلها مسلمون . وبالجمله ، فبلاد النوتازية أغلبها إسلام وندر وجود دين النصرانية فيها . ومن ذلك كله تعلم أنه يمكن أن أقسام الدنيا الخمسة يصح تفضيل بعضها على بعض ، يعني تفضيل جزء بتمامه على الآخر بتمامه ، بحسب مزية الإسلام وتعلقاته ، فحينئذ تكون آسيا أفضل الجميع ثم تليها أفريقية لعمارها بالإسلام والأولياء والصلحاء ، خصوصاً باشتمالها على مصر القاهرة ، ثم تليها بلاد أوربا لقوة الإسلام ووجود الإمام الأعظم إمام الحرمين الشريفين سلطان الإسلام فيها ، ثم بلاد الجزائر البحرية لعمارها بالإسلام أيضاً مع عدم تبحرها في العلوم كما هو الظاهر . فأدنى الأقسام بلاد أمريكة حيث لا وجود للإسلام بها أبداً . هذا ما يظهر لي ، والله أعلم بالصواب . وهذا كله بالنظر للإسلام والأمور الشرعية والشرف الذاتي ، فإن المراد بالشرف ما يعم الشرعي وغيره ، فلا يقال إن أغلب ذلك من باب المزية ، وهي وحدها لا تستدعي أفضلية . ولا ينكر منصف أن بلاد الإفرنج الآن في غاية البراعة في العلوم الحكمية . وأعلاها في التبخر في ذلك بلاد الإنكليز والفرنسيين والنمسا ، فإن حكماءها فاقوا الحكماء المتقدمين كأرسطاطاليس وأفلاطون وسقراط وأمثالهم ، وأتقنوا الرياضيات والطبيعات والإلهيات وما وراء الطبيعيات أشد إتقان ، وفلسفتهم أخلص من فلسفة المتقدمين ، لما أنهم يقيمون الأدلة على وجود الله تعالى وبقاء الأرواح

والثواب والعقاب . فأعظم مدائن الإفرنج مدينة لوندرة ، بصحة هوائها كما قيل وطبيعة القطر والأهل ، وبقلة الغلاء التام . وإذا رأيت كيفية سياستها ، علمت كمال راحة الغرباء فيها ، وحظهم وانبساطهم مع أهلها . فالغالب على أهلها البشاشة في وجوه الغرباء ومراعاة خاطرهم ، ولو اختلف الدين . وذلك لأن أكثر أهل هذه المدينة ، إنما له من دين النصرانية الاسم فقط ، حيث لا ينتحل دينه ولا غيره له عليه ، بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل ، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب . فإذا ذكرت له دين الإسلام في مقابلة غيره من الأديان ، أثنى على سائرهما من حيث أنها كلها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . وإذا ذكرت له في مقابلة العلوم الطبيعية ، قال إنه لا يصدق بشيء مما في كتب أهل الكتب لخروجه عن الأمور الطبيعية . وبالجملية ، ففي بلاد الفرنسيس يباح التعبد بسائر الأديان ، فلا يعارض مسلم في بنائه مسجداً ، ولا يهودي في بنائه بيعة إلى آخره ، كما سيأتي في ذكر سياستها . ولعل هذا كله هو علة تخصيص ولي النعمة لها بإرساله فيها ، هذه المرة الأولى ، أبلغ من أربعين نفساً لتعلم هذه العلوم المفقودة ؛ بل سائرُ النصراني تبعث أيضاً إليها ، فيأتي إليها من بلاد أمريكا وغيرها من الممالك البعيدة . وقد بعث حفظه الله عدة للعلوم ببلاد الإنكليز ، لكنهم ليسوا عديدين ، وكذلك ببلاد النمسا . وبالجملية ، فسائر الأمم تطلب العز وتسعى إليه ، كما قال الشريف الرضي :

اطلب العزَّ فما العزُّ بغالٍ

ولا أعز من العلوم والفنون تطلبها الملوك ، فإنه كلما كان الملك أجل خطراً ، وجب أن يكون أدق نظراً .



الباب الرابع

(من المقدمة)

في ذكر رؤساء هذه السفارة

قد بعث صاحب السعادة في السفر إلى بلاد فرنسا ثلاثة رؤساء من أكابر ديوانه السعيد ، وجعلهم أرباب نظر عام على من عداهم ، وهم على هذا الترتيب : فأولهم صاحب الرأي التام ، والمعرفة والإحكام ، حائز فضيلتي السيف والقلم ، والعارف برسوم العرب والعجم ، حضرة عبدي أفندي المهردار ؛ والثاني صاحب الرأي السديد ، والطالع السعيد ، من خلع في حب المعالي العذار ، حضرة مصطفى مختار أفندي الدويدار ؛ والثالث الحاوي بين العلم والعمل ، واليراع والأسل ، حضرة الحاج حسن أفندي الإسكندراني ، بلغه الله في الدارين الأمان ، أمين . ثم إن حضرة الأفندية الثلاثة كانوا يتعلمون أيضاً كالباقين ، فحضرة الأفندي المهردار سابقاً اشتغل بعلم تدبير الأمور العسكرية ، وحضرة الحاج حسن أفندي يشتغل بعلم القبطانية والهندسة البحرية . وكان لسائر الثلاثة اجتهد زائد وتحصيل بالغ ، مع أن الأميرية في الغالب تأنف ذلك . وقد كان حكم هؤلاء الثلاثة بالنوبة ، فكانت نوبة الواحد يوماً والآخر يوماً آخر وهكذا ، فآل الأمر إلى أن صارت شهراً شهراً ، ثم صار الأفندي المهردار وحده . ثم إن حضرة الأفندية الثلاثة كان معهم في تدبير الدروس جناب مسيو جومار الذي ولاه صاحب السعادة ناظراً على الدروس ؛ وهو أحد علماء الأنستوت⁽²⁹⁾ (بفتح الهمزة وسكون النون وكسر السين) أي مشورة العلوم وأكابرهم ، والذي يتراءى في طبعه حب حضرة صاحب السعادة وخدمته بنصح ، ويشاهد منه دائماً أنه يرغب في الاعتناء بمصالح مصر من جهة نشر المعارف والعلوم فيها ، بل وفي سائر بلاد الأفريقية ، كما يفهم ذلك من حاله وما قاله في طالعة رزنامته التي ألفها سنة ألف

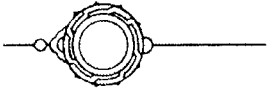
ومائتين وأربعة وأربعين من الهجرة . وشهرة معارف مسيو جومار وحسن تدبيره يوقع في نفس الإنسان ، من أول وهلة ، تفضيل القلم على السيف ، لأنه يدبر بقلمه ما لا يدبر غيره بسيفه ألف مرة . ولا عجب ، فبالأقلام تساس الأقاليم . وهمته في مصالح العلوم سريعة ، كثيرة التأليف والاشتغال . والغالب أن هذه الخصلة في سائر علماء الإفرنج . فإن مثل الكاتب كالدولاب إذا تعطل تكسر ، وكالمفتاح الحديد إذا ترك ارتكبه الصدأ . وجناب مسيو جومار يشتغل بالعلوم آناء الليل وأطراف النهار . وسيأتي ذكره عدة مرّات ، وسنذكر لك عدة من مكاتيبه التي وصلت بيدي ، إن شاء الله تعالى .

الانطلاق

13 إبريل 1826

المقصد في مدّة السفر من مصر إلى باريس وما رأيناه من الغرائب في الطريق ، أو
مدّة الإقامة في هذه المدينة العامرة بسائر العلوم الحكمية والفنون والعدل العجيب
والإنصاف الغريب الذي يحق أن يكون من باب أولى في ديار الإسلام وبلاد شريعة
النبي ﷺ . وهذا المقصد يتضمن عدة مقالات تشتمل على عدة فصول .

المقالة الأولى



الفصل الأول

في الخروج من مصر إلى دخول ثغر إسكندرية

كان خروجنا من مصر عصر يوم الجمعة الذي هو ثامن يوم من شعبان سنة إحدى وأربعين ومائتين بعد الألف من الهجرة المحمدية (على صاحبها أفضل الصلاة والسلام) ، فتفاءلت بأن عقب هذا الفراق يحصل الاجتماع ، وأن تسليم العودة سيقوم مقام الوداع . فركبنا زوارق صغيرة وتوجهنا إلى إسكندرية ، وأقمنا على ظهر النيل المبارك أربعة أيام ، ولا فائدة لذكر بعض البلاد والقرى التي رسونا عليها . وكان دخولنا الإسكندرية يوم الأربعاء ثالث عشر يوماً من شهر شعبان ، فمكثنا فيها ثلاثة وعشرين يوماً في سراية وليّ النعمة . وكان خروجنا إلى البلد في هذه المدينة قليلاً ، فلم يسهل لي ذكر شيء في شأنها ، غير أنه ظهر لي أنها قريبة الميل في وضعها وحالتها إلى بلاد الإفرنج ، وإن كنت وقتئذ لم أر شيئاً من بلاد الإفرنج أصلاً . وإنما فهمت ذلك بما رأيته فيها دون غيرها من بلاد مصر ، ولكثرة الإفرنج بها ، ولكون أغلب السوق يتكلم ببعض الشيء من اللغة الطليانية ونحو ذلك . وتحقق ذلك عندي بعد وصولي إلى مرسيليا . فإن إسكندرية عينة مرسيليا وأغودجها ، ولما ذهب

إليها سنة 62⁽¹⁾ وجدها قطعة من أوربا .

الفصل الثاني



في ذكر نبذة تتعلق بهذه المدينة لخصناها من عدة كتب عربية وفرنساوية وذكرنا ما ظهر لنا صحته ، فنقول :

قال في القاموس : «إن إسكندرية منسوبة إلى إسكندر ابن الفيلسوف (صوابه فيليبس)⁽²⁾ وهو الذي قتل دارا وملك البلاد . والإسكندرية ستة عشر بلداً منسوبة إليه : منها بلدة ببلاد الهند ، وبلدة بأرض بابل ، وبلدة بشاطئ النهر الأعظم ، وبلدة بصغد سمرقند ، وبلدة بمرو ، واسم لمدينة بلخ ، والشجر الأعظم ببلاد مصر ، وقرية بين حماء وحلب ، وقرية على دجلة قرب واسط ، منها الأديب أحمد بن المختار بن مبشر ، وقرية بين مكة والمدينة ، وبلدة في مجاري الأنهار بالهند ، وخمس مدن أخر .»
ومرو بلدة من خراسان ببلاد الفرس ، والنسبة إليها مروى ومروزي ، وانظر ما مراده بالنهر الأعظم . ثم رأيت في كتاب تقويم البلدان لعماد الدين أبي الفدا إسماعيل بن ناصر سلطان حماء «أن بالآندلس نهراً يسمى بالنهر الأعظم ، وهو نهر إشبيلية ، ونص عبارته : ومنها نهر إشبيلية من بلاد الآندلس ، ويسمى عند أهل الآندلس النهر الأعظم .» ولعله إنما سمي عندهم بالنهر الأعظم لامتياز به بحادثة المدّ والجزر ، كما نبه على ذلك أبو الفدا في قوله : يدخله المدّ والجزر عند مكان يسمى الأرحا ، لا تزال فيه المراكب منحدره مع الجزر صاعدة مع المدّ . وقال بعضهم في المد والجزر :

خليلي بادر بي إلى النهر بكرة

وقف منه حيث المدّ يثني عنانه

ولا تجز الأرحا فإن وراءها

يبابا وعيني لا تريد عيانه

فعلى هذا تكون إسكندرية اسم بلدة بالآندلس ، ولعل إسكندر حين اجتيازه

(1) المقصود 1262هـ ، أي بعد 21 سنة من زيارته الأولى .

(2) فيليبس : وردت في النص خطأ (فيلبس) .

بجزيرة الأندلس بنى بها بلدة . وذكر صاحب كتاب (نشق الأزهار في عجائب الأقطار) أن إسكندر ذا القرنين اجتاز بلاد الأندلس وفتح بها بغاز جبل الطارق المسمى بحر الزقاق ، وإن محل هذا البغاز كان أرضاً بين طنجة وبلاد الأندلس . ولم يذكر في هذا الموضع أن إسكندر بنى بلدة بهذه الجزيرة . لكن هذا لا يدل على عدم وجود بلدة بها . وظاهر عبارتهم أنه يوجد اثنان ، كل منهما يسمى الإسكندر : أحدهما إسكندر ذو القرنين ، والآخر هو قاتل دارا . وقال في القاموس في موضع آخر : «ذو القرنين إسكندر الرومي» ، لأنه لما دعاهم إلى الله تعالى ضربه على قرنه فأحياء الله تعالى ، ثم دعاهم فضربه على قرنه الآخر فمات ، ثم أحياء الله تعالى . أو لأنه بلغ قطري الأرض أو لضفيرتين له . فظاهر كلامه أن إسكندر ذا القرنين هو نفس إسكندر الرومي ، والذي عليه علماء الشرق أن ذا القرنين المذكور في الآية الشريفة هو غير إسكندر اليوناني . فإن الأول أقدم من الثاني ، وهو الذي قيل بنبوته وأنه بنى سدً ياجوج وماجوج . وأنه بحث عن ماء الحياة بلا طائل ، وفاز به الخضر عليه السلام . فلذلك كان حياً إلى الآن . وأما الثاني فإنه يسمى إسكندر الرومي أو اليوناني ، يعني الإغريقي ، لأن قدماء الأغارقة تسمى اليونان ، والمتأخرون يشتهرون باسم الأروام . وأما الإفرنج فلا يقولون إلا بوجود إسكندر الأكبر ابن فليبيس أو ابن فيليبوس المقدوني ، ويجعلونه عين ما يعبر عنه في التواريخ العربية باسم إسكندر ذي القرنين ، وينسبون إليه سائر ما يحكى عنه من العجائب كسدً ياجوج وماجوج ونحو ذلك . غير أنهم لا يصدّقون بما لا يوافق للعادة . وعلى كل حال ، فقد اتفق كلام العلماء وحكماء الإفرنج على أن إسكندرية تنسب إلى إسكندر الرومي ، وهو ابن فيليبس . وأنا أقول : الظاهر أن ذا القرنين هو الذي يعبر عنه عند اليونان بهرقليوس أو هرقول . يدل ذلك على تسمية بوغاز جبل طارق بوغاز هرقليوس ، مع عبارة كتاب نشق الأزهار . وكذلك ما ذكر في خرافات اليونان عند الكلام على عمودي هرقول من أنه أدخل أوقيانوس «البحر المحيط» في الجزء الذي يفصل أوربا من أفريقيا ، حين فتح بغاز قادس المسمى الآن جبل طارق بين جبلين كانا قبل ذلك متصلين ببعضهما ، أحدهما يسمى قلبه في جهة إسبانيا ، والآخر يسمى بيلا في جهة أفريقيا . وصارا بعد فتح البوغاز بينهما كأنيهما عمودان ، وكتب عليهما هرقول ما

معناه : ليس خلف ذلك شيء . وما يدل على ذلك أيضاً ما ذكره اليونان في خرافاتهم من أن هرقل من فحول الرجال الذين يعبرون عنهم بأنصاف الآلهة ، ويعتقدون أنهم متولدون بين الباقي والفاني ، أي بين إله وبشر . فإن هرقل على زعمهم متولد من جوبيتر أي المشتري وألكمينة زوجة أنفثريون ملك طيوه ، حيث تشكل بشكل هذا الملك وواقعها فحملت به منه . وذلك قريب مما ذكره الدميري في كتابه (حياة الحيوان) نقلاً عن الجاحظ حيث قال ما ملخصه أن «عمرو بن يربوع كان متولداً بين السعلاة⁽³⁾ والإنسان . قال وذكروا أن جرهما⁽⁴⁾ كان من نتاج الملائكة والأدميين . فكان إذا عصى الملك ربه في السماء ، أهبط إلى الأرض في صورة رجل كما صنع بهاروت وماروت . وأن من هذا القبيل كانت بلقيس ملكة سبأ ، وكذلك كان ذو القرنين ، وكانت أمه آدمية وأبوه من الملائكة . ولذلك لما سمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلاً ينادي رجلاً يا ذا القرنين ، قال : «أفرغتم من أسماء الأنبياء فارتفعتم إلى أسماء الملائكة؟» قال وزعموا أن التناكح والتلاقح قد يقع بين الجن والإنس . قال تعالى : ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾⁽⁵⁾ وذلك أن الجنيات إنما تعرض لصرع رجال الإنس على جهة العشق في طلب السفاد ، وكذلك رجال الجن لنساء الإنس . ولولا ذلك لعرض الرجال للرجال والنساء للنساء . وقال تعالى : ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾⁽⁶⁾ ولو كان الجان لا يفتض الأدميات ، ولم يكن ذلك في تركيبه ، لما قال الله هذا القول .»

غاية ما هناك أن العلوية⁽⁷⁾ في اعتقاد العرب آلهة في اعتقاد اليونان . وأظن أن هذه المسألة لو عرضت كالجاري على أرباب مدرسة فرنسا العظمى المسماة أكدمية ،

(3) السعلاة : أنثى الغول .

(4) جرهم (بضم الجيم والهاء) : رأس قبيلة عربية قديمة كانت تقيم في مكة ، ويقال إن أصولها من اليمن .

(5) الإسراء : 64

(6) الرحمن : 56 .

(7) لعل العبارة هنا (الكائنات العلوية) وقد سقط الموصوف سهواً .

لأجابت بعد النظر فيها بالصحة وأيدت القول بذلك . وقد سلف في عبارة القاموس أسماء البلاد التي تسمى بإسكندرية . وليس مما ينسب إلى اسكندر الروميّ الشهير بلدة الأرناؤط المسماة اسكندر ياسي ، يعني إسكندرية ، بل هي منسوبة إلى اسكندر بيك . وقال بعضهم مدينة إسكندرية ببر مصر كانت تسمى ، قبل بناء الإسكندر لها بنحو ثلاثمائة سنة واثنيتين قبل ظهور عيسى عليه السلام ، قيسون (بفتح القاف وسكون الياء التحتيّة) ، وقال الإفرنج إنها كانت تسمى نو (بضم النون) . وقبل فتحها بالإسلام ، كانت تارة تحت حكم الرومان ، وتارة تحت حكم الأروام أو اليونان . وفتحها عمرو بن العاص بأمر عمر بن الخطاب ، ولما فتحها كتب إلى عمر (رضي الله عنهما) أنه وجد بها أربعة آلاف قصر ، وأربعة آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودي تدفع الجزية ، وأربعمئة ميدان ، واثنى عشر ألف بقّال وخضري وفاكهاني . ولعل هذا من مبالغات المؤرخين ، كما بالغوا في غيرها من البلاد ، كمدينة بغداد . ومن عجائب ما فيها خزانة الكتب التي حرقها عمرو بن العاص ، فكانت عدّة ما فيها من الكتب سبعمئة ألف مجلد . وقد كان أهل هذه المدينة ، في سالف الزمان ، ثلاثمائة ألف نفس تقريباً ، وأهلها الآن أقل من ذلك بكثير . وقد تغلب عليها الفرنسيّ ، ثم أخرجهم الإنكليز منها ، ورجعت إلى يد الإسلام ، وهي الآن يلوح عليها أنوار العمارات بأنفاس صاحب السعادة ، وبها بهجة التجارة ، كما أنها كانت في الزمن السابق مركزاً للتجارات ، وصارت في هذا الوقت دار امة صاحب السعادة في أغلب الأوقات . وهي أشبه وضعاً وعمارة بفرضات⁽⁸⁾ الإفرنج ، وهي على الشمال الغربيّ من القاهرة بنحو خمسين فرسخاً ، موضوعة في إحدى وثلاثين درجة وثلاث عشرة دقيقة من العرض ، يعني درجة البعد عن خط الاستواء . وسيأتي ذكر المسافة بينها وبين باريس .

(8) الفرضة : مرسى السفن



الفصل الثالث

في ركوب البحر المالح المتصل بشفر إسكندرية

اعلم أن هذا البحر يسمى في كتب الجغرافيا العربية بحر الروم ، لأنه يتصل أحد جهاته ببلاد الروم . ويسمى أيضاً فيها بحر الشام لمجاورته أيضاً لبلاد الشام . ويسمى أيضاً عند الإفرنج البحر المتوسط أو الجواني . وإنما سمي بذلك لأنه داخل الأراضي الناشفة ، بخلاف البحر المحيط فإنه محيط بجميع الأراضي ، حتى قال بعضهم إنه متواصل الجريان تحت الأراضي العالية على سطح مائه ، وإن حقق بعضهم خلافه لوجود الأراضي اليابسة تحت سطحه كبعض أراضي الموسقو . ويسمى هذا البحر الجواني باللسان التركي بحر سفيد والبحر الأبيض ، لمقابلته ببحر بنطش أو البحر الأسود . وهناك بحر آخر يسمى بالبحر الأبيض ، وهو في بلاد الموسقو وهو المراد بالبحر الأبيض في إطلاقات علماء الجغرافيا . وكان ركوبنا هذا البحر عصر يوم الأربعاء خامس يوم من رمضان وقد امتطينا سفينة حرب فرنساوية لا تغادر في فؤاد الإنسان رعباً ، ورزينة صناعة تجذب قلب الراكب حتى يصير في وسطها صبا ، محتوية على سائر ما يحتاج إليه من الحرف والصنائع ، مشتملة على آلات الحروب وعلى الحربية ومحصنة بثمانية عشر من المدافع . وكان مجراها يوم الخميس سادس يوم من شهر رمضان المبارك ، وكان هبوب الريح وقتئذ خفيفاً ، فسرنا من غير إشعار بالسير ، فتوسمنا في وجهها الخير ، ولم نتألم بذلك . وكنت قبل ركوب البحر عملت بما علمه لي بعض من سافر من العلماء إلى إسلامبول من تجرع حثوات عظيمة من ماء البحر المالح وقال إنه يدفع ألمه ، فكان الواقع أنه لم يحصل لي ألم . على أنني حين نزلت المركب كنت متمرصاً بالحمى فبرئت منها بمجرد السفر وحركة السفينة ، وربما صحت الأجسام بالعلل . ولا زلنا نسير من غير شدة تحرك واضطراب نحو أربعة أيام ، وبعدها عصفت الرياح وتموج ماء البحر وتلاعب بذات الألواح تلاعب الأشباح بالأرواح . فلازم أكثرنا الأرض ، وتوسل جميعنا بالشفيع يوم العرض ، ووقع عندنا الموقع قول بعض الظرفاء : خاطر من ركب البحر ، وأشد منه خطراً من جالس الملوك

بغير علم ومعرفة . وتحقق عندنا تضمين بعضهم لهزل أبي نواس في قوله :

رأيت جميع الهائلات محيطة
بوطئي لأجل الحمل جارية البحر
فأقسمت عمري لا ركبت سفينة
ولا سرت طول الدهر إلا على الظهر

غير أن المعتمد على الكرم ، لا يخشى من الخطب العظيم ، وما أحسن قول من
قال :

لما ركبنا ببـحـر
وكـاد من خـاف يتلف
على الكرم اعتمدنا
حاشاه أن يتـخلف

وقد ذهب هذا الأمر بعد نحو ثلاثة أيام وصار يزور غبا . وما يستحسن في طباع
الإفرنج دون من عداهم من النصارى حب النظافة الظاهرية . فإن جميع ما ابتلى الله ،
سبحانه وتعالى ، به قبطة مصر من الوحم والوسخ أعطاه للإفرنج من النظافة ، ولو على
ظهر البحر . فإن أهل المركب التي كنا فيها يحافظون على تنظيفها وإذهاب الوسخ ما
أمكن ، حتى أنهم يغسلون مقعدها كل يوم من الأيام ، ويكنسونها في صف النوم كل
نحو يومين ، وينفضون في الفراش وغيره ويشممونها برائحة الهواء ويزيلون أوحامها .
مع أن النظافة من الإيمان ، وليس عندهم منه مثقال ذرة ، ومع ما عند الفرنسيات من
النظافة الغريبة بالنسبة لبلادنا ، فإنهم لا يعدّون أنفسهم من الأمم كثرة الاعتناء
بالنظافة ، كما يفهم من هذه العبارة المترجمة من كتاب العوائد والأخلاق المؤلف
باللغة الفرنسية . وعبارته : أعظم الناس اعتناء بنظافة المنازل أهل الفلمنك ، فوجد
في مدنها غالب حاراتهم مبلطة بالحجر الأبيض المتعهد بالتنظيف ، وبيوتهم مجملّة
من خارجها أيضاً ، وشبابيكمهم القراز تغسل دائماً بل وحيطانهم الخارجة . وقد توجد
النظافة في حصة من بلاد الإنكليز ، وبلاد الأقاليم المجتمعة من أمريكا ، وهي قليلة

في فرنسا والنمسا وغيرهما . ومن الأمم من هي كثيرة الاتساخ وكثيرة القمل ، بل تجد بعض أناس يأكلهم القمل ولا يبالون . وقد ذهب داء البرص منذ انتشار الأقمصة البيض التي تغسل ويغير بها كل أسبوع مرة أو عدة مرات . فالملابس البيض من جملة ما أنتج النظافة والسلامة من آثار الأوساخ الرديئة .

الفصل الرابع

في ماراينا من الجبال والبلاد والجزائر



قد مررنا على جزيرة كريد⁽⁹⁾ سابع يوم من سفرنا ورأينا على بعد جبلها الشامخ المسمى عند اليونان أيدا ، الشهير بالأمر الغريبة في تواريخهم . ثم في اليوم الثالث عشر منه رأينا جزيرة سيسيليا (بالمهملتين ، وبعضهم يكتبها بالمعجمتين) وهي مشهورة باللسان العربيّ باسم صقالية أو صقلية . وهذه الجزيرة على الجنوب من بلاد إيطاليا ، منفصلة عنها بالبغاز المسمى بغاز مسينة (بفتح الميم وتشديد السين المكسورة المهملّة وسكون الياء وفتح النون) وهي من أعظم جزائر البحر المتوسط وأخصبها ، ولذلك كانت تسمى في الزمن السابق شونة⁽¹⁰⁾ رومة . وكانت في الأعصر السالفة سبباً لحرب الرومانيين مع أهل قرطاجة ، أي سكان الغرب . ثم انتهى الأمر إلى أنها وقعت تحت حكم الرومانيين ، ثم انتقلت منهم إلى ملوك اليونان ، ثم فتحها المسلمون ، ثم تغلب عليها النصاري النمرندية (بضم النون المشددة وسكون الراء وفتح الميم وكسر الدال وفتح الياء المشددة) فرقة من أهل الشمال ، وهم سكان إقليم نمرنديا الذي هو الآن من إيلات⁽¹¹⁾ فرنسا . ثم حكمها بعض ملوك الإسبانيول ثم النمسا ، ثم انتهى الأمر إلى أن كانت جزءاً من مملكة نابلي ألكتان المسماة بونية ، حتى إنها هي ونابلي قد يسميان الآن عند الإفريج السيسيليتين بتغليب سيسيليا على نابلي .

(9) جزيرة كريت .

(10) الشونة (بضم الشين) : مخزن الغلال .

(11) إيلات (جمع إيالة) : ولاية ، من فعل (آل) الرعية أي ساسها ودبر أمورها .

وفي كتب الجغرافيا أن أهل هذه الجزيرة مائة ألف نفس ، ومدنها فوق الجبال . وقد رأينا بهذه الجزيرة على بعد ، في اليوم الرابع عشر ، الجبل المسمى منتثنا (بفتح الميم وسكون النون وكسر التاء الفوقية وسكون الشاء المثناة) . ومنتثنا كلمة مركبة من كلمتين : إحداهما منت ، معناها جبل ، والأخرى اثنا . فالأحسن كتابتها هكذا : منت إثنا ، وهو مشهور الآن بلفظة جيبيل . ويظهر لي أن هذا الاسم تحريف جبل ، فهو عربيّ أدخله المسلمون في هذه الجزيرة وأطلقوه على هذا الجبل فبقي بعد خروجهم إلى الآن ، وتغير بتحريف أهل هذه الجزيرة له . وهذا الجبل جبل نار ، فإنه يخرج منه بالنهار دخان وبالليل لهب ، وقد يقذف مواد حجرية محترقة . ثم إن جبال النار تسمى بالإفرنجية الجبال البلكانية ، ويسمى الجبل الناري بلكان (بضم الباء الموحدة وسكون اللام) ويقال ولكان (بضم الواو) وقد صحف هذا الاسم بالعربية إلى لفظة بركان بالراء ، ولعله تعريب عن لغة أهل الأندلس ويسمى طهمه (بفتح الطاء وسكون الهاء) كما ذكره المسعودي في كتابه المسمى مروج الذهب ، وفوهة البركان تسمى بالفرنساوية كراتيره (بكاف وتاء فوقية مكسورتين وفتح الراء الثانية) ولا يوجد جبل النار غالباً إلا في الجزائر . وقد ذكر أرباب رصد هذا الجبل أن ارتفاعه على ظهر سطح البحر المحيط ألف وتسعمائة قدم وثلاثة أقدام ، وأن دورة قاعدته نحو خمسة وخمسين فرسخاً فرنساوياً ، ودائرة فوهته ربع فرسخ . ثم إن العادة أن جبل النار يهيج ثم يسكن ثم يهيج ، وقد يمكث مدة مطفياً حتى يظن الناس خموده بالكلية ، ثم يهيج ثانياً بعد مضي مدة أعصر . وقد هاج جبل إثنا إحدى وثلاثين مرة ، ومنها هيجانه سنة ألف وثمانمائة وتسعة بتاريخ الإفرنج ، وأعظم هيجانه ما كان سنة سبعمائة وثلاث وتسعين ، حيث خرب مدينة كابان وأهلك ثمانية عشر ألف نفس . وعلامة هيجان البراكين شدة العجيج والقرقرة والدوي تحت الأرض ، وابتداء التدخين وازدياده . قال بعض الطبائعية⁽¹²⁾ إننا إذا قابلنا حوادث الزلازل بحوادث البراكين رأينا كأن هاتين الحادثتين معلولتان لعلة واحدة ، وهي النيران التي تحت الأرض ، أي المحتقنة في باطنها . إلا أن آثار الزلازل أوسع من آثار البراكين ، يعني أن آثار الزلازل تظهر في

(12) بعض الطبائعية : علماء الطبيعة .

متسع عظيم من الأرض ، بخلاف آثار جبال النار فلا تمتدّ إلّا بجوار قرب جبل النار . وقد جرت العادة أيضاً أن الزلزلة تعظم بقدر البعد من البركان . وعلل ذلك بعضهم بقوله إن النار التي تحت الأرض تحاول منفساً لتخرج منه ، فإن كان في الأرض بركان فإنها تخرج منه فتذهب قوة النار فتتفقد الزلزلة ، بخلاف الأرض الخالية عن البراكين ، فإن النيران تحاول منفساً فيها فلا تجده ، فتخرج الأرض بذلك . وقال بعض الحكماء أيضاً إن كلاً من الحوادث البركانية والزلازل صادر عن جاذبية المحاكاة المسماة بالفرنساوية الإكتريستة (بكسر الهمزة وسكون الكاف وكسر التاء والراء وكسر السين وفتح التاء) المسماة الرسيس (بفتح الراء المشددة وكسر السين) التي هي خاصة الكهرباء عند حركتها . قال بعضهم في رد هذا القول إنه ينافي ما اعتمده بعض الحكماء في بناء الأرض ونظم طبقات صخورها . ومن القواعد المقررة أن ثوران البركان يغلب كل ما قل علوه ويقل كلما عظم العلو وهذا ما جرت به العادة ، والله سبحانه وتعالى أعلم . وفي اليوم الخامس عشر ، رسونا على مدينة مسينة ولم نخرج من السفينة أبداً ، لأنهم لا يمكنون من يجيء من البلاد الشرقية إلى بلادهم أن يدخلها إلّا بعد الكرنتنة ، وهي مكث أيام معلومة لإذهاب رائحة الوباء . ولكنهم يجيئون للإنسان بسائر ما يحتاج ويناولهم الثمن فيضعونه في إناء فيه خل ونحوه ، مع التحفظ التام . (راجع الفصل الأول من المقالة الثانية .)

وقد تزودنا من هذه المدينة ما احتجنا إليه من الفواكه والخضراوات والمياه العذبة إلى آخره ، وأقمنا بموردها خمسة أيام ، وشاهدنا من بعد قصورها العالية وهياكلها الشامخة السامية . ورأيناها توقد قناديلها ووقداتها قبل أن يدخل وقت الغروب ، وتمكث بعد شروق الشمس . والظاهر أن مدة مرورنا بها كانت عيدا ، حيث أننا سمعنا بها أصوات النواقيس مدة إقامتنا . حتى ن ضربهم النواقيس مطرب جداً ، وقد صنعت في ليلة من هذه الليالي في الحادثة مع بعض الظرفاء مقامة ظريفة مضمونها ثلاثة معان : الأول المجادلة في أنه لا مانع من أن الطبيعة السليمة تميل إلى استحسان الذات الجميلة مع العفاف ، وأنشأت في ذلك جملة شواهد لطيفة ، وأنشأت فيه قولي :

أصبو إلى كل ذي جمال

ولست من صبوتي أخاف

وليس بي في الهوى ارتياب
وإنما شيمتي العفاف
الثاني سكر الحب من معاني خمر عيني محبوبته واستغنائه عن الراح براحته ،
وأنشأت في هذا المعنى قولي :

قد قلت لما بدا والكأس في يده
وجوهر الخمر فيها شبه خديه
حسبي نزاهة طرفي في محاسنه
ونشوتي من معاني سحر عينيه

الثالث في تأثر النفس بضرب الناقوس إذا كان من يضرب الناقوس ظريفاً يحسن
ذلك ، وقد أنشدت في هذا المعنى قول الشاعر :

مذ جاء يضرب بالناقوس قلت له
من علم الظبي ضرباً بالنواقيس
وقلت للنفس أي الضرب يؤلمك
ضرب النواقيس أم ضرب النوى قيسي

وذيلتها ببعض أبيات مجنسة والبحث في معناها ونوع تجانيسها ، وبالجواب عن
بعض ألغاز نحوية إلى آخره . وليس هذا محل بسط الكلام في ذلك . ثم سرنا من
هذه المدينة اليوم المتمم العشرين من مدة سفرنا . وسرنا حتى حاذينا جبل النار
وجاوزناه . وفي الرابع والعشرين جاوزنا مدينة نابلي . وقد كانت قديماً تسمى باللغة
التركية بولية . وتعديناها بنحو تسعين ميلاً ، فانعكس الريح وصار قدام السفينة هابا
من المقصد إليها ، فصارت تميل عن المقصد لا إليه ، لأنه من جهة الهواء . ويعجبني
قول بعضهم :

ومهففهف عني يميل ولم يمل
يوماً إليّ فقلت من ألم النوى
لم لا تميل إليّ يا غصن النقا
فأجاب كيف وأنت من جهة الهوا

وقول الصلاح الصفدي⁽¹³⁾ :

تقول له الأغصان إذ هز عطفه
أتزعم أن اللين عندك قد ثوى
فقم نحتكم في الروض عند نسيمه
ليقضي على من مال منا مع الهوى

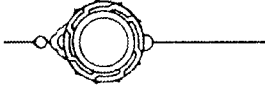
فبانعكاس الريح رجعنا إلى مدينة نابلي بعد أن جاوزناها ، ورسونا عندها ولم ندخلها ، لما تقدّم . وهي من المدن العظمى ببلاد الإفرنج ، وملكها يحكم على بلاد جزيرة صقلية المتقدّمة . ومدينة نابلي هي كرسيّ هذا الملك وقد تسمى باللغة العربية نابلي ألكتان (بفتح الهمزة وكسر اللام وسكون الكاف) . وقد كانت مملكة نابلي في يد الإسلام ، ومكثت نحو مائتي سنة ، ثم تغلبت عليها النصارى النورمندية ، هي ومملكة صقلية . ولم تزل إلى الآن في أيدي النصارى الإيطالية ، حتى إنها تسمى بلاد إيطاليا الجنوبية . وقد أسلفنا أن مدينة نابلي هي إحدى البنادر الأربعة الأصلية بالبلاد الإفرنجية . ثم رأينا في اليوم التاسع والعشرين جزيرة قرسقة (بضم القاف وسكون الراء وضم السين وفتح القاف) التي هي في حكم الفرنسيين وتسمى الآن جزيرة قرس . وقد فتحها المسلمون ولم يمكثوا فيها زمناً طويلاً . وهي وطن نابليون (بضم الباء وسكون اللام وبالياء) الشهير ببونابارته ، الذي تغلب على مصر في غزوة الفرنسية ، ثم تولى سلطنة فرنسا مع أن أباه كان رئيساً في الطوبجية . وفي اليوم الثالث والثلاثين رسونا على فرضة مرسيليا . فكانت مدّة مكثنا في البحر ثلاثة وثلاثين يوماً ، ومنها مكثنا خمسة أيام قدامّ مسينة (بفتح الميم وتشديد السين المكسورة وفتح النون) ونحو يوم قدامّ نابلي . وتأخرنا كثيراً بلعب الرياح ، ولولا ذلك لوصلنا أقل من هذه المدّة بشيء يسير .

(13) خليل بن أبيك بن عبد الله الصفدي ، صلاح الدين (1296-1363م) : أديب مؤرخ ، له أكثر من

مئتي تصنيف . ولد في صفد بفلسطين وتعلم في دمشق . من كتبه : الوافي في الوفيات .

المقالة الثانية

في ما كان من دخول مرسيليا إلى دخول مدينة باريس
وفيها فصلان



الفصل الأول

في مدة إقامتنا في مدينة مرسيليا

قد رسونا على موردة مرسيليا التي هي إحدى فرض⁽¹⁴⁾ بلاد فرنسا ، فنزلنا من سفينة السفر في زوارق صغيرة ، فوصلنا إلى بيت خارج المدينة معداً للكرنتينة على عادتهم من أن من أتى من البلاد الغربية لا بد أن يكرتن قبل أن يدخل المدينة . ولنذكر هنا ما قيل في الكرننتينة⁽¹⁵⁾ بين علماء المغرب على ما حكاه لي بعض من يوثق به من فضلاء الغرب ، قال : وقعت بين العلامة الشيخ محمد المناعي التونسي المالكي ، المدرس بجامع الزيتونة ، ومفتي الحنفية العلامة الشيخ محمد بيرم ، المؤلف عدة كتب في المنقول والمعقول وله تاريخ دولة بني عثمان من مبدئها إلى السلطان محمود الحالي ، محاورة في إباحة الكرننتينة وحظرها . فقال الأول بتحريمها والثاني بإباحتها بل وبوجوبها ، وألف في ذلك رسالة واستدل على ذلك من الكتاب والسنة . وأقام الأول الأدلة على التحريم ، وألف رسالة في ذلك على اعتماده فيها في

(14) فَرَضَ : جمع فُرْضَة وهي مرسى السفن .

(15) الكرننتينة : الحجر الصحي ، وقد صاغ منها المؤلف فعل (يكرتن) : يجري فحوصا طبية .

الاستدلال على أن الكرتينية من جملة الفرار من القضاء . ووقعت بينهما محاورة أيضاً نظير هذه في كروية الأرض وبسطها ، فالبسط للمناعي والكروية لخصمه . ومن قال من علماء المغرب بأن الأرض مستديرة ، وأنها سائرة ، العلامة الشيخ مختار الكنتاوي بأرض أزواد بقرب بلاد تمبكتو . وهو مؤلف مختصر في فقه مالك ضاهى به متن خليل ، وضاهى أيضاً ألفية ابن مالك في النحو . وله غير ذلك من المصنفات في العلوم الظاهرية والباطنية كأوراد وأحزاب كحزب الشاذلي . وقد ألف كتاباً وسماه (النزهة) جمع فيه جملة علوم ، فذكر بالمناسبة علم الهيئة ، فتكلم على كروية الأرض وعلى سيرها ووضح ذلك ، فتلخص من كلامه أن الأرض كرة ، ولا يضّر اعتقاد تحركها أو سكونها . مات هذا الشيخ سنة ألف ومائتين وست وعشرين من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام ، وخلفه حفيده المسمى باسمه . ثم إن هذا البيت الذي كنا فيه للكرتينية متسع جداً ، به القصور والحدائق والبناء المحكم . فيه عرفنا كيفية إحكام أبنية هذه البلاد وإتقانها وامتلأها بالرياض والحياض إلى آخره . ولم نشعر في أول يوم إلا وقد حضر لنا أمور غريبة في غالبها ، وذلك أنهم أحضروا لنا عدة خدم فرنساوية لا نعرف لغاتهم ، ونحو مائة كرسي للجلوس عليها ، لأن هذه البلاد يستغربون جلوس الإنسان على نحو سجادة مفروشة على الأرض ، فضلاً عن الجلوس بالأرض . ثم مدّوا السفرة للفقير ، ثم جاءوا بطبليات⁽¹⁶⁾ عالية ثم رصوها من الصحن البيضاء الشبيهة بالعجمية وجعلوا قدام كل صحن قدحاً من القزاز وسكيناً وشوكة وملعقة . وفي كل طبلية نحو قزازتين من الماء ، وإناء فيه ملح ، وآخر فيه فلفل ، ثم صفوا حوالي الطبلية كراسي : لكل واحد كرسي . ثم جاءوا بالطبخ ، فوضعوا في كل طبلية صحناً كبيراً أو صحنين ليغرف أحد أهل الطبلية ، ويقسم على الجميع ، فيعطى لكل إنسان في صحنه شيئاً يقطعه بالسكين التي قدامه ، ثم يوصله إلى فمه بالشوكة لا بيده ، فلا يأكل الإنسان بيده أصلاً ولا بشوكة غيره أو سكينه أو يشرب من قدحه أبداً . ويزعمون أن هذا أنظف وأسلم عاقبة . وما يشاهد عند الإفرج أنهم لا يأكلون أبداً في صحن النحاس ، بل

(16) table : الطبلية (ترجمة عامية) : المنضدة الصغيرة .

ولا في أوانيه أبداً ولو مبيضة فهي للطبخ فقط ، بل دائماً يستعملون الصحون المطلية . وللطعام عندهم عدة مراتب معروفة ، وربما كثرت وتعددت كل مرتبة منها . فأول افتتاحهم الطعام يكون بالشورية ، ثم بعده باللحوم ، ثم بكل نوع من أنواع الأطعمة كالخضراوات والفطورات ، ثم بالسلطة . وربما كانت الصحون مطلية بلون الطعام المقدم : فصحون السلطة مثلاً خضر منقوشة بلون السلطة . ثم يختمون أكلهم بأكل الفواكه ، ثم بالشراب المخدر ، إلا أنهم يتعاطون منه القليل ، ثم بالشاي والقهوة . وهذا الأمر مطرد للغني والفقير ، كل على حسب حاله . ثم إن الإنسان كلما أكل طعاماً في صحنه غيره ، وأخذ صحناً غير مستعمل ليأكل فيه طعاماً آخر . ثم إنهم أحضروا لنا آلات الفراش ، والعادة عندهم أنه لا بد أن ينام الإنسان على شيء مرتفع نحو سرير ، فأحضروا ذلك لنا ومكثنا في هذا المحل ثمانية عشر يوماً لا نخرج منه أبداً ، غير أنه متسع جداً وفيه حدائق عظيمة ومحال متسعة للتمشي فيها والتنزه في رياضها . ومن هذا البيت ركبنا العربات المزينة المجملّة التي تستمر عندهم أناء الليل وأطراف النهار تقرقع ، وسرنا بها إلى بيت في المدينة ، لكنه في حواشيها من القصور المصنوعة خارج المدينة بحدائقها وأدواتها ، فمكثنا منتظرين التوجه إلى مدينة باريس . ومدة مكثنا في هذا البيت ، كنا نخرج بعض ساعات للتسلي في البلد ، وندخل بعض القهاوي . والقهاوي عندهم ليست مجمعة للحرافيش ، بل هي مجمع لأرباب الحشمة ، إذ هي مزينة بالأمور العظيمة النفيسة التي لا تليق إلا بالغني التام ، وأثمان ما فيها غالية جداً ، فلا يدخلها إلا أهل الثروة . وأما الفقراء فإنهم يدخلون بعض قهاوي فقيرة أو الخمارات أو المحاشش . ومع ذلك ، هذه الحال أيضاً تجملاً نسبياً وقد أسلفت أن مدينة إسكندرية تشبه في حالها مرسيلا . وأذكر هنا أن الفرق بينهما اتساع السكك والطرق اتساعاً مفرطاً لمرور جملة عربات معاً في طريق واحد . والآن صارت الإسكندرية بالهمة الخديوية بنحو ذلك ، ثم إن سائر القاعات أو الأروقة أو المنادر العظيمة يوضع في حيطانها الجوانية مرآة عظيمة كبيرة حتى إنه ربما كانت سائر جوانب القاعة كلها من زجاج المرأة ليظهر لها رونق عظيم . فأول مرة خرجنا إلى البلدة ، مررنا بالدكاكين العظيمة الوضع ، المزججة بهذه المرايا والمشحونة بالنساء الجميلات ، وكان هذا الوقت وقت الظهيرة . وعادة نساء هذه البلاد كشف الوجه

والرأس والنحر وما تحته ، والقفا وما تحته ، واليدين إلى قرب المنكبين . والعادة أيضاً أن البيع والشراء بالأصالة للنساء ، وأما الأشغال فهي للرجال . فكان لنا بالدكاكين والقهواوي ونحوها فرجة عليها وعلى ما يعمرها . وكان أول ما وقع عليه بصرنا من التحف قهوة عظيمة ، دخلناها فرأيناها عجيبة الشكل والترتيب ، والقهوجية امرأة جالسة على صفة عظيمة ، وقدّامها دواة وريش وقائمة . وفي قاعة بعيدة عن الناس محل لعمل القهوة . وبين محل جلوس الناس ومحل القهوة صبيان القهوة . ومحل الجلوس للناس مرصوص بالكراسي المكسوة بالمسجرات وبالطاولات المصنوعة من الخشب الكابلي الجيد ، وكل طاولة مفروشة بحجر من الرخام الأسود أو المنقوش . وفي هذه القهوة يباع سائر أنواع الشراب والفطورات ، فإذا طلب الإنسان شيئاً طلبه الصبيان من القهوجية ، وهي تأمر بإحضاره له وتكتبه في دفترها ، وتقطع به ورقة صغيرة فيها الثمن ، وتبعثها مع الصبي للطالب حين يريد الدفع . والعادة أن الإنسان إذا شرب القهوة أحضر له معها السكر ليخلطه فيها ويذيه ويشربه ، ففعلنا ذلك كعادتهم . وفنجان القهوة عندهم كبير نحو أربعة فناجين من فناجين مصر ، وبالجملة فهو قدح لا فنجان . وبهذه القهوة أوراق الوقائع اليومية ، لأجل المطالعة فيها . وحين دخولي بهذه القهوة ومكثي بها ، ظننت أنها قصبة عظيمة نافذة ، لما أن بها كثيراً من الناس . فإذا بدا جماعة داخلها أو خارجها ، ظهرت صورهم في كل جوانب الزجاج ، وظهر تعددهم مشياً وقعوداً وقياماً ، فيظن أن هذه القهوة طريق . وما عرفت أنها قهوة مسدودة إلاّ بسبب أنني رأيت عدّة صورنا في المرأة ، فعرفت أن هذا كله بسبب خاصية الزجاج . فعادة المرأة عندنا أن تشني صورة الإنسان كما قال بعضهم في هذا الشأن :

أبرقع منظر المرأة عنه
مخافة أن تشنيه لعيني
أقاسي ما أقاسي وهو فد
فكيف إذا تجلّى فرقدين

وعادتها عند الإفترج ، بسبب تعددها على الجدران وعظم صورتها ، أن تعدّد الصورة الواحدة في سائر الجوانب والأركان ومن كلامي :

يغيب عني فلا يبقى له أثر
سوى بقلبي ولم يسمع له خبر
فحين يلقي على المرأة صورته
يلوح فيها بدور كلها صور
وقال شيخنا العطار : لم أر ألطف تخيلاً في هذا المعنى من قول ابن سهل :
ألقي بمرأة فكري شمس صورته
فعكسها شب في أحشائي اللهب
قال الحريري في مליح بيده امرأة :

رأى حسن صورته في المرائي
فأصبح صباً بها مدنفاً
وصير يعقوب اسماً له
يشير بأن قد رأى يوسف

وسياتي كمال الكلام على ذلك كله في ذكر مدينة باريس . ومدة إقامتنا في
مرسيليا بعد الكرنيتنة شغلناها أيضاً بتعلم تقطيع الحروف ، يعني تعلم تهجئ اللغة
الفرنساوية . ثم إنه يوجد في مدينة مرسيليا كثير من نصارى مصر والشام الذين
خرجوا مع فرنساوية حين خروجهم من مصر ، وهم جميعاً يلبسون لبس
الفرنسي . وندر وجود أحد من الإسلام الذين خرجوا مع الفرنسيين ، فإن منهم من
مات ومنهم من تنصر ، والعياذ بالله ، خصوصاً المماليك الجورجية والجركية والنساء
اللواتي أخذهن الفرنسيين صغار السن ، وقد وجدت امرأة عجوزاً باقية على دينها .
ومن تنصر إنسان يقال له عبد العالي ، ويقال إنه كان ولاء الفرنسيين بمصر أعادة
انكشارية في أيامهم ، فلما سافروا تبعهم وبقي على إسلامه نحو خمس عشرة سنة .
ثم بعد ذلك تنصر ، والعياذ بالله ، بسبب الزواج بنصرانية ، ثم مات بعد قليل . ويقال
إنه سُمع منه عند موته يقول : أجزني يا رسول الله . ولعله ختم له بخير وعاد إلى
الإسلام ، فقال بلسان الحال : الحمد لله ، الحنفية ملتي ، والله ربي وابن أمة نبيي .
ولقد رأيت له ولدين وبناتاً أتوا في مصر ، وهم على دين النصرانية ، أحدهما معلم
الآن في مدرسة أبي زعبل . ومثله ما حكاه لي بعضهم أن سر عسكر المسمى منو ،

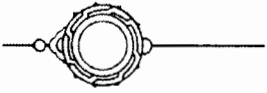
المتولي في مصر بعد قتل الجنرال كليبر بفتح الكاف وكسر اللام وكسر الباء ، كان أسلم في مصر نفاقاً كما هو الظاهر ، وتسمى عبد الله وتزوج ببنت شريف من أشراف رشيد . فلما خرج الفرنسيين من مصر وأراد الرجوع أخذها معه ، فلما وصل رجع إلى النصرانية وأبدل العمامة بالبرنيطة ، ومكث مع زوجته وهي على دينها مدة أيام . فلما ولدت ، وأراد زوجها أن يعتمد ولده على عادة النصارى لينصره ، أبت الزوجة ذلك ، وقالت : لا أنصر ولدي أصلاً ولا أعترضه للدين الباطل . فقال لها الزوج : إن كل الأديان حق ، وإن مالها واحد ، وهو عمل الطيب ؛ فلم ترض بذلك أبداً . فقال لها : إن القرآن ناطق بذلك ، وأنت مسلمة ، فعليك أن تصدقي بكتاب نبيك . ثم أرسل بإحضار أعلم الإفرنج باللغة العربية البارون دساسي ، فإنه هو الذي يعرف يقرأ القرآن . وقال لها : سليه عن ذلك ، فسألته فأجابها بقوله : إنه يوجد في القرآن قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾⁽¹⁷⁾ . فحاجها بذلك فأذنت بمعمودية ولدها ثم بعد ذلك انتهى الأمر على ما قيل أنها تنصرت وماتت كافرة :

كل دين إن فاتك الإسلام

فمـحـال لأنه أوهام

وما رأيته من جملة المصريين في مرسيليا إنسان لابس أيضاً كالإفرنج ، واسمه محمد ، منطلق اللسان في غير اللغة العربية ، فلا يعرف من اللسان العربي إلا اليسير ، فسألته عن بلده ببر مصر فأجاب بأنه من مدينة أسيوط من أشرافها ، وأن أباه يسمى السيد عبد الرحيم ، وهو من أكابر هذه البلدة ، وأمه تسمى مسعودة أو قريباً من ذلك الاسم ، وأنه اختطفه الفرنسيون في حال صغره . ويقول إنه باق على إسلامه ، وأنه يعرف من الأمور الدينية الله واحد ومحمد رسوله والله كريم . ومن العجائب أنني بعد كلامه توسمت فيه الخير ، وكان على وجهه سمة أشراف أسيوط حقيقة . فإن صح كلامه كان من أولاد سيدي حريز ابن سيدي أبي القاسم

الطهطاوي . وأشرف طهطا من أولاد سيدي يحيى ابن القطب الرباني سيدي أبي القاسم ، وله ولد ثالث يسمى سيدي علي البصير ، ذريته أهل جزيرة شندويل . وشهرة سيدي أبي القاسم الطهطاوي لا تخفى على من يعرفه ، وإن لم يذكره سيدي عبد الوهاب الشعراني في الطبقات . وكثير من الأشراف بالبلاد العثمانية ينتهي نسبهم إلى سيدي حريز ، المتقدم . وما رأيت في مرسيليا الملعب المسماة البسكتاكل ، وأمرها غريب ولا يمكن معرفتها بوصفها ، بل لابد من رؤيتها بالعين ، ولنذكرها في الكلام على باريس . ومكثنا في هذه البلدة خمسين يوماً وتوجهنا إلى باريس .



الفصل الثاني

في الخروج من مرسيليا إلى دخول باريس وفي المسافة بينهما

اعلم أن عادة المسافرين من مرسيليا إلى باريس بالعربات أن يستأجروا العربدة أو موضعاً فيها ، فإما أن يأكلوا على كيسهم أو يدفعوا قدراً معلوماً للعربية ، والقوت مدة الطريق . ثم إن السفر يكون ليلاً ونهاراً إلا وقت الأكل ونحوه . وكل البلاد التي في الطريق ، فيها مواضع معدة للطعام والشراب ، مشتملة على سائر أنواع المطعومات والمشروبات في غاية النظافة والظرافة ، وفيها محال للنوم مفروشة بالفرش العظيم . وبالجملية ، فهي مستكملة الآلات والأدوات . فلما ركبنا عربات السفر ، كل جماعة منا في يوم ، وسرنا من مرسيليا سريعاً مستمراً على حالة واحدة ، ولا يتأثر الإنسان كسفر البحر بالرياح ونحوها . وصلنا مدينة ليون في ضحوة اليوم الثالث . ومدينة ليون على البعد من مرسيليا باثنين وتسعين فرسخاً فرنسواً . ومن ليون إلى مدينة باريس مائة وتسعة عشر فرسخاً . ومن مرسيليا إلى باريس مائتان وأحد عشر فرسخاً فرنسواً . وقد مكثنا في ليون نحو اثنتي عشرة ساعة للاستراحة ، ولم أرد أن أدخل هذه المدينة إلا بالمرور فيها أو من شباك البيت الذي كنا فيه :

ومن لم يستطع أعلام رضوى

لينزل بعضها نزل السفوحا

ثم سرنا منها إلى باريس فدخلناها صبيحة اليوم السابع من خروجنا من مرسيليا

وقد مررنا بقرى كثيرة وأغلبها مشتمل على البيع والشراء والخفر عظيمة الأبنية مزينة بالأشجار وبالجمل فبالقرى متسلسلة متصلة ببعضها غالباً خصوصاً مع جدّ السير حتى أن الإنسان لا يظن إلا أنه في بلدة واحدة والمسافرون غالباً في ظل الأشجار المرصوفة بوجه مرتب مطرد في سائر الطرق وندر تخلفه في بعض المحال ثم أن الظاهر في هذه القرى والبلاد الصغيرة أن جمال النساء وصفاء أبدانهن أعظم من ذلك في مدينة باريس غير أن نساء الأرياف أقل تزيئاً من نساء باريس كما هي العادة المطردة في سائر بلاد العمران .

المقالة الثالثة

في دخول باريس وذكر جميع ما شاهدناه وما بلغنا خبره من أحوال باريس . وهذه المقالة هي الغرض الأصلي من وضعنا لهذه الرحلة . فلذلك أطيننا فيها غاية الإطناب ، وإن كان جميع هذا لا يفي بحق هذه المدينة بل هو تقريبي بالنظر لما اشتملت عليه ، وإن استغرب هذا من لم يشاهد غرائب السياحة .
قال بعضهم :

من لم ير الروم ولا أهلها
ما عرف الدنيا ولا الناسا
فمن باب أولى بلاد إفريقياستان .

الفصل الأول

في تخطيط باريس من جهة وضعها الجغرافي وطبيعة أرضها ومزاج إقليمها وقطرها

اعلم أن هذه المدينة تسمى عند الفرنسيين باري بالباء الفارسية التي تلفظ بين الفاء والباء ، ولكن يكتب هذا الاسم باريس ولا ينطق بالسين أبداً فيه ، كما هو عادة الفرنسيات من أنهم يكتبون بعض الحروف ولا يلفظون بها أبداً ، خصوصاً حرف السين في آخر بعض الكلمات ، فإنه لا ينطق به أبداً مثل أتينة (بإمالة التاء) مدينة حكماء اليونان تكتب بالفرنساوية أتينس وتقرأ أتين . ثم إن العرب والترك ونحوهم يكتبون باريس أو بريس أو باريز وربما قالوا فارس ، وأظن أن الأوفق كتابتها بالسين ، وإن اشتهر على ألسنة غير أهلها قراءتها بالزاي . ولعل ذلك إنما نشأ عن أن السين في اللغة الفرنسية قد تقرأ زايّاً في بعض الأحيان ببعض شروط ، وإن كانت مفقودة هنا إلا في حال النسبة ، فإن النسبة إلى باريس عند الفرنسيين بارزياني . وهذا بعينه هو السبب ، لأن النسبة ترد الأشياء إلى أصولها . ولكن هذه القاعدة في النسبة العربية ، والنسبة هنا أعجمية . وقد مشيت في بعض أشعاري التي أنشدتها فيها على كتابتها بالسين حيث قلت :

لئن طلقت باريساً ثلاثاً
فما هذا لغير وصال مصر
فكل منهما عندي عروس
ولكن مصر ليست بنت كفر

وقلت :

لقد ذكروا شمس الحسن طراً
وقالوا إن مطلعها بمصر
ولكن لو رأوها وهي تبدو
بباريس لخصوها بذكر

وسميت بذلك لأن طائفة من قدماء الفرنسيات كانت على نهر السين تسمى

الباريزيين ، ومعناها في اللسان القديم الفرنساوي «سكان الأطراف والحواشي» . وليس هذا الاسم منقولاً عن باريس اسم رجل شهير كما قاله بعضهم ، ثم إن هذه المدينة من أعمر مدائن الدنيا ومن أعظم مدائن الإفرنج الآن ، وهي كرسي بلاد الفرنسيين وقاعدة ملك فرنسا ، وسيأتي تفصيل ذلك في محله . وهي موضوعة في التاسعة والأربعين درجة وخمسين دقيقة من العرض الشمالي ، يعني أنها بعيدة عن خط الاستواء جهة الشمال بهذا القدر ، وأما طولها فإنه يختلف . فإذا اعتبرنا خط نصف النهار الذي ينسب إليه الفرنساوية أطوال سائر الأماكن ، وهو خط نصف النهار المرسوم في رصدهم السلطاني وهو يمر بباريس ، فهو حينئذ مبدأ الأطوال على حساب الفرنساوية كان طولها صفراً . أو إما إذا حسبنا على خط نصف النهار الذي كان يأخذ بطليموس الأطوال منه ، ولا زال إلى الآن مبدأ أطوال بعض الأمم كأهل الفلمنك ، وهو خط نصف نهار الجزائر الخالدات ببحر المغرب ، كانت باريس في عشرين درجة تقريباً من الطول الشرقي . ولنذكر لك هنا كيفية معرفة درجتي الطول والعرض من مكان من الأمكنة وثمرة ذلك ، وإن كان يخرجنا عما نحن بصده فنقول : إن علماء الهيئة قد أوضحوا بالأدلة كروية الأرض ، وإنها غير صادقة التكوين ثم صنعوا على هيئتها صورة وسموها صورة الأرض . ولإمكان تقسيم الأرض وتسهيل معرفتها ، توهموا فيها دوائر أنصاف نهار ودوائر متوازية ومحورا وقطبين ، ورسموها على صورتها المصطنعة . فمحور الكرة الأرضية هو الخط الموازي لمحور الفلك ، وطرفاه هما القطبان ، ويسمى أحدهما القطب الشمالي والآخر القطب الجنوبي . ودوائر أنصاف النهار هي الدوائر التي تعبر من أحد القطبين إلى الآخر ، وعلة تسميتها بذلك أنه إذا كانت الشمس في سمت رأس محل يمرّ عليه هذا الخط ، دخل وقت الظهر بذلك المحل ومركز هذه الدوائر هو مركز الأرض . وأما الدوائر المتوازية فهي الدوائر الواقعة أعمدة على دوائر أنصاف النهار ، وهي التي بينها وبين مركزها تواز على محور الأرض ، وأعظمها دائرة الاستواء ، وهي الدائرة العظمى المستوية البعد من القطبين ، وهي تنصف الكرة نصفين أحدهما النصف الشمالي والآخر النصف الجنوبي . ثم إن دوائر أنصاف النهار والدوائر المتوازية كسائر الدوائر تنقسم إلى ثلاثمائة وستين درجة ، وكل درجة تتجزأ إلى ستين دقيقة ، وكل دقيقة إلى ستين ثانية ، وكل ثانية إلى ستين ثالثة ، وهكذا .

وللإفرنج تقسيم آخر جديد ، وهو أن الدائرة تنقسم إلى أربعة أرباع ، وكل ربع يتجزأ مائة تسمى درجات مائينية⁽¹⁸⁾ وكل دقيقة مائة ثانية كذلك ، وهكذا . وهذا نشأ عن استعمالهم الحساب الأعشاري والحساب المتري ، والأول أشهر استعمالاً . وبهذه الدوائر يتحدد الطول والعرض ، وذلك أن العرض هو بعدد دائرة متوازية عن المتوازية العظمى التي هي دائرة الاستواء . فإن أخذته جهة الشمال كان عرضاً شمالياً ونهايته تسعون درجة ، وإن كان جهة الجنوب فجنوبي ، ونهايته كذلك . وأما الطول فهو بعد خط نصف النهار عن خط نصف نهار آخر ، مصطلح على أنه أولي . وهو شرقي وقدره مائة وثمانون درجة ، وغربي وقدره كذلك . وقد وضع أصحاب الجغرافيا في الأكرة أو الخارطات⁽¹⁹⁾ على كل دائرة متوازية ما تبعد به من الدرجات عن دائرة الاستواء ، كما جعلوا على كل دائرة نصف نهار عدد درج بعدها من دائرة نصف النهار الأولية . وقد رسم ، كما أسلفنا ، بطليموس الحكيم دائرة نصف النهار الأولية في الجزائر الخالدات ، فلما انكشفت بلاد أمريكة اختار الإفرنج أن يجعل أهل كل قطر من الأقطار خط نصف نهارهم الأولي ببلادهم ، لينسبوا إليها ما عداها كما صنع الفرنسيون ، فإنهم جعلوا خط نصف نهارهم الأولي في مدينة باريس ، وبقيت منهم أم كالفلمنك على أخذ الأطوال من جزيرة الحديد بالجزائر الخالدات . وفي الواقع أن الأولى ، كما هو الظاهر ، اتخاذ مبدأ أطوال مشترك لجميع الأمم ، ينسب إليه ما عداه ويكون في قطر لإعمار ، بعده معلوم أو ممتاز بمزية كمكة المشرفة . ثم إن كيفية تحديد الطول حينئذ يمكن أخذها بتفاوت الأوقات ، وذلك أنه من المعلوم أن الشمس ، أو الأرض كما يقوله الإفرنج ، تقطع حركتها اليومية في أربع وعشرين ساعة . فهي تقطع من الدائرة التي ترسمها في سيرها خمس عشرة درجة في كل ساعة ، فتقطع درجة كل أربع دقائق . يعني أنه إذا دخل وقت الظهر في القاهرة ، مثلاً ، فلا يدخل وقته في المكان الذي يبعد عنها جهة الغرب بخمس عشرة درجة إلا بعد ساعة ، ويدخل بعد ساعتين فيما يبعد عنها بثلاثين درجة ، وهلم جرا . وبالعكس ذلك في المكان

(18) النسبة إلى مائة (مئة) مثوي وليس مائيني .

(19) وردت في النص (الخارطات) .

الذي يبعد عنها جهة المشرق ، فإنه إذا كان الظهر في القاهرة يكون قد مضى ساعة بعد الظهر في المكان الذي يبعد عنها جهة المشرق بخمس عشرة درجة ، ويكون مضى ساعتان فيما يبعد عنها في هذه الجهة بثلاثين درجة ، إلى آخره . فلنذكرها حينئذ ، متى يكون الظهر في باريس إذا كان الظهر في أصول البلاد الغربية منها والشرقية . وبذلك يفهم بعدها عن هذه البلاد ، فيقال إذا كان وقت الظهر في مصر القاهرة ، لا يدخل وقته في باريس إلا بعد مضيّ ساعتين إلا أربع دقائق . وإذا كان الظهر في إسلامبول ، كان في باريس بعد مضيّ ساعة وست وأربعين دقيقة . وإذا كان في بغداد ، كان دخوله في باريس بعد ساعتين وثمان وأربعين دقيقة . وفي حلب إذا دخل الظهر ، لا يدخل في باريس إلا بعد ساعتين وأربع دقائق تقريباً . وإذا دخل الظهر في الجزائر ، لا يدخل في باريس إلا بعد مضيّ نصف ساعة ودقيقتين . ووقت الظهر في أصفهان ، يدخل في باريس بعد مضيّ ثلاث ساعات واثنين وعشرين دقيقة . وإذا كان في مدينة بكين (بكسر الباء والكاف) ، كرسيّ ملك الصين ، يكون في باريس بعد سبع ساعات وإحدى وأربعين دقيقة . وفي مدينة روما الكبرى نصف ساعة وثمانين دقائق . وهذه البلاد على المشرق من مدينة باريس ، وأما البلاد التي على غربيها ، فإذا كان الظهر في مدينة مدريد ، كرسيّ ملك الأندلس ، فإنه يكون فات وقته في باريس بأربع دقائق . وإذا كان في مدينة لشبونة ، كرسيّ البرتغال ، فإنه يكون فات وقته في باريس بخمس دقائق ونصف . وإذا دخل وقته في فيلادلفيا (بكسر الفاء وسكون الياء وفتح اللام وكسر الدال المهملة وسكون اللام وكسر الفاء) ، مدينة أمريكة ، فإنه يكون قد مضى بعده في باريس خمس ساعات وثلاث عشرة دقيقة . وإذا كان وقته في مدينة ريو جانيرو (بكسر الراء وضم الياء وكسر النون وسكون الياء) ، كرسيّ سلطنة ابريزيلة في أمريكة ، فهو ثلاث ساعات تقريباً . وإذا كان نصف النهار في جزيرة كنفو⁽²⁰⁾ في أمريكة الموسقو يكون نصف الليل في باريس ، فإنهما متقاطران . والمسافة بين باريس وإسكندرية سبعمائة وتسعة وستون

(20) لم أعر على هذا الاسم في الموسوعة الجغرافية Encarta ، وموقعها في الأسكا قبل أن يبيعها الروس

فرسخاً فرنساوياً؛ وبينها وبين القاهرة ثمانمائة وتسعة فراسخ؛ وبينها وبين مكة المشرقة سبعمائة وأربعون فرسخاً؛ وبينها وبين إسلامبول خمسمائة وستون فرسخاً؛ وبينها وبين حلب ثمانمائة وستة وستون فرسخاً؛ وبينها وبين مراكش سبعمائة وخمسة وعشرون فرسخاً؛ وبينها وبين تونس ثلاثمائة وسبعون فرسخاً؛ وبينها وبين مدينة لوندرة، كرسي الإنكليز، مائة فرسخ؛ وبينها وبين مدينة بتربرغ، كرسي الموسقو، خمسمائة وستة وأربعون فرسخاً؛ وبينها وبين مدينة روما، كرسي البابا، ثلاثمائة وخمسة وعشرون فرسخاً؛ وبينها وبين مدينة بجة، كرسي النمسا، ثلاثمائة وخمسة وعشرون أيضاً؛ وبينها وبين مدينة نابلي ثلاثمائة وأربعة وثمانون فرسخاً؛ وارتفاعها بالنسبة لسطح البحر المحيط ثمانين عشرة قامة. ومن المعلوم أنها من بلاد المنطقة المعتدلة، فليست في غاية الحرارة ولا في غاية البرودة، فإن أقصى درجات الحر فيها يكون إحدى وثلاثين درجة ونصفاً، وهذا نادر؛ والحر الأوسط تسع وعشرون درجة؛ وأقصى درجات البرد بها في الغالب اثنتا عشرة درجة، ونادر بلوغه ثمانين عشرة؛ والبرد الأوسط سبع درجات. ومعلوم أن درجة الحر تحسب من شروع المتجمدات في الذوبان إلى حد فوران الماء، ودرجات البرد من شروعه في الجمود. والأغلب فيها عدم صحو الزمن، وكثرة الغيوم بحيث تمكث الشمس في الشتاء عدة أيام لا تنكشف ولا يرى جرمها غالباً، فما كأنها إلا ماتت وعاش الليل. ويحسن هنا قول بعضهم:

قلت والليل مقـمـم
ودجـاه غـيـر سـار
أعظم الخالق أجر الخلق
في شمس النهار
فلقد ماتت كما ما
ت غرامي واصطباري

وفي أيام الغيوم يصلح لها ما في ديوان الشهاب الحجازي⁽²¹⁾ من قول الشاعر:

(21) أحمد بن محمد الأنصاري الخزرجي، شهاب الدين المعروف بالحجازي (790-875هـ/1388-

1471م): من شيوخ الأدب في مصر. مولده ومنشؤه ووفاته في القاهرة. ومن كتبه «قلائد النحور من

جواهر البحور».

تظل الشمس ترمقنا بطرف
خفيّ مدنف من خلف ستر
تحاول فتق غيم وهو يأبى
كعنين يحاول فتق بكر
وقد فقد بعض الشعراء الورقة المشتملة على البيت الأول ، وعثر على الورقة
المشتملة على البيت الثاني من هذين البيتين فكملة بقوله :
أزال الغيم ضوء الشمس عنا
فما زالت وقد حجبت بستر
تحاول فتق غيم وهو يأبى
كعنين يحاول فتق بكر
وقد ضمن هذا المعنى العلامة الصفطيّ في قوله :
وطلعة مصر معشوقي ولكن
أريد وصالها وتريد هجري
أحاول من تحجبها اختراقا
كعنين يحاول فتق بكر
وضمن ذلك أيضاً في عكا فقال :
وعكاء الفريدة في جمال
لها مهج الفراعن دون مهر
وخاطبها سوى من كان فيها
كعنين يحاول فتق بكر

ففض وليّ النعم ختامها وزالت بكارتها ، فكان ما ظنّ أنه عنين بالنسبة إليها هو
شديد قوي على فض الختام لجميع مدن الشام وغير الشام ، وكان جديراً بأن يتمثل
بقول الشاعر :

تعشقتها بكراً عليّ بعجبها
تتيه ولا يوماً بحالي تعباً

فأنزلت أيدي الجهد حتى افتضتها

وصيرتها أرضاً تداس وتوطأ

وقد أرخ شعراء مصر أخذ مدن الشام والروم وأجادوا . وأما المطر فإنه لا ينقطع في هذه المدينة في سائر فصول السنة ، وإذا نزل في الغالب نزل بكثرة ، فلذلك احتاجوا إلى دفع ضرره إلى جعل أعالي الدور منحدره لتنزل منها المياه إلى أسفل الدور . في سائر البيوت والطرق مجار وبالوعات ، فترى وقت المطر سائر طرق باريس محدودة بمجار كالقناة الجارية المياه ، خصوصاً وأرض هذه المدينة مبلطة بالحجر فلا تتشرب المياه أبداً ، بل تسير إلى هذه المجاري ومنها إلى البالوعات . وتغير مزاج الهواء والزمن في باريس أمر عجيب ، فإنه قد يتغير في اليوم الواحد أو مع ما بعده حال الزمن ، مثلاً ، يكون في الصباح صحو عجيب لا يظن الإنسان تغيره ، فلا يمضي نصف ساعة إلا ويذهب الكلية ويخلفه المطر الشديد . وقد يكون حرّ يوم من الأيام أربعاً وعشرين درجة ، ولا يصل اليوم الآتي إلى اثنتي عشرة . وهكذا فقل أن يأمن الإنسان تغير الوقت بهذه البلاد ، فمزاجها كمزاج أهلها ، كما سيأتي . ومعلوم أنه ينبغي أن يتحفظ الإنسان من ضرر هذا التغير ، وإن كان هواء باريس في الجملة طيباً مناسباً للصحة . ومع أن حرّها لا يصل إلى حرّ القاهرة في الغالب ، فهو غير مألوف أبداً ؛ ولعل ذلك للانتقال من شدة البرد إلى شدة الحر . وأما بردها فإنه ، وإن كان في طاقة الإنسان تحمله من غير عظيم تعب ، فإنه لا يمكن للناس الشغل إلا بالتدفئة بالنار . فلذلك كان في سائر قهاويها وخاناتها ومعاملها وحوانيتها مداخن مبنية في الأود ليوقد فيها النار . وهي مرتبة على وجه بحيث لا ينتشر في الأودة دخان الخطب ، فإن هذه المداخن نافذة إلى الهواء ، فيجذب الهواء الدخان ويطرده خارج البيت . وفي بعض الأود يصنعون نوعاً من الفرن له باب من الحديد ، ويلحقون به قصبة من صفيح ، وينفذون هذه القصبة في فرجة تتصل بالهواء ، فيضعون الخشب في الفرن ويغلقون باب الحمي ، فيصعد الدخان جهة القصبة ومنها يصعد إلى الخلا ، فتسخن الفرن وتحمى قصبتها فتسخن الأودة أو الرواق ونحوها . وعندهم نوع آخر عجيب يسمى المداخن المسقوية ، وعادة المدخنة أو الفرن المسماة عند الفرنساوية (بوالا) أن ظاهرها مطلي طلاء عظيماً في غاية النظافة ، والمدخنة دائماً مرخمة الجوانب ، ولها عرصة

من حديد . وهي عند الفرنساوية ، لحسن صناعتها ، من زينة المحل ، فيكتنفونها في الشتاء . ومن أعظم إكرام الضيف عندهم في الشتاء تقريبه جهة النار ، ولا عجب في ذلك ، نسأل الله إنقاذنا من حرّ نار جهنم ، ولله در القائل :

النار فأكهة الشتاء فمن يرد
أكل الفواكه شاتياً فليصطل

وأحسن من قال :

دخلت يوماً على صديق
والبرد يفري به الفريا⁽²²⁾
فأوقد النار قلت كلا
لأنت أولى بها صلياً

وبالجملة ، فالتدفئة في الشتاء عند الفرنساوية جزء من المؤونة ، فهذا ما يستعينون به على البرد . وأما ما يستعينون به على التوقي من ضرر المطر ، فهو المظلات المسماة في مصر بالشمسيات يعني وقايات الشمس ، وتسمى عند الفرنساوية وقاية المطر . وفي الحرّ تمشي النساء بالشمسيات ، ولا يمكن للرجال ذلك أبداً . وأرض هذه المدينة مفلحة دسمة مثمرة ، فكيف لا ؟ وما من بيت من البيوت الوافرة إلاّ وبه بستان عظيم الأشجار والخضراوات وغيرها . وأغلب النباتات الغربية يوجد بهذه البلدة ، فإنهم يعتنون بتطبيع النباتات كالحيوانات الغربية ببلادهم ، مثل شجر النخل لا يخرج إلاّ في الأقاليم الحارة ، ومع ذلك صنع الفرنساوية كل الحيل حتى زرعوا منه شيئاً ، وإن كان لا يثمر ، إلاّ أنه ينفعهم في الرجوع إليه عند قراءتهم في علم النباتات . وقد اشتهر عندنا أن النخل لا يوجد إلاّ ببلاد الإسلام ، ويرد عليه أنه كشف عند بلاد أمريكة وجدوا بها نخلاً غير منقول ، كما هو الظاهر من بلادنا . فانظر هذا مع قول الفاضل القزويني في كتابه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» ما نصه : «النخل شجرة مباركة عجيبة ، من عجائبها أنها لا تنبت إلاّ في بلاد الإسلام .» ولعل النخل

(22) فرى : قطع وشق . والفري : الأمر العجيب . والمعنى أنه عانى من البرد مرارة شديدة .

الموجود في غير بلاد الإسلام نوع مخصوص ، يصدق عليه اسم النخل عند أهل النباتات ، والمقصود على بلاد الإسلام نخل التمر ، لمناسبة مزاج قطرها ، فتأمل .

ويقرب أرض باريس عين ماء معدني باردة الماء ويشقها نهران ، أحدهما وهو الأعظم والأشهر يقال له نهر السين⁽²³⁾ (يفتح السين) ، والآخر نهر غوبلان . قال بعض علماء الكيمياء من الإفرنج إن أقل المياه خليط بالمواد الخارجية نيل مصر ونهر الكنك⁽²⁴⁾ ببلاد الهند ونهر السين بباريس . ويتفرع على ذلك اعتبار مائها في فن الطب من الأمور المناسبة لصحة الأبدان ، وأنه يحسن تطيب وطبخ الخضراوات بها دون غيرها ، وتحليل الصابون بها للغسل ونحو ذلك . وفي نهر السين بداخل باريس ثلاثة جزائر ، إحداها تسمى جزيرة السيته ، وكان بها باريس القديمة والسيته (بكسر السين وسكون الياء وفتح التاء الفوقية) معناها المدينة ، فكأنه قيل جزيرة المدينة . وشتان بين هذا وبين النيل والروضة والمقياس ، فإن نزهة الإنسان في الروضة والمقياس لا تضاهي ، لأن الخليج يعبر مصر والسين يعبر باريس . إلا أن نهر السين بتمامه يشق باريس ، وتجري به السفن العظيمة الوسق ، وبه الأرصفة الجيدة والنظافة على حوافيه ، ومع ذلك فنزهته غير سارة . وشتان أيضاً بين ماء النيل والسين من جهة الطعم وغيره . فإن ماء النيل ، لو كانت العادة جرت بترويقه قبل استعماله ، كما هو العادة في ماء نهر السين ، لكان من أعظم الأدوية . وأقول أيضاً إنه فرق بعيد بين طعم ماء نهر السين وماء العيون والقطوع والسواقي ببلاد صعيد مصر . وبالجمله والتفصيل ، ففرق بعيد بين تربة مصر وباريس ومياههما وفواكههما الآن في نحو الخوخ وإقليمهما . فلولا نجابة أهل باريس وحكمتهم وبراعتهم وحسن تدبيرهم واعتناؤهم بتعهد مصالح بلادهم ، لكانت مدينتهم كلاشيء . فانظر مثلاً إلى نهر السين ، فإنه وإن كان نزهة في أيام الحر ، فإنه قد يبلغ في وقت الشتاء ثمانني درجات من الجمود والانعقاد ، حتى أنه يمكن أن يداس عليه بالعربات . وانظر إلى أشجار هذه المدينة ، فإنها تكون مورقة في أيام الحر وفي أيام البرد لا تجدها إلا قرعة رديئة المنظر كأنها حطب مصلب .

(23) اللفظ الصحيح : بكسر السين كسرا مائلا .

(24) نهر الغانج .

وهذا في سائر البلاد الباردة ، وقال بعضهم في هذا المعنى :
سألت الغصن لم تعرى شتاء
وتبدو في الربيع وأنت كاسي
فقال لي الربيع على قدوم
خلعت على البشير به لباسي

قال بعضهم في وصف يوم برد وأجاد : في يوم برد جعله الله منه في حمى ،
ومحال حرب كان الظفر فيه لابن ماء السماء ، كأنما ماجت الأرض فرحاً لانهلال
السحاب ، وقويت أوتادها إذ صار لها بالسماء من جبال المطر أمدّ الأسباب ، وكأن
السماء قد رأت ما بالأرض من السرور فبعثت تهنيتها بصوت الرباب ، فلکم تفتحت
أعين النور لعيون الغمام الساجمة ، ولکم استمرّت به مسرة واستقرّت به سائمة ،
ولکم ضحكت الأرض لبكاء السماء بمدامعها ، وظهر البشر على وجهها . وانظر إلى
زمن تلك المدينة فإنه دائماً معتم في سائر أيام الشتاء ، وغالب أيام الحرّ ، فإذا تنزه
الإنسان ساعة تنكد ساعة أخرى ، وذهب حظه بالرعد والبرق وانهدّ المطر
والصواعق ، إلّا أن الثلوج بها ومجرة البالوعات تقي من الوحل المضّر ، فليست كأرض
جیلان الذي قال فيها الشاعر :

أقمت بأرض جیلان زمانا
للم يك ذاك مني غير جهل⁽²⁵⁾
فلم أحصل على غير متاح
سوى سح الغيوث وخوض وحل

وأهلها لا يبالون بذلك ، فيقال في سائر أيامها ما قاله بعضهم في وصف يوم
شديد البرد ، من أنه يوم يجمد خمرة ، ويخمد جمرة ، ويخف فيه الثقل إذا هجر ،
ويثقل فيه الخفيف إذا هجم . إلّا أن الفرنسيّون يكثرّون من الملاهي في ليالي الشتاء ،
لأنهم يبذلون جهدهم في التوقي من مضارها ، نسأل الله تعالى الوقاية من برد

(25) جیلان : إقليم في إيران ، جنوبي بحر قزوين .

الزمهرير . فلو تعهدت مصر وتوفرت فيها أدوات العمران ، لكانت سلطان المدن ورئيسة بلاد الدنيا ، كما هو شائع على لسان الناس من قولهم «مصر أم الدنيا» . وقد مدحتها مدة إقامتي بباريس تتضمن مدح وليّ النعمة ، دام عز دولته آمين ؛ وهامي هذه القصيدة :

ناح الحمام على غصون البان
فأباح شيمة مغرم ولهان
ما خلته مذ صاح إلا أنه
أضحى فقيد أليفه ومعاني
وكأنه يلقي إليّ إشارة
كيف اصطباري مذ نأى خلاني
مع أنني والله مذ فارقتهم
ما طاب لي عيشي وصفو زماني
لكنني صب أصون تلهفي
حتى كأني لست باللهفان
وبباطن الأحشاء نار لو بدت
جمراتها ما طاقها الثقلان
أبكي دماً من مهجتي لفراقهم
وأود أن لا تشعر العينان
لي مذهب في عشقهم واريته
ومذاهب العشاق في إعلان
ماذا عليّ إذا كتمت صبابتي
حتى لو أنّ الموت في الكتمان
ما أحسن القتلى بأغصان النقى
ما أطيب الأحران بالغزلان
قالوا أتهوى والهوى يكسو الفتى
أبدأ ثياب مذلة وهوان

فأجبتهم لو صح هذا أنني
أختار ذلي فيه طول زماني
والذل للعشاق غير معرّة
بل عين كل معزة للعاني
أصبو إلى من حاز قدّاً أهيفاً
يزري ترنحه بغصن البان
وأحن نحوتم شقيق خده
قد نم فيه شقايق النعمان
ويروقني أبداً نزاهة مقلتي
في حسن طلعة فاتك فتان
أمسي وأصبح بين شعر حالك
ومنير وجهه هكذا الملّوان⁽²⁶⁾
ولطالما قضيت معه حقبة
ونسيم مصر معطر الأردن
زمن عليّ به لمصر فديتها
حتى وفيت عواطل النكران
لو شابها عيناى فائض نيلها
لم توف بعض شفائه أحزاني
أو لو حكى قلبي بحار علومها
طرباً لما أخلو من الخفقان
ولكم بأزهرها شمس أشرقت
وأنارت الأكوان بالعرفان
فشذا عبير علومهم عم الورى
وسرت مآثرهم لكل مكان

وحوتهمو مصر فصارت روضة
 وهمو جناها المبتغى للجاني
 قد شبهوها بالعروس وقد بدا
 منها العروسي بهجة الأكوان
 قالوا تعطر روضها فأجبتهم
 عطارها حسن شذاه معاني
 حبر له شهدت أكابر عصره
 بكمال فضل لاح بالبرهان
 لو قلت لم يوجد بمصر نظيره
 لأجبت بالتصديق والإذعان
 هذا العمري أن فيها سادة
 قد زينوا بالحسن والإحسان
 يا أيها الخافي عليك فخارها
 فإليك إن الشاهد الحسان
 ولئن حلفت بأن مصر لجنة
 وقطوفها للفائزين دواني
 والنيل كوثرها الشهي شرابه
 لأبر كل البر في إيماني
 دار يحق لها التفakhir سيما
 بعزیزها جدوى بني عثمان
 حاز المحامد إذ دعي بمحمد
 ورقى العلا فعلاً على الأقران
 من كان مثل أميرنا فقرينه
 إسكندر أو قل أنوشروان⁽²⁷⁾

(27) في بعض النسخ : إسكندر أو كسرى أنوشروان ، وفي هذا خلل عروضي ليس نجاف .

في وجهه النصر المبين على العدا
لاحت بشائره لكل معاني
في كفه سيفان سيف عناية
والشهم إبراهيم سيف ثان
سل عنه ينبيك الحجاز مشافها
بدمار أهل الزيف والبهتان⁽²⁸⁾
من قبل كانت سبله مذعورة
والآن صارت في كمال أمان
لا غرو أن نجد أدامت شكره
فلقد كساها حلة الإيمان
وسعت إلى زنج طلائع جيشه
فأطاعها العاتي من السودان
وتقلب الأروام عدل شاهد
كم منه قد نالوا شديد طعان
حتى لقد باءوا بوافر خزيهم
وتقاسموا حظا من الخسران
لم تخط قامة رمحه أغراضها
وإصابة الأغراض نيل أمانني
أحيى بدولته علوما قد غدت
لوضوحها تجلى على الأذهان
بطل مكارمه الجليلة قلدت
هام الزمان مكارم التيجان
يهنيك يا مصر لقد حزت البها
بمحمد باشا عليّ الشان

(28) المقصود بأهل الزيف هنا ، بعض أشراف وأمرء مكة الذين كانوا يتقاتلون على الحكم وعلى إمارة

مكة ، وكان بعضهم ممن ينهزم بخيم بظاهر مكة ويقطع الطريق على الحجيج .

فاحظي بفاخر حكمه وتمتعي
وبذلك افتخري على البلدان
مدّي أكف الشكر وابتهلي بأن
يبقيه مولاه طويل زمان

وأما مصر فإنها سليمة من مكاره برد باريس ، كما أنها خالية أيضاً عن الأمور المحتاج إليها في وقت الحرّ مثل الاستعانة على تطرية الزمن ، فإن أهل باريس مثلاً سهل عندهم رش ميدان متسع من الأرض وقت الحر ، فإنهم يصنعون دنا عظيماً ذا عجلات ويمشون العجلة بالخليل ، ولهذا الدن عدة بزابيز⁽²⁹⁾ مصنوعة بالهندسة تدفع الماء بقوة عظيمة وعزم سريع ، فلا تزال العجلات ماشية والبزابيز مفتوحة حتى ترش قطعة عظيمة في نحو ربع ساعة لا يمكن رشها بجملّة رجال في أبلغ من ساعة . ولهم غير ذلك من الخيل ، فصرنا أولى بهذا للغلبة حرّها «قد صار الآن جل ذلك بمصر» . ثم من غرائب نهر السين أنه يوجد فيه مراكب عظيمة ، فيها أعظم حمامات باريس المشيدة البناء ، وفي كل حمام منها أبلغ من مائة خلوة ؛ وسيأتي ذكرها . ومن الأمور المستحسنة أيضاً أنهم يصنعون مجاري تحت الأرض توصل ماء النهر إلى حمامات أخرى وسط المدينة ، أو إلى صهاريج بهندسة مكّمة . فانظر أين سهولة هذا مع ملء صهاريج مصر بحمل الجمال ، فإن ذلك أهون مصرفاً وأيسر في كل زمن . وشطوط هذا النهر داخل المدينة مرصّفة بحيطان عظيمة عالية فوق الماء نحو قامتين ، يطل المار بجانبها على النهر وهي محكمة البناء . وقناطر هذا النهر بباريس ست عشرة قنطرة ، تسمى قنطرة بستان النباتات ؛ ولها أربعمائة قدم من الطول ، وعرضها سبعة وثلاثون قدماً . ولهذه القنطرة خمسة قواصير من الحديد محكمة ومسنّدة على حجارة من أحجار النحاتة . وقد بنيت هذه القنطرة في خمس سنوات ، وصرف فيها ثلاثون مليوناً من الفرنكات ، يعني ثلاثين ألف ألف فرنك . وتسمى هذه القنطرة قنطرة أسترتلز ؛ سميت بذلك باسم محل غلب فيه نابليون ملك النمسا والموسقو ، فيقال لهذه الواقعة واقعة أسترتلز ، ويقال لها واقعة السلاطين الثلاثة ، ويقال لها واقعة

(29) البزابيز : كلمة عامية بمعنى الأنابيب أو الخراطيم المستعملة في رش المياه .

موسم تتويج نابليون . وأسترتلز بلدة وقعت هذه النصره بقربها ؛ وهذه النصره تستحق عند الفرنساوية الذكر الجميل على عمرّ الدهور ، فلذلك أبدوها ببناء هذه القنطرة ؛ فتسميتها بهذا الاسم للتذكّار وبقاء الآثار . ونهر السين يشق باريس نحو فرسخين ، وعرضه فيها مختلف ، فعند القنطرة المتقدّمة يكون من الطول مائة وستة وستين متراً ، وقوّة سير مياهه المتوسطة عشرون برماً في كل ثانية ، أو ألف ومائتان في كل دقيقة . وسطح أرض باريس صنفان ، فالأول جبس ، والثاني طين ماء نهر السين بعد زيادته . وأرضها مركبة من راقات مختلفة ، فالراق الأول مزرعة طينية مرملة ذات حصى ، الثاني طفل (60) مختلط بجبس وصدف ، الثالث طفل صواني ، الرابع طفل جيبي صدي ، الخامس حجر الجير المخلوط بصدف ، السادس البحر الملح ، السابع طين شبيه بالأبليزي ، الثامن من طباشير وجير مفحوم طباشيري . ثم إن هذه المدينة مشقوقة ومحتاطة بصفوف أشجار ، مرصوصة على سمت الخطوط المتوازية ، لا يخرج بعضها عن بعض أبداً . وعلى منوالها بطريق شبرا وفي أبي زعل وجهاد آباد . وهي مورقة في أيام الحرّ يستظل المار بها من حرّ الشمس وتسمى البلوار (بضم الباء وسكون اللام) . فيوجد في باريس بلوارات خارجة كالسور للمدينة ، وبلوارات داخل المدينة . ومحيط البلوارات الخارجة أبلغ من خمسة فراسخ ونصف . وعدد بلوارات باريس اثنان وعشرون بلواراً . وفي هذه المدينة عدّة فسحات عظيمة تسمى المواضع ، يعني الميادين ، كفسحة الرميّة بالقاهرة في مجرد الاتساع لا في الوساحة ؛ وعددها خمسة وسبعون ميداناً . ولهذه المدينة أبواب خارجية برّانية كباب النصر بالقاهرة ، وهي ثمانية وخمسون باباً . وبهذه المدينة أربع قنایات من صنف المسماة عيوناً ، وثلاثة دواليب لجري المياه بالنواعير إلا أنها عظيمة ، وستة وثمانون صهريجاً ، ومائة وأربع عشرة حنفية على الطرق . وما يدل على عمارة هذه المدينة كون أهلها دائماً في الزيادة البينة ، وأرضها في الاتساع ، وعماراتها في التكميل والتحسين . وهم ثم جميعاً في توسيع دائرتها بالأبنية العظيمة ، لإعانة ملوكهم على ذلك برفع عوايد البيوت المستحدثة على التنظيم الجديد مدّة من الزمن قال الشاعر :

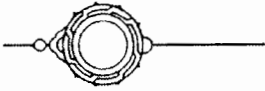
هم الملوك إذا أرادوا ذكرها

من بعدهم فبالسن البنيان

إن البناء إذا تعاضم شأنه

أضحى يدل على عظيم الشأن

وبذلك تكثر أهلها فإن أهلها الآن ، يعني أهل الاستيطان بها ، فوق مليون من
الأنفس . ومحيطها سبعة فراسخ فرنساوية . ومطايا هذه المدينة كغيرها من بلاد فرنسا
العربات ، إلا أنه يكثر فيها ذلك ويتنوع ، ولا تزال تسمع بها قرقعة العربات ليلاً
ونهاراً بغير انقطاع ، وسيأتي تفصيل ذلك في غير هذا المحل .



الفصل الثاني

في الكلام على أهل باريس

اعلم أن الباريزيين يختصون من بين كثير من النصارى بذكاء العقل ودقة الفهم
وغوص ذهنهم في العويصات ، وليسوا مثل النصارى القبضة في أنهم يميلون بالطبيعة
إلى الجهل والغفلة ؛ وليسوا أسراء التقليد أصلاً ، بل يحبون دائماً معرفة أصل الشيء
والاستدلال عليه ، حتى أن عامتهم أيضاً يعرفون القراءة والكتابة ، ويدخلون مع
غيرهم في الأمور العميقة ، كل إنسان على قدر حاله . فليست العوام بهذه البلاد من
قبيل الأنعام ، كعوام أكثر البلاد المتبربرة . وسائر العلوم والفنون والصنائع مدونة في
الكتب لإتقان صنعتها ، وكل صاحب فن من الفنون يحب أن يبتدع في فنه شيئاً لم
يسبق به أو يكمل ما ابتدعه غيره . وبما يعينهم على ذلك ، زيادة عن الكسب ، حب
الرياء والسمعة ودوام الذكر ، فهم يقتدون بقول الشاعر :

لعمري رأيت المرء بعد زواله

حديثاً بما قد كان يأتي ويصنع

فحيث الفتى لا بدّ يذكر بعده

فذكره بالحسنى أجل وأرفع

وقول ابن دريد (30) :

(30) محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (223-321هـ/838-933)، من أزد عُمان من قحطان، من أئمة اللغة

والأدب . وهو صاحب «المقصورة الدريدية» و«الجمهرة» في اللغة (ثلاثة مجلدات) ؛ ولد في البصرة .

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

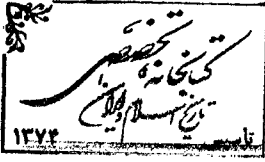
وقيل لاسكندر : لو استكثرت من النساء ، كثر ولدك وطاب بهم ذكرك ، فقال :
دوام الذكر في حسن السيرة والسنن ، ولا يحسن لمن غلب الرجال أن تغلبه النساء .
ومن طباع فرنساوية التطلع والتولع بسائر الأشياء الجديدة ، وحب التغيير والتبديل
في سائر الأمور ، خصوصاً في أمر الملبس ، فإنه لا قرار له أبداً عندهم ، ولم تقف لهم
إلى الآن عادة في التزيي . وليس معنى هذا أنهم يغيرون ملبسهم بالكلية ، بل معناه
أنهم يتنوعون فيه ، مثلاً لا يغيرون لبس البرنيطة ، ولا ينتقلون منها إلى العمامة ، وإنما
هم تارة يلبسون البرنيطة على شكل ، ثم بعد زمن ينتقلون منه إلى شكل آخر ، سواء
في صورتها أو لونها وهكذا . ومن طباعهم المهارة والخفة ، فإن صاحب المقام قد تجده
يجري في السكة كالصغير . ومن طباعهم أيضاً الطيش والتلون ، فينتقل الإنسان
منهم عن الفرح إلى الحزن وبالعكس ، ومن الجدد إلى الهزل وبالعكس ، حتى إن
الإنسان قد يرتكب في يوم واحد جملة أمور متضادة . وهذا كله في الأمور غير
المهمة ، وأما في الأمور المهمة فأراؤهم في السياسات لا تتغير ، كل واحد يدوم على
مذهبه ورأيه ويؤيده مدة عمره . ومع كثرة ميلهم إلى أوطانهم ، يحبون الأسفار ، فقد
يمكثون السنين العديدة والمدة المديدة طوافين بين المشرق والمغرب ، حتى إنهم قد
يلقون أنفسهم في المهالك لمصلحة تعود على أوطانهم ، فكأنهم مصداق قول
الحاجري (31) :

كل المنازل والبلاد عزيزة عندي ولا كمواطني وبلادي

وقال آخر (32) :

(31) الحاجري (؟ - 632هـ/؟ - 1235م) عيسى بن سنجر بن بهرام ، حسام الدين : شاعر مجيد تركي
الأصل ، من أهل إربل ، ينسب إلى حاجر ، وهي بلدة في الحجاز ، لأنه أكثر من ذكرها في شعره .
قتل غدرا بإربل .

(32) الشاعر أبو تمام الطائي .



نقل فؤادك ما استطعت من الهوى
ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى
وحنينه أبداً لأول منزل

ومن خصالهم محبة الغرباء والميل إلى معاشرتهم ، خصوصاً إذا كان الغريب متجماً بالثياب النفيسة ، وإنما يحملهم على ذلك الرغبة والتشوق إلى السؤال عن أحوال البلاد وعوايد أهلها ، ليظفروا بمقصدهم في الحضر والسفر ، وقد جرت عادة النفوس إلى الطمع من الدنيا بما لا تظفر به ، كما قال الشاعر :

إن النفوس على اختلاف طباعها

طمعت من الدنيا بما لم تظفر

وليس عندهم المواساة إلا بأقوالهم وأفعالهم لا بأموالهم ، إلا أنهم لا ينعون عن أصحابهم ما يطلبون استعارته لا هبته إلا إذا وثقوا بالمكافأة . وهم في الحقيقة أقرب للبلخل من الكرم ، وقد ذكرنا علة ذلك في ترجمتنا مختصر السير والعوايد في ذكر الضيافة . وفي الواقع ، حقيقة السبب في ذلك هو أن الكرم في العرب . ومن أوصافهم توفيتهم غالباً بالحقوق الواجبة عليهم ، وعدم إهمالهم أشغالهم أبداً ، فإنهم لا يكلون من الأشغال ، سواء الغني والفقير ، فكأن لسان حالهم يقول إن الليل والنهار يعملان فيك ، فاعمل فيهما . ومن المركز في طبعهم حب الرياء والسمعة ، لا الكبر والحد . فهم ، كما يقولون في مدح أنفسهم ، أخلص قلوباً من الغنم عند ذبحها ، وإن كانوا عند الغضب أشد افتراساً من النمر ، فإن الإنسان منهم إذا غضب قد يؤثر الموت على الحياة . فقل أن يفوت زمن يسير من غير أن يقتل إنسان نفسه ، خصوصاً من داء الفقر أو العشق . ومن طباعهم الغالبة وفاء الوعد ، وعدم الغدر ، وقلة الخيانة . ومن كلام بعض الحكماء ، المواعيد شباك الكرام يصطادون بها محامد الأحرار . وقال آخر : كفر النعمة من لؤم الطبيعة ، ورداءة الديانة . وقال آخر : الشكر وكاء النعمة ، والوفاء به صلاح العقبي . وقيل : وعد الكريم ألزم من دين الغريم . وقال بعضهم : الخيانات تؤذي الأمانات . ومن طباعهم الغالبة الصدق ، ويعتنون كثيراً بالمروءة الإنسانية . قال بعضهم في مدحها : المروءة اسم جامع للمحاسن كلها ، ومن الصفات

التي يقبح وصف الإنسان بها عندهم ، كفر النعم مثل غيرهم ، فيرون أن شكر المنعم واجب . وأظن أن جميع الأمم ترى ذلك ، وإن كانت قد تفقد هذه الصفة عند أفراد ، فهو خروج عن الطبع ، فهي كشفقة الوالد وبرّ الولد ، فإنهما قد يختلفان في بعض الأفراد ، مع أنهما صفتان جليلتان عند سائر الأمم والملل . وما قيل في ذلك ، وهو أحسن ما قيل ، مع ما فيه من الاستطراد :

هب البـعث لم يأتنا نذره
وأن لظى النار لم تضـرم
أليس بكاف لذي فكرة

حياء المسيء من المنعم
ويقال إن أبابكر الخوارزمي⁽³³⁾ الشاعر المشهور قصد الصاحب ابن عباد⁽³⁴⁾
فأحسن نزله وأكرمه وأقام في نعمته مدّة ، ثم حين ارتحاله كتب بيتين وجعلهما في
مكان حيث يجلس الصاحب ، وهما :

لا تحمدن ابن عباد وإن هطلت
كفاه بالجدود حتى أخجل الديما
فإنها خطرات من وساوسه
يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرماً
فلما وقف عليهما الصاحب قال وقد بلغه موت الخوارزمي :
أقول لركب من خراسان أقبلوا
أما خوارزميكم ؟ قيل لي : نعم

(33) أبو بكر الخوارزمي (323-383هـ/935-993م) محمد بن العباس : من أئمة الكتاب العلماء ، وهو صاحب «الرسائل» المعروفة برسائل الخوارزمي ، وله ديوان شعر . ولد ونشأ في خوارزم ، ثم استوطن نيسابور وتوفي بها .

(34) الصاحب ابن عباد (326-385هـ/938-995م) إسماعيل بن عباد بن العباس الطالقاني ، وزير لدى البويهيين ، له تصانيف جليلة ، منها «المحيط» وكتاب «الوزراء» ، وكان من خصوم المتنبّي ، له «الكشف عن مساوئ شعر المتنبّي» .

فقلت اكتبوا بالخص من فوق قبره

ألا لعن الرحمن من يكفر النعم

وهذا بخلاف أبي طالب عبد السلام ابن الحسين المأموني⁽³⁵⁾ من أولاد المأمون ، وهو شاعر محسن ، أقبل على صاحب ابن عباد ، فرماه ندماء صاحب فسقطت منزلته عنده ، فقال قصيدة طلب فيها من صاحب الإذن بالرحيل ، ومن وداعها قوله :

أسير عنك ولي في كل جارحة

فم بشكرك يحوي منطقاً إربا

إني لأهوى مقامي في ذراك كما

تهوى يمينك في العافين أن تهبا

لكن لساني يهوى السير عنك لأن

يطبق الأرض مدحاً فيك منتخبا

أظنني قلت أهلي والأنام همو

إذا ترحلت عن مغناك مغتربا

ومن خصالهم أيضاً صرف الأموال في حظوظ النفس والشهوات الشيطانية واللهو واللعب ، فإنهم مسرفون غاية السرف . ثم إن الرجال عندهم عبيد النساء وتحت أمرهن ، سواء كنّ جميلات أم لا . قال بعضهم : إن النساء عند الهمل معدّات للذبح ، وعند بلاد الشرق كأمتعة البيوت ، وعند الإفرنج كالصغار المدلعين . قال الشاعر :

اعص النساء فتلك الطاعة الحسنة

فلن يسود فتى يعطي النساء رسنه

يعقنه عن كثير من فضائله

ولو سعى طالباً للعلم ألف سنة

(35) أبو طالب المأموني (؟-383هـ/؟-993م) : شاعر ، من العلماء بالأدب ، ولد وتعلم ببغداد . . . وكان

ولا يظن الإفرنج بنسائهم ظناً سيئاً أصلاً ، مع أن هفواتهن كثيرة معهم . فإن الإنسان ، ولو من أعيانهم ، قد يثبت له فجور زوجته ، فيهجرها بالكلية ، وينفصل عنها مدة العمر . والتفريق بينهما بهذه المثابة يكون عقب إقامة دعوى شرعية ، ومرافعة يثبت فيها الزوج دعواه بحجج قوية على رؤوس الأشهاد ، تتلوث فيها الذرية بالفضيحة ، وإن كانت بدون لعان ولا تعرض للأولاد . وهذا يقع كثيراً في العائلات الكبيرة والصغيرة ، ويشهد مجلس المرافعة الخاص العام ، فلا يعتبر الآخرون بذلك ، مع أنه ينبغي الاحتراس منهن ، كما قال الشاعر :

لا يكن ظنك إلا سيئاً

بالنساء إن كنت من أهل الفطن

ما رمى الإنسان في مهلكة

قط إلا ظنه الظن الحسن

ومن كلام بعض العرب العربا⁽³⁶⁾ خطاباً لزوجته : إن امرأ غرّ منكن واحدة بعدي وبعذك في الدنيا لمغرور . ومن الأمور المستحسنة في طباعهم الشبيهة حقيقة بطباع العرب ، عدم ميلهم إلى الأحداث والتشبيب فيها أصلاً ، فهذا أمر منسيّ الذكر عندهم ، تأباه طبيعتهم وأخلاقهم . فمن محاسن لسانهم وأشعارهم أنها تأبى تغزل الجنس في جنسه ، فلا يحسن في اللغة الفرنسية قول الرجل : «عشقت غلاماً» ، فإن هذا يكون من الكلام المنبوذ المشكل . فلذلك إذا ترجم أحدهم كتاباً من كتبنا ، يقلب الكلام إلى وجه آخر فيقول في ترجمة تلك الجملة : «عشقت غلاماً أو ذاتاً» ، ليتخلص من ذلك . فإنهم يرون هذا من فساد الأخلاق ، والحق معهم . وذلك أن أحد الجنسین له في غير جنسه خاصة من الخواص يميل إليها ، كخاصة المغناطيس في جذب الحديد مثلاً ، وكخاصة الكهرباء في جذب الأشياء ، ونحو ذلك . فإن اتحد الجنس انعدمت الخاصة ، وخرج عن الحالة الطبيعية . وهذا الأمر عندهم من أشدّ الفواحش ، حتى أنه قلما ذكروه صريحاً في كتبهم ، بل يكتون عنه بما أمكن ، ولا

(36) العربا (العرباء) : الصرحاء الخالص ، صفة العرب .

يسمح التحدّث به أصلاً . ويعجبني قول الشيخ عباس اليميني (37) :

كلفت بسعدى والرباب وزينب
ولم أعتبر أس العذار ولا مه
ولا اخترت تشبيهاً بأمرد مذهباً
وإن ذم طبعي من يراه ولا مه
وما حسنه عندي سوى في عجاجة
وحمل قناة كالشهاب ولا مه
ويغشى سفير الحرب ليس يصدّه
حنانيك عن ضرب الرقاب ولا مه

ومن خصالهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم ، كما تقدّم ، وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الإسلام من الغيرة بمثل المصاحبة والملاعبة والمسايرة . ومما قاله بعض أهل المجون الفرنساوية : « لا تغرّ بإباء امرأة إذا سألتها قضاء الوطر ، ولا تستدل بذلك على عفافها ، ولكن على كثرة تجربتها . » كيف ، والزنا عندهم من العيوب والردائل ، لا من الذنوب الأوائل ، خصوصاً في حق غير المتزوج . فكأن نساءهن مصداق قول بعض الحكماء : لا تغتر بامرأة ولا تثق بمال وإن كثر ؛ وقال آخر : النساء حبائل الشيطان ، وقال الشاعر (38) :

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن
جزوعاً إذا بانّت فسوف تبين
فإن هي أعطتك الليان فإنها
لآخر من طلابها ستلين
وإن حلفت لا ينقض النأي عندها
فليس لخصوب البنان يمين

(37) لم يرد اسم هذا الشاعر في (الأعلام) للزركلي ، ولا في الموسوعة الشعرية .

(38) هذه الأبيات تنسب لعلي بن أبي طالب ، لكنها لا تتفق مع صدر الإسلام لا لغة ولا دلالة ، وإنما

وبالجملة ، فهذه المدينة كباقي مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة ، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والاختلالات ، وإن كانت مدينة باريس من أحكم سائر بلاد الدنيا ، وديار العلوم البرآنية ، وأثينة الفرنساوية . وقد قابلتها ، فيما تقدّم نوع مقابلة ، بأثينة أي مدينة حكماء اليونان . ثم رأيت بعض أهل الأدب من الفرنساوية قال ما معناه : «إن الباريزيين أشبه الناس بأهل أثينة ، أو هم أثينيو هذا الزمان ؛ فإن عقولهم رومانية ، وطباعهم يونانية .» وقد أسلفنا أن الفرنساوية من الفرق التي تعتبر التحسين والتقبيح العقليين . وأقول هنا : إنهم ينكرون خوارق العادات ، ويعتقدون أنه لا يمكن أن تخالف الأمور الطبيعية أصلاً ؛ وأن الأديان إنما جاءت لتدل الإنسان على فعل الخير واجتناب ضده ؛ وأن عمارة البلاد وتطرّق الناس وتقدّمهم في الآداب والظرافة تسدّ مسدّ الأديان ؛ وأن الممالك العامرة تصنع فيها الأمور السياسية كالأمر الشرعية . ومن عقائدهم القبيحة قولهم إن عقول حكمائهم وطبائعيهم أعظم من عقول الأنبياء وأذكى منها . ولهم كثير من العقائد الشنيعة ، كإنكار بعضهم القضاء والقدر ، مع أن من الحكم العاقل من يصدّق بالقضاء ، ويأخذ بالحزم في سائر الأشياء . وإن كان لا ينبغي للإنسان أن يحيل الأشياء على المقادير أو يحتج بها قبل الوقوع . فإن من الأمثال التي سارت بها الركبان : من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير . ومن كلام بعضهم : إذا وقعت المجادلة فالسكوت أفضل من الكلام ، وإذا وقعت المحاربة فالتدبير أفضل من التقدير . ومنهم جماعة يعتقدون أن الله تعالى خلق الخلق ونظمهم نظاماً عجيباً فرغ منه ، ثم لا يزال يلاحظهم بصفة له تعالى تسمى صفة العناية والحفظ ، تتعلق بالممكنات إجمالاً ، بمعنى أنها تمنعها من خلل انتظام الملك . وسنذكر بعض عقائدهم في غير هذا المحل . ثم إن لون أهل باريس البياض المشرب بالحمرة ، وقل وجود السمرة في أهلها المتأصلين بها . وإنما ندر ذلك لأنهم لا يزوّجون عادة الزنجية للأبيض أو بالعكس ، محافظة على عدم الاختلاط في اللون حتى لا يكون عندهم ابن أمة . قال الشاعر :

في الهند طيـــــر ناطق
سبحان مولى الأــــمه

يقول في تغريده
ابن الأمة ما الأمة⁽³⁹⁾

بل لا يعدّون أنه قد يكون للزنج جمال أصلاً ، بل لون السواد عندهم من صفات
القبح ، فليس لهم في المحبة مذهبان ، ولا يحسن عندهم قول الشاعر في غلام أسود :

فيه معنى من البدور ولكن
نفضت صبغها عليه الليالي
لم يشنك السواد بل زدت حسناً

إنما يلبس لسواد الموالي
بل لسان حالهم دائماً ينشد قول الآخر :

ألا إن عندي عاشق السمر غالط
وإن الملاح الببيض أبهى وأبهج
وإني لأهوى كل بيضاء غادة
يضيء لها وجهه وثغر مفلج
وحسبي أن اتبع الحق في الهوى
ولا شك أن الحق أبيض أبلج

على أنه لا يحسن عند الفرنسيّة استخدام جارية سوداء في الطبخ ونحوه ، لما
ركز في أذهانهم أن السودان عارون عن النظافة اللازمة . ونساء الفرنسيّة بارعات
الجمال واللطافة ، حسان المسيرة والملاطفة ، يتبرّجن دائماً بالزينة ، ويختلطن مع
الرجال في المنزهات ، وربما حدث التعارف بينهم وبين بعض الرجال في تلك الحال ،
سواء الأحرار وغيرهنّ ، خصوصاً يوم الأحد الذي هو عيد النصرى ويوم بطالتهم ،
وليلة الاثنين في البالات والمراقص الآتي ذكرها . ويحسن قول بعضهم شعراً :

والراقصات وقد مالت ذوائبها
على خصور كأوساط الزنابير

(39) هذا المنطق ينكره الإسلام ، بغض النظر عن اختلال الوزن . لا أدري كيف غفل الشيخ رفاعة عن

الآية (221) من سورة البقرة !

يخفي الردا سقمها عنا فيفضحها

(40) عقد البنود وشدات الزنانير

وما قيل إن باريس جنة النساء ، وأعراف الرجال ، وجحيم الخيل . وذلك أن النساء بها منعمات ، سواء بما لهنّ أو بجمالهنّ ؛ وأما الرجال فإنهم ، بين هؤلاء وهؤلاء ، عبيد النساء ، فإن الإنسان يحرم نفسه وينزه عشيقته ؛ وأما الخيل فإنها تجرّ العربات ليلاً ونهاراً على أحجار أرض باريس ، خصوصاً إذا كانت المستأجرة للعربة امرأة جميلة ، فإن العربيّ يجهد خيله ليوصلها إلى مقصدها عاجلاً ، فالخيل دائماً معذبة بهذه المدينة . وحيث إن باريس من بلاد الفرنسيين ، فمعلوم أن لسان أهلها هو اللسان الفرنسي . ولنذكر هنا نبذة من ذلك فنقول : اعلم أن اللسان الفرنسي من الإفرنجية المستحدثة ، وهو لسان الغلوية يعني قداماء الفرنسيين ، ثم كمل من اللغة اللاتينية ، وأضيف إليه شيء من اللغة اليونانية والنمساوية ويسير من اللغة الصقلية⁽⁴¹⁾ وغيرها . ثم حين برع الفرنسيون في العلوم ، نقلوا كلمات العلوم من لغات أهلها . وأكثر الكلمات الاصطلاحية يونانية ، حتى كان لسانهم من أشبع الألسن وأوسعها ، بالنسبة لكثرة الكلمات غير المترادفة ، لا بتلاعب العبارات والتصرف فيها ، ولا بالمحسنات البديعية المعنوية . وربما عدّ ما يكون من المحسنات في العربية ركافة عند الفرنسيين ، مثلاً ، لا تكون التورية من المحسنات الجيدة الاستعمال إلا نادراً . فإن كانت ، فهي من هزليات أدبائهم ، وكذلك مثل الجناس التام والناقص ، فإنه لا معنى له عندهم . وتذهب ظرافة ما يترجم إليهم من العربية بما يكون مزينا بذلك ، مثل قول صاحب البديعية⁽⁴²⁾ :

من العقيق ومن تذكار ذي سلم

براعة العين في استهلالها بدم

(40) الشاعر صفى الدين الحلبي (675-750هـ/1276-1349م) : عبد العزيز بن سرايا بن علي السنبسي

الطائي ، ولد في الحلة وتوفي في بغداد . وتنقل في حياته بين الشام ومصر وماردين .

(41) لعل الصحيح (الصقلية) أي لغة الصقلية ، وهم الشعوب السلافية .

(42) يقصد المؤلف نفسه .

ومن أهل النقى تم النقى وبدا
تناقص الجسم من ضرّ ومن ضرّم
ولا يمكن أن ينقل إلى لغاتهم ماقلته في نظم مصطلح الحديث :
صحيح جسمي من فرط الجوى عضلاً
ومرسل الدمع من عيني قد اتصلا
تواترت قصتي في الناس قاطبة
حتى لضعفي رثى لي كل من عدلا
تعنن السحب عن عيني روايتها
كما يسلسل عنها القطر إذ هملا
رفعت أمري إلى قاضي الهوى فأبى
وقال مالي على هذا المليح ولا
يا قلب صبراً على ما فيك من علل
ولا تشذ وتجزع واترك المللا
ودع بقية ما أبقاه من رmq
لديه لا تعتبر تعنيف من عدلا
فذاك لاح وبالتدليس مشتهر
وقوله منكر زور وما قبلا
إلى آخر قولي فيها :

وقفت حبي عليه لا يجاوزه
وهكذا شأن صب في الهوى كملا

وسياتي تتميم الكلام على ذلك . وبالجملّة ، فلكل لسان اصطلاح ، واصطلاح
اللغة الفرنسية تقليل التصريف ما أمكن ، وتصريف الفعل مع فعل آخر . مثلاً ، إذا
أراد الإنسان أن يخبر بأنه أكل فإنه يقول : أملك مأكولاً ، يعني فلا يمكن تصريف
أكل في بعض أحوال ، إلّا مع فعل الملك أو التلبس ، فكأنه يقول تلبست بالأكل .
وإذا أراد أن يقول : خرجت ، يقول : أنا أكون مخرجاً ، يعني خرجت ، وهكذا .
ويسمى فعل الملك وفعل الكينونة فعلين مساعدين ، يعني أنهما يعينان على تصريف

الأفعال ، ويتجردان عن معناهما الأصليّ . وإذا أرادوا تعدية الفعل ، قالوا : فعلت له الأكل يعني جعلته يأكل أو أكلته ، وفعلت له الخروج يعني أخرجته وهكذا ، فلا يمكنهم تصريف الأفعال ، كما يمكن في اللغة العربية . فلذلك كانت لغتهم ضيقة من هذه الحيثية . ثم إن قواعد اللسان الفرنسيّ ، وفن تركيب كلماته وكتابتها وقراءتها يسمى غراماتيقي وأغرمير (بتشديد الميم عند الفرنسيين) ومعناه فن تركيب الكلام من لغة من اللغات . فكأنه يقول فن النحو ، فدخل فيه سائر ما يتعلق باللغة ، كما نقول نحن علوم العربية ، ونريد بها الاثني عشر علماً المجموعة في قول شيخنا العطار :

نحو وصرف عروض بعده لغة

ثم اشتقاق قريض الشعر إنشاء

كذا المعاني بيان الخط قافية

تاريخ هذا لعلم العرب إحصاء

وبعضهم زاد البديع ، وآخر استحسن زيادة التجويد . وبالجملّة ، فباب الزيادة والنقص فيها مفتوح ، إذ حصرها وتقسيمها في ذلك جعلني⁽⁴³⁾ لا حصريّ . والظاهر أن هذه العلوم جديدة بأن تسمى مباحث علم العربية فقط . كيف يكون كل من الشعر والقريض والقافية علماً مستقلاً برأسه ، وكل من النحو والصرف والاشتقاق علماً برأسه؟ وانظر ، ما المراد بالتاريخ وبكونه من العلوم العربية ، مع أنّ أوّل من ألف فيه علماء اليونان ، وأوّل ما ظهر في هذا الفن كتب اوميروس في واقعة تروادة⁽⁴⁴⁾ ، ولم تؤلف فيه العرب إلّا في الأزمنة الأخيرة . اللهم إلّا أن يكون المراد بالتاريخ طريقة إنشاء تواريخ الحوادث السنوية ، على أسلوب حساب الجُمْل⁽⁴⁵⁾ ، فيكون أيضاً تسميته علماً من قبيل التوسع في تعريف العلم . وعلم الخط قديم أيضاً ، فالإفرنج يدخلون هذه المباحث في علم تركيب الكلام ، بل ويعدّون منه المنطق والوضع والمناظرة . ثم إن اللغة الفرنسيّة ، كغيرها من اللغات الإفرنجيّة ، لها اصطلاح خاص

(43) جعلني : تقديري ، تصوري .

(44) الإلياذة لهوميروس لا تعد تاريخاً ، وإن استندت في موضوعها إلى حرب طروادة .

(45) حساب الحروف الهجائية : أبجد ، هوز ، حطي . الخ ، وخاصة في نظم التواريخ .

بها ، وعليه ينبنى نحوها وصرفها وعروضها وقوافيها وبيانها وخطها وإنشاؤها ومعانيها ؛ وهذا ما يسمى أغرماتيقى . فحينئذ ، سائر اللغات ذات القواعد ، لها فن يجمع قواعدها ، سواء كانت لدفع الخطأ في القراءة أو الكتابة فيها أو لتحسينها . فحينئذ ، ليست اللغة العربية هي المقصورة على ذلك ، بل كل لغة من اللغات يوجد فيها ذلك . نعم اللغة العربية أفصح اللغات وأعظمها وأوسعها وأحلاها على السمع . فحينئذ ، العالم باللغة اللاتينية يعرف سائر ما يتعلق بها ، فله إدراك في النحو في حد ذاته وفي غيره كالصرف . فمن الجهل أن يقال إنه لا يعرف شيئاً ، بدليل جهله باللغة العربية . وإذا تبحر الإنسان في لغة من اللغات كان عالماً باللغة الأخرى بالقوة ، يعني أنه لو ترجم له ما في اللغة الأخرى وعبر له عنه ، كان قابلاً لتلقيه ومقابلته بلغته . بل ربما كان يعرفه من قبل ويعرف زيادة عليه ، ويبحث فيه ويبطل منه ما لا يقبله العقل ؛ كيف والعلم هو الملكة . وحينئذ ، فقد لا يعرف الإنسان المطولات باللغة العربية ، ويعرف ذلك باللغة الفرنسية لو ترجم له ، على أن كل لغة مخدومة فلها مطولها وأطولها وسعدها . نعم ، ليس كل مائع ماء ، ولا كل سقف سماء ، ولا كل بيت بيت الله ، ولا كل محمد رسول الله ؛ وكما قال الشاعر :

وهيهات ما كل النسيم حجازياً
ولا كل نور يبهج الشرق والغربا

وقال آخر :

وما كل مخضوب البنان بثينة
ولا كل مسلوب الفؤاد جميل
فلا شك أن لسان العرب هو أعظم اللغات وأبهج ، وهل ذهب صرف يحاكيه بهرج ؟ ولله در من قال :

يليق الخطاب اليعربي بأهله
فيهدي الوفا للنقص والحسن للقيح
ومن شرف الأعراب أن محمداً
أتى عربي الأصل من عرب فصيح

وأن المثاني أنزلت بلسانه

بما خصصته في الخطاب من المدح

ومع ما يترأى أن الأعجام لا تفهم لغة العرب ، إذا لم تحسن التكلم بها كالعرب ، فهذا لا أصل له . وما يدل ذلك ، أني اجتمعت في باريس بفاضل من فضلاء فرنسا ، شهير في بلاد الإفرنج بمعرفة اللغات الشرقية ، خصوصاً اللغة العربية والفارسية ، يسمى البارون سلوستري دساسي . وهو من أكابر باريس ، وأحد أعضاء جملة جمعيات من علماء فرنسا وغيرها . وقد انتشرت تراجمه في باريس ، وشاع فضله في اللغة العربية ، حتى إنه لخص شرحاً للمقامات الحريرية وسماه مختار الشروح . وقد تعلم اللغة العربية على ما قيل بقوة فهمه وذكاء عقله وغزارة علمه ، لا بواسطة معلم إلا في مبدأ أمره . ولم يحضر مثل الشيخ خالد ، فضلاً عن حضور المغني ، مع أنه يمكنه قراءة المغني . كيف ، وقد درّس البيضاوي عدة مرّات ، غير أنه حين يقرأ ينطق كالعجم ، ولا يمكنه أن يتكلم بالعربية إلا إذا كان بيده الكتاب . فإذا أراد شرح عبارة ، أغرب في الألفاظ التي يتعذر عليه تصحيح نطقها . ولندكر لك خطبته في شرحه لمقامات الحريري ، لتعرف نفسه في التأليف وقلم عبارته . فإنه بليغ ، وإن كان به يسير من الركاسة . وسبب ذلك أنه تمكن من قواعد الألسن الإفرنجية ، فلذلك مالت إليها عبارته في العربية . قال في طالعة شرحه التي حاول فيها الجري على نهج دينه ودين الإسلام ، من غير أن يغبن أحدهما :

«بسم الله المبدئ المعيد ، الحمد لله العالي المتعالي ، الذي له الأسماء الحسنى ، ولا يخالط صفاته - عز وجل - من صفات المخلوق شيء أقصى ولا أدنى ، العليم الذي ليس لعلمه نهاية ، والحكم الحكيم الذي حكمه وحكمته وراء كل حدّ وغاية ، لا يحصر لاهوت وجوده زمان ومكان ، ولا يشوب صفاء جبروته شائبة زيادة ولا نقصان ، مسبب الأسباب الذي لا يتحرك في أطراف الأرض والسماء متحرك إلا بقدرته وإرادته ، ولا يتكلم في أكتاف الآفاق متكلم إلا بإلهامه وإفادته . أحمده حمد من اعترف بتقصير فهمه وضعف عقله فهداه برحمته وتوفيقه إلى تحصيل بعض العلوم والفنون . وأشكر له شكر من كان يخبط في ظلام الجهل فأخرجه برأفته وتأييده إلى فضاء الرشd ونور التمييز حتى عرف الحق اليقين من أباطيل الظنون . ثم

أتوسل إليه سبحانه وتعالى بأنبيائه المرسلين ، وأوليائه المقربين ، الذين كل واحد منهم كالغرة على جبهة الدهر ، وكالتاج على مفرق العصر . وأسأله - عز وجل - أن يجعلني من عباده المهتدين ، الذين أنعم عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، إنه على كل شيء قدير ، وبإجابة هذا الدعاء جدير . أما بعد ، لما فضل الله جنس الناس على سائر المبتدعات بفوائد الإفهام ، واختص بني آدم من بين أصناف الحيوانات بكرامة الكلام ، بعث في كل أمة من الأمم من يكون في تمهيد قواعد البلاغة واستنباط أحكام شريعته معروفاً مشهوراً ، ويصير لسالك طريق الفصاحة إماماً ودستوراً . فمن اشتهر بذلك بين الأنام ، وصار المشار إليه في هذا الباب عند أهل الإسلام ، مؤلف المقامات المشهور بالحريري . وهو الشيخ الإمام أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان البصري ، الذي ازدرى من كان قبله من الأدباء والفصحاء ، وأجهد من جاء بعده من الظرفاء والبلغاء . فإني لما رأيت أن كتابه المذكور ، لم يزل مذكوراً إلى يومنا هذا لعلم الأدب كالعلم المشهور ، يحسبه الخاصة والعامة واسطة عقده ، وخلصة نقده ، ويعتقدونه نور مصباحه ، وضياء صباحه ، بل لا يشك أحد منهم أنه أزهار بستانه ، وأثمار جناته ، وزلال مائه ، ونسيم هوائه ، أحببت أن أشرحه شرحاً متوسطاً بين الإيجاز والتطويل ، أكشف الغطاء عن مشكلاته ومجملاته بالتفسير والتفصيل ، وقد شرح المقامات الحريرية من علماء المشرق والمغرب كثير ، وذكرهم الحاج خليفة في كتابه المسمى كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، وما وصل يدي إليه من مؤلفاتهم شروح أربعة : منها ، غريب الإيضاح في غريب المقامات الحريرية للإمام برهان الدين أبي الفتح ناصر ابن عبد السيد المطرزي الخوارزمي المتوفى سنة عشر وستمائة . هذا الشرح ، مع وجازته ، كتاب مفيد محصل للمقصود . والمطرزي كانت له معرفة تامة بالنحو واللغة والشعر وأنواع الأدب ، وهو صاحب كتاب المغرب ، تكلم فيه على الألفاظ التي يستعملها الفقهاء من الغريب . ومنها ، كتاب شرح ما غمض من الألفاظ اللغوية من المقامات الحريرية ، تأليف الشيخ محب الدين عبد الله بن الحسين العكبري البغدادي المتوفى سنة عشرة وستمائة . قال إني رأيت المقامات الحريرية مشحونة بالألفاظ اللغوية ، وهي أحد الكتب التي عني بها علماء العربية ، ودعاني ذلك إلى تفسير ما غمض من ألفاظها

على الإيجاز . وقد كنت عثرت لبعض الناس على شيء من ذلك ، إلا أنه أسهب بما لا يحتاج إليه ، وربما فسر اللفظة بغير ما قصد منشيها . ومنها ، شرح المقامات للأستاذ اللغوي النحوي أبي العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القسي الشريشي المتوفى سنة تسعة عشر وستمائة . وهو شرح طويل ، ذكر الشريشي أنه لم يترك في كتاب من شروح المقامات فائدة إلا استخرجها ، ولا عائدة إلا استدرجها ، ولا نكتة إلا علقها ، ولا غريبة إلا استلحقها ، حتى صار شرحه تأليفاً في المقامات يغني عن كل شرح تقدم فيها ، ولا يحوج إلى سواء في لفظة من ألفاظها ولا معنى من معانيها . وقد أخذ شيئاً كثيراً من شرح أبي ظفر الصقلي ، صاحب كتاب سلوان المطاع في عدوان الاتساع المتوفى بمدينة حماة سنة خمس وستين وخمسائة ومن شرح القندهجي ، وهو الشيخ الإمام تاج الدين أبو سعيد محمد ابن سعادات عبد الرحمن بن محمد الخراساني المروزي القندهجي ، وقيل البندهجي الصوفي المتوفى بمدينة دمشق سنة أربعة وثمانين وخمسائة . ومنها ، شرح آخر تأليف الشيخ شمس الدين أبي بكر محمد بن أبي بكر الرازي صاحب أسئلة القرآن ومختار الصحاح المتوفى بعد سنة ستين وستمائة . وهذا الشرح لم يذكره الحاج خليفة في كتابه المذكور ، وهو شرح لطيف يشهد لصاحبه بكمال الأدب ، إلا أن النسخة التي هي في ملكي نسخة ناقصة ، سقط منها نحو نصف الكتاب حتى لم يبق إلا شرح الخطبة . ثم شرح المقامة الخامسة والعشرين آخذاً من قول الحريري «واني والله طالما تلقيت الشتاء بكافاته . . .» إلى آخرها ، وشرح ما يتلوها من المقامات إلى قوله في المقامة الخمسين : «ولم تزل معتكفاً ، على القبيح الشنيع .»

هذا ما كان لي من شروح المقامات ، وقد اجتمع عندي أيضاً نسخ ست من كتاب المقامات بلا شرح ، غير أن أكثرها يوجد به من التعليقات والحواشي ما ينتفع به القارئ . وقد اخترت من تلك الشروح والحواشي كل ما يحتاج إليه طالب العلم في تحصيل المقصود ، ويستعين به الراغب في الأدب على إدراك المطلوب . ثم أضفت إلى ذلك شيئاً كثيراً ، نقلته من كتب أئمة النحو واللغة ، ومن مجمع الأمثال للعلامة الميداني ، وكتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ، ثم من ديوان البحري ، ومن ديوان المتنبي ، وشرح المعلقات للوزني ، وغير هذا من كتب الأدب .

كل ذلك ليتيسر على من أعجبه الغوص في بحار اللغات العربية أن يظفر من دررها بكل يتيمة عقلية ، وليسهل على المولع بغرائب العلوم الأدبية المشرقية أن يصل من جواهر معادنها إلى كل فلذة ثمينة جزيلة . وإنما المرجو من نظر في هذا الشرح المختار أن لا يؤاخذني على ما ظهر عليه من العثرات ، بل أن يستر بذيل كرمه ما استبان له من العورات . والله أسأله أن يجعل هذا الكتاب لمن تصفحه من أهل الشرق والغرب نافعاً مفيداً ، ولجميع من أسرع إلى مورده من أبناء جنسنا ومن غير جنسنا هنيئاً مريئاً حميداً .»

وقال في المقدمة الفرنساوية لهذا الكتاب : «إن المقامات البديعية تفضل المقامات الحريية» . وقد ترجم إلى الفرنساوية عدة مقامات من الاثنين في مجموعة كتاب (الأنيس المفيد للطلاب المستفيد) و(جامع الشذور من منظوم ومنثور) . وبالجملة ، فمعرفة خصوصاً في اللغة العربية مشهورة ، مع أنه لا يمكنه أن يتكلم بالعربي إلا بغاية الصعوبة . وقد رأيت له في بعض كتب توقفات عظيمة ، وإيرادات جلية ، ومناقضات قوية . وله اطلاع عظيم على الكتب العلمية المؤلفة في سائر اللغات . وسبب ذلك كله تمكنه من لغته بالكلية ، ثم تفرغه بعد ذلك لمعرفة اللغات . شعر :

العلم لا يدرك بالتـمـني
عليك بالتكرار والتـأني
كم أعـجـمـي الكـن أـخـن
أدرك بالتكرار كل فن

ومن جملة مؤلفاته الدالة على فضله ، كتاب في النحو سماه (التحفة السنية في علم العربية) فإنه ذكر فيه علم النحو على ترتيب عجيب ، لم يسبق به أبداً . وله مجموع سماه (المختار من كتب أئمة التفسير والعربية في كشف الغطاء عن غوامض الاصطلاحات النحوية واللغوية) فقد جمعه وترجمه من العربية إلى الفرنساوية . وله غير ذلك من المؤلفات والتراجم ، خصوصاً في اللغة الفارسية ، فإنه بارع فيها غاية البراعة . وشهرته بالفضل في بلاد الإفرنج لا تنكر ، حتى إنه قد أتحف بعلامات الشرف من كبار ملوكهم . واتساع دائرة هذا الخبر في معرفة أهل المشرق والمغرب القديمة والحديثة ، بما يسهل تصديق ما قيل في حق الفارابي فيلسوف الإسلام ، من

أنه كان يحسن سبعين لساناً . ولنذكر ترجمته هنا مراعاة للنظير ، فنقول هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ التركيّ الفارابيّ الحكيم الفيلسوف ، فيلسوف الإسلام الماهر الباهر ، قدم على سيف الدولة ابن حمدان ، وكان مجلسه مجمع الفضلاء في جميع العلوم ، فأدخل عليه وهو يزي الأتراك ، وكان ذلك عادته فوقف بين يديه ، فقال له سيف الدولة : اجلس . فقال : حيث أنت أو حيث أنا؟ فقال : حيث أنت . فتخطى رقاب الناس حتى انتهى إلى مجلس سيف الدولة وزاحمه في مسنده حتى أخرجه عنه . وكان على رأس سيف الدولة بماليك ، وله معهم لسان يشير إليهم به قل أن يعرفه أحد ، فقال لهم بذلك اللسان : إن هذا الشيخ قد أساء الأدب ، وإني مسأله عن أشياء ، إن لم يعرف بها فأخرجوه . فقال له أبو نصر بذلك اللسان : أيها الأمير ، اصبر فإن الأمور بعواقبها . فتعجب سيف الدولة منه ، وقال له : أحسن هذا اللسان؟ فقال : نعم ، أحسن أكثر من سبعين لساناً . فعظم عنده . ثم أخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين في المجلس في كل فن ولم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل ، وبقي يتكلم وحده . ثم أخذوا يكتبون ما يقول ، فصرفهم سيف الدولة وخلا به ، فقال له : هل لك في أن تأكل؟ قال : لا . قال : فهل تشرب؟ قال : لا . قال : فهل تسمع؟ قال : نعم . فأمر سيف الدولة بإحضار القيان ، فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بأنواع الملاهي ، فلم يحرك أحد منهم آتة إلا عابه أبو نصر وقال له : أخطأت . فقال له سيف الدولة : فهل تحسن في هذه الصنعة شيئاً؟ قال : نعم . ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها ، وأخرج منها عيداناً فركبها ، ثم لعب بها فضحك كل من في المجلس . ثم فكها وركبها ، فلعب بها فنام كل من في المجلس حتى البواب فتركهم نياماً وخرج . وكان منفرداً بنفسه لا يجالس الناس . وكان مدة مقامه بدمشق لا يكون غالباً إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك أشجار ورياض ، يؤلف هناك كتبه وينتابه المشتغلون عليه . وكان يلزم غياض السفرجل . وربما صنف هناك ، وقد ينام فتحمل الريح تلك الأوراق وتنقلها من مكان إلى مكان . قيل ، وهو السبب في نقص بعض مصنعاته ، فإنه كان يصنف في الرقاع دون الكرايس . وكان أزهّد الناس في الدنيا ، متقللاً منها . أجرى عليه سيف الدولة في كل يوم أربعة دراهم . ومن شعره :

لما رأيت الزمان نكسا
وليس في الصحبة انتفاع
كل رئيس به مــــلال
وكل رأس به صــــداع
لزمت بيتي وصنت عرضاً
به من العزة اقتناع
أشرب مما اقتنيت راحا
لها على راحتي شعاع
لي من قــــواريرها ندامى
ومن قــــراقيرها سماع
وأجــتني من علوم قــــوم
قد أقفرت منهم البقاع

ومنه :

أخي خلّ حــــيز ذي باطل
وكن بالحقائق في حــــيز
فما الدار دار مقام لنا
ولا المرء في الأرض بالمعجز
ينافس هذا الهــــذا على
أقل من الكلم الموجــــز
وهل نحن إلّا خطوط وقــــم
من في نقطة وقع مستوفز
محيط العوالم أولى بنا
فإن التــــزاحم في المرك

توفي أبو نصر الفارابي سنة 339 من الهجرة .

ثم إن الفنون باللغة الفرنسية قد بلغت درجة أوجها ، حتى إن كل علم فيه قاموس مرتب على حروف المعجم في ألفاظ العلم الاصطلاحية ، حتى علوم السوقه ،

فإنها لها مدارس كمدرسة الطباعة ، يعني مجلس علماء الطباعة وشعرائها ، وإن كان هذا من أنواع الهوس ، غير أنه يدل على اعتناء هذه البلاد بتحقيق سائر الأشياء ، ولو الدنيئة . وسواء في ذلك الذكور والإناث ، فإن للنساء تأليف عظيمة ، ومنهن مترجمات للكتب من لغة إلى أخرى ، مع حسن العبارات وسبكها وجودتها ، ومنهن من يتمثل بإنشائها ومراسلاتها المستغربة . ومن هنا يظهر لك أن قول بعض أرباب الأمثال «جمال المرء عقله وجمال المرأة لسانها» لا يليق بتلك البلاد ، فإنه يسأل فيها عن عقل المرأة وقريحتها وفهمها وعن معرفتها . ثم العلوم الأدبية الفرنسية لا بأس بها ، ولكن لغتها وأشعارها مبنية على عادة جاهلية اليونان وتأليفهم ما يستحسنونه ، فيقولون مثلاً ، إله الجمال وإله العشق وإله كذا . فألفاظهم في بعض الأحيان كفرية صريحة ، وإن كانوا لا يعتقدون ما يقولون ، وإنما هذا من باب التمثيل ونحوه . وبالجملة ، فكثير من الأشعار الفرنسية لا بأس به . ولندكر لك شيئاً من بعض أشعارهم مترجمة من كلام بعضهم للعبد الفقير :

وإذا القلوب تعلقت
رأت الجميع جميلاً
كسفينة تسعى إلى
شعب يكون مهولاً
له في على زمن الهنا
إن صح كان بخيلاً

وقوله مترجماً لي :

ودع القلب فيك يا قاتلي
يا خيال المسعد الزائر
إن روحي بالجراح اصطلت
وعلى البرء لست بالقادر
وسروري في الهوى لمحمة
مثل زهر الورق الزاهر

ومن القصيدة المسماة نظم العقود في كسر العود للخواجة يعقوب المصري منشأ
الفرنساوي استيطاناً ، وقد اعتنيت بترجمتها سنة ألف ومائتين واثنين وأربعين
وأخرجتها من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام ، قول صاحبها ونظمه للعبد الفقير :

زادني الحال إذ صفا لي حاني
وغنائي بالعود والألحان
باسم ربي والسادة الأعيان
وترنمت شجوة بالحسان
ويسعدي ذات الجبين المفدى
فصغى سمعها إلى إنشادي
ورمى النار لحظها في فؤادي
فلهذا شعري غدا في اتقاد
وبدا من حماسه في انفراد
لذوي الفهم والمعارف يهدى
أحرق العشق قلبها كاحترافي
فأنت تطفئ اللظى بالعناق
فتضامنا ضمة المشتاق
وتلائمنا عادة العشاق
فتنت لتخجل الغصن قدأ
شنف السمع من رقيق التغاني
واستمع يا أخي صوت المثاني
يا خليلي بالله هلا تراني
إنني قد أحييت شعر ابن هاني⁽⁴⁶⁾
بعد أن كان قد توسد لحدا

(46) هو ابن هاني الأندلسي (?-362هـ / ?-973م) الشاعر المشهور . كان يساويه أهل المغرب بالمتنبي في

وبعد هذا بعدة أبيات ، تخلص الشاعر إلى ذم العشق وتوابعه فقال :

واحيائي واخجلتي صار فني
أنني في هوى الملاح أغني
برخيم الغنا كظبي أغن
وبأوتاري أبــــــتــــدي وأثنني
ما أرى هذا للفضائل أجدي
أفأيامي كلها لي عقيمة
أو ما لي عواقب مستقيمة
بل على طاعة الهوى مستديمة
أفما هذه مراق ذميمة
أقتني هزلها وأرفض جداً
أعليّ احتساء كأس نصيب
خامل غير كافل لأريب
مع أني والله غير مريب
همتي همه الذكيّ النجيب
تقنص المجد والسوا تتعدى

وقال يذم نفسه ويوبخها على العزم على فراق محبوبته ، لا سيما وهي تتأذى من فراقه :

ويح عز وسؤدد نشتره
بنواح الملاح إذ نشتهيه
يا فؤادي سل عند أي فقيه
يغفر الذنب من قتال بتيه
لنوال الفخار علك تهدي
يا فؤادي قد أسلمتك الأمورا
وأباحتك متجراً لن يبورا

أفترضني على الظبا أن تجورا
لست ألفيك أسفاً مقهورا
حيث قدّيت قلبها الآن قدا
ومن جملة قوله في مدح أفندينا ، حفظه الله ، مخاطباً لمصر في هذه القصيدة :
بسياسات فيك أضحى كفيلا
بيد دانت من مضى التقبيل
جددت في جبينك الإكليلا
نضرت غصناً فيك حاز ذبولا
وأعادت فيه الشبيبة ودا
وقال فيها مخاطباً لوليّ النعمة حفظه الله تعالى ، مشيراً إلى واقعة المماليك :
فعلك الخير بعده حسن ذكر
مستمرّ على مدى كل دهر
فاغتتم حفظ مشتهى نيل مصر
فلقد شابه دما سيف نصر
وغدا في حماك ينفق رفدا

وهذه القصيدة ، كغيرها من الأشعار المترجمة من اللغة الفرنسية ، عالية النفس في أصلها ، ولكن في الترجمة تذهب بلاغتها فلا تظهر علوّ نفس صاحبها . ومثل ذلك لطائف القصائد العربية ، فإنه لا يمكن ترجمتها إلى غالب اللغات الإفرنجية من غير أن يذهب حسنهما ، بل ربما صارت باردة . وسيأتي تتميم الكلام على غالب الآداب الفرنسية والعلوم والفنون .

الفصل الثالث

في تدبير الدولة الفرنسية

ولنكشف الغطاء عن تدبير الفرنسية ونستوفي غالب أحكامهم ، ليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر ، فنقول : قد سلف لنا أن باريس هي كرسيّ بلاد الفرنسيين ،

وهي محل إقامة ملك فرنسا وأقاربه وعائلته المسماة البريون (بضم الباء الموحدة وسكون الراء وبضم الباء الثانية) فلا يكون ملك فرنسا إلا من هذه العائلة . وملكة الفرنساوية متوارثة ، ومسكن ملك فرنسا سراية تسمى التولري (بضم التاء وكسر الواو وكسر الراء) والغالب أن الفرنساوية يعبرون عن ديوان فرنسا بقولهم «كابينه التولري» يعني ديوان هذه السراية ، أي ديوان الملك . ثم إن أصل القوة في تدبير المملكة لملك فرنسا ، ثم للجماعة أهل شمبردو بير (بفتح الشين وسكون الميم) يعني ديوان البير (بفتح الموحدة) أي أهل المشورة الأولى ، ثم لديوان رسل العملات ، ثم إن الديوان الأول يعني ديوان البير هو في قصر بباريس يسمى قصر لقسمبورغ ، والديوان الثاني في قصر بوربون ، ثم يلي ديوان رسل العملات ديوان الوزراء والوكلاء ، ثم ديوان يسمى الديوان الخصوصي ، وبعد ذلك يوجد ديوان سرّ الملك ، وديوان يسمى ديوان الدولة للمشورة . فحينئذ ملك فرنسا صاحب قوة تامة في مملكته ، بشرط رضا تلك الدواوين المذكورة . وله خصوصيات أخر سيأتي ذكرها في السياسة الفرنساوية ، ووظيفة أهل ديوان البير تجديد قانون مفقود أو إبقاء قانون موجود على حاله . ويسمى القانون عند الفرنساوية شريعة ، فلذلك يقولون شريعة الملك الفلاني . ومن وظيفة ديوان البير أن يعضد حقوق تاج المملكة ويحامي عنه ، ويمنع سائر من يتعرض لها . وانعقاد هذا الديوان يكون مدة معلومة من السنة ، في زمن اجتماع ديوان رسل العملات ، بإذن ملك الفرنسيين . وعدد أهل ذلك الديوان غير منحصر في عدة مخصوصة ، ولا يقبل دخول الإنسان فيه إلا وهو ابن خمس وعشرين سنة . ولا يشترك في الشورى إلا وهو ابن ثلاثين سنة ، ما لم يكن من بيت المملكة . وإلا ، فبمجرد ولادته يحسب من أهل هذا الديوان ويشترك في المشورة حين يبلغ عمره خمساً وعشرين سنة . وكانت وظيفة البيرية متوارثة للذكور ، فيقدم أكبر الأولاد ، ثم بعد موته يقدم من يليه ، وهكذا . ووظيفة ديوان رسل العملات غير متوارثة ، ووظيفتهم امتحان القوانين والسياسات والأوامر والتدبير ، والبحث عن إيراد الدولة ومدخولها ومصرفها ، والمنازعة في ذلك والممانعة عن الرعية في المكوس والفرد وغيرها ، إبعاداً للظلم والجور . وهذا الديوان مؤلف من عدة رجال ينصبهم أهل الصالات ، وعددهم أربعمائة وثمانية وعشرون رسولاً ، ولا يقبل إلا من يكون سنه

أربعين سنة ، ولا بد أن يكون لكل واحد منهم عقارات تبلغ فردتها⁽⁴⁷⁾ ألف فرنك كل سنة . وأما الوزراء فإنهم متعدّدون ، فمنهم وزير الأمور الداخلية ، ثم وزير الحرب ، ثم وزير الأمور الخارجية ، ثم وزير البحر والخارجين من بلاد الفرنسيين ، النازلين ببلاد يعمرونها في غير بلاد الفرنسيين ، ثم وزير الخزينة ، ثم وزير الأمور الدينية ، ثم وزير تعليم الفنون والصنائع ، ثم وزير التجارات . ووزير الأمور الداخلية نظير الكتخدا ببر مصر ، ووزير الخزينة نظير الخازن دار ، ووزير التجارات نظير ناظر التجارات ، ووزير الأمور الخارجية نظير رئيس أفندي بالدولة العثمانية ، ووزير الحرب نظير ناظر عموم الجهادية ، وهكذا ، غير أنه عندنا ليس وزيراً ، وعندهم يعدّونه من الوزراء . وأما الديوان الخصوصي ، فإنه تخصيص الملك لجماعة بمشورته إياهم على مادة مخصوصة . والغالب على أهل هذا الديوان كونهم من أقاربه ووزرائه . وأما ديوان سرّ الملك ، فإنه يتألف من وزراء السرّ ومن أربعة وزراء آخر ، لهم وزارة مطلقة ، ثم جماعة من أرباب المشورة في الدولة . وأما ديوان الدولة فإنه يتألف من يعينه الملك من أقاربه من الوزراء التسعة الكاثمين سرّ الدولة ، ثم من وزراء الدولة المطلقين ، ومن أرباب المشورة ، ومن جماعة وكلاء على التقارير ، ومن جماعة يستمعون المشورة ليتعلموا تدبير الدول . ومن ذلك يتضح لك أن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف ، وأن السياسة الفرنسية هي قانون مقيد ، بحيث إن الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور في القوانين التي يرضى بها أهل الدواوين ، وأن ديوان البيرو يمانع عن الملك ، وديوان رسل العملات يحامي عن الرعية . والقانون الذي يمشي عليه الفرنسية الآن ، ويتخذونه أساساً لسياستهم ، هو القانون الذي ألفه لهم ملكهم المسمى لويس الثامن عشر (بضم اللام وكسر الواو) ولا زال متبعاً عندهم ومرضياً لهم ، وفيه أمور لا ينكر ذوو العقول أنها من باب العدل . والكتاب المذكور الذي فيه هذا القانون يسمى الشرطة⁽⁴⁸⁾ ومعناها في اللغة اللاتينية ورقة ، ثم تسومح فيها فأطلقت على السجل المكتوب فيه الأحكام المقيدة . فلنذكر لك ، وإن كان غالب ما فيه ليس في كتاب الله

(47) الفردة (وجمعها في النص : فرد ، عامية) : الفرضة ، أي الرسم المفروض .

(48) Charte : الدستور

تعالى ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم ، وكثرت معارفهم وتراكم غناهم وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيهم من يشكو ظلماً أبداً ، والعدل أساس العمران . ولنذكر هنا نبذة مما قاله فيه العلماء والحكماء أو في ضده من كلام بعضهم : ظلم اليتامى والأيتام مفتاح الفقر ؛ والحلم حجاب الآفات ؛ وقلوب الرعية خزائن ملكها ، فما أودعه إياها وجده فيها . وقال آخر : لا سلطان إلاّ برجال ، ولا رجال إلاّ بمال ، ولا مال إلاّ بعمارة ، ولا عمارة إلاّ بعدل . وقيل فيما يقرب من هذا المعنى : سلطان الملوك على أجسام الرعايا لا على قلوبهم . وقال بعضهم : أبلغ الأشياء في تدبير المملكة تسديدها بالعدل ، وحفظها من الخلل . وقيل : إذا أردت أن تطاع فاطلب ما يستطاع ؛ إن المولى إذا كلف عبده ما لا يطيقه ، فقد أقام عذراً في مخالفته . وقال بعضهم شعراً يفيد أن النصر يتوقف على العدل :

تروم ولأه الجور نصراً على العدا
وهيهات يلقي النصر غير مصيب
وكيف يروم النصر من كان خلفه
سهام دعاء من قسي قلوب

وقال آخر :

لا يفلح المقتال والمظلوم
والبغي مرعى نبتة وخيم
فمضجع الظالم بثس المضجع
ومصرع الباغي فبئس المصرع
إن القصاص واقع بالمثل
والدهر يجزي بيسير الفعل

وفي هذا القانون عدة مقاصد : المقصد الأول ، الحق العام للفرنساوية ؛ الثاني ، كيفية تدبير المملكة ؛ الثالث ، في منصب ديوان البير ؛ الرابع ، في منصب ديوان رسل العمارات الذين هم أمناء الرعايا ونوابهم ؛ الخامس ، في منصب الوزراء ؛

السادس ، في طبقات القضاة وحكمهم ؛ السابع ، في حقوق الرعية . قال صاحب الشرطة المذكورة :

الكلام على حق الفرنساوية المنسوب لهم

المادة الأولى : سائر الفرنساوية مستوون قدام الشريعة .

المادة الثانية : يعطون من أموالهم بغير امتياز شيئاً معيناً لبيت المال ، كل إنسان على حسب ثروته .

المادة الثالثة : كل واحد منهم متأهل لأخذ أيّ منصب كان ، وأيّ رتبة كانت .

المادة الرابعة : ذات كل واحد منهم يستقل بها ، ويضمن له حرّيتها ، فلا يتعرّض له إنسان إلاّ ببعض حقوق مذكورة في الشريعة ، وبالصورة المعيّنة التي يطلبه بها الحاكم .

المادة الخامسة : كل إنسان موجود في بلاد الفرنسيين يتبع دينه كما يحب ، لا يشاركه أحد في ذلك بل يعان على ذلك ، ويمنع من يتعرّض له في عبادته .

المادة السادسة : يشترط أن تكون الدولة على الملة القاثوليكية الحوارية الرومانية .

المادة السابعة : تعمير كنائس القاثوليكية وغيرهم من النصرانية يدفع له شيء من بيت مال النصرانية ، ولا يخرج منه شيء لتعمير معابد غير هذا الدين .

المادة الثامنة : لا يمنع إنسان في فرنسا أن يظهر رأيه ، وأن يكتبه ويطبعه ، بشرط أن لا يضرّ ما في القانون ؛ فإذا ضرّ أزيل .

الماد التاسعة : سائر الأملاك والأراضي حرم ، فلا يتعدّى أحد على ملك آخر .

المادة العاشرة : للدولة دون غيرها أن تكره إنساناً على شراء عقاره لسبب عام النفع ، بشرط أن تدفع ثمن المثل قبل الاستيلاء .

المادة الحادية عشرة : جميع ما مضى قبل هذا القانون من الآراء والفتن يجب نسيانه ، وكذلك ما وقع من المحكمة وأهل البلد .

المادة الثانية عشرة : أخذ العساكر يرتب وينقص عما كان عليه ، وقد يعين بقانون معلوم وضع عساكر في البر والبحر .

كيفية تدبير المملكة الفرنسية

المادة الثالثة عشرة : ذات الملك محترمة . ووزارؤه هم الكفلاء في كل ما يقع ، يعني هم الذين يطالبون ويحكم عليهم . ولا يمكن أن يمضي حكم إلا إذا أنفذه أمر الملك .

المادة الرابعة عشرة : الملك هو أعظم أهل الدولة ، فهو الذي يأمر وينهي في عساكر البر والبحر ، وهو الذي يعقد الحرب والصلح والمعاهدة والتجارة بين ملته وغيرها ، وهو الذي يولي المناصب الأصلية ، ويجدد بعض قوانين وسياسات ، ويأمر بما يلزم ويمضيه إذا كان فيه منفعة للدولة .

المادة الخامسة عشرة : تدبير أمور المعاملات بفعل الملك ، وديوان البير ، وديوان رسل العملات .

المادة السادسة عشرة : يقررّ الملك وحده إجراء القوانين ، ويأمر بإعلانها وإظهارها .
المادة السابعة عشرة : يبعث القانون بأمر الملك إلى ديوان البير أولاً ، ثم إلى ديوان رسل العملات إلا قانون الجبايات والفردة ، فإنه يبعث أولاً إلى ديوان رسل العملات .
المادة الثامنة عشرة : تنفذ الدولة القانون ، إذا رضي به جمهور كل من الديوانين .
المادة التاسعة عشرة : لأحد الديوانين أن يلتمس من الملك إظهار قانون في أمر كذا ، وأن يبين فائدة وضع ذلك القانون .

المادة العشرون : يصنع هذا القانون بأحد الديوانين في مجلس سري ، وما صنعه أحد الديوانين واستقرّ رأيه عليه يبعثه للديوان الآخر ، بعد التفكير عشرة أيام .
المادة الحادية والعشرون : إذا رضي الديوان الآخر بالقانون فإنه يسوغ عرضه على الملك ، فإذا طرحه الديوان الآخر لا يمكن عرضه له ، أي ذلك الديوان ، مدة اجتماعه في هذه السنة .

الثانية والعشرون : الملك وحده هو الذي يأذن بالقانون ويظهره للرعية .
الثالثة والعشرون : ماهية الملك محدودة له مدة توليته على كيفية واحدة ، لا تزيد ولا تنقص عن القدر المعين له عند توليه من مجلس ديوان البير ، يعني ديوان المشورة الأولى .

الرابعة والعشرون : ديوان البير هو جزء ذاتي لتشريع القوانين التدبيرية .

الخامسة والعشرون : يجتمع هذا الديوان ويفتح مدة أشهر بأمر الملك ، في زمن واحد ، مع انفتاح ديوان رسل العملات ، فيفتحان معاً في يوم واحد ويغلقان كذلك . السادسة والعشرون : لو اجتمع ديوان البير قبل انفتاح ديوان رسل العملات أو قبل إذن ملك فرنسا ، كان سائر الترتيب الصادر من هذا المجلس مدة الاجتماع ممنوع الإمضاء وملغياً .

السابعة والعشرون : تسمية الشخص بير فرنسا هو حق الملك . وعدد أهل ديوان البير غير محدود ، وللملك أن يلقب البير بأي لقب كان ، وله أن يجعل ذلك اللقب له مدة حياته ، وأن يجعله متوارثاً لذريته .

الثامنة والعشرون : يمكن أن يدخل البير في الديوان وهو ابن خمس وعشرين سنة ، ولا يبدي رأيه في المشورة إلا بعد بلوغه في السن ثلاثين سنة .

التاسعة والعشرون : رئيس ديوان البير هو قاضي قضاة فرنسا مهر دار ملكها ، أي وزير خاتم ملكها . فإن اعتذر خلفه من أهل الديوان من يعينه الملك لذلك .

الثلاثون : أقارب الملك وذراريه يكون لهم الدخول في مرتبة البيرية بمجرد ولادتهم ، ويجلس كل منهم بعد رئيس ذلك الديوان ، ولا يكون لهم كلمة ورأي في المجلس إلا بعد بلوغهم في السن خمساً وعشرين سنة .

الحادية والثلاثون : لا يمكن لأحد من أهل مجلس البير أن يدخل في ذلك الديوان عند انفتاحه إلا بإذن من الملك ، بأن يبعث رسولاً ، فإن فعلوا ذلك كان ما فعل بحضرتهم لاغياً .

الثانية والثلاثون : كل آراء ديوان البير يجب كتمها عن غيرهم .

الثالثة والثلاثون : ديوان الملك هو الذي يستقل بالقضاء على الخيانة في الدولة ونحوها ، من كل ما يضر الدولة مما هو مقرر في القوانين .

الرابعة والثلاثون : لا يمكن أن يقبض أحد على واحد من ديوان أهل البير إلا بأمر ذلك الديوان ، ولا يمكن أن يحكم عليه غيرهم في مواد الجنايات .

ديوان رسل العملات الذين هم وكلاء الرعية

الخامسة والثلاثون : ديوان رسل العملات مؤلف من جملة رسل ينتخبهم

المنتخبون (بكسر الخاء) الذين يقال لهم اللكتور (بكسر اللام المشددة وسكون الكاف) وترتيبها مصنوع بقوانين مخصوصة .

السادسة والثلاثون : كل العمالات تبقى على ما هي عليهن قبل هذه الشرطة ، من عدد ما لها من الرسل .

السابعة والثلاثون : من الآن فصاعداً ، تختار الرسل لتمكث سبع سنوات ، لا خمسة كما كانت .

الثامنة والثلاثون : لا يصلح الإنسان للدخول في ديوان الرسل إلا إذا بلغ أربعين سنة ، وكان له أملاك يدفع عليها ألف فرنك فردة .

التاسعة والثلاثون : لا بد أن يجمع في كل عمالة خمسون ألف نفس ، موجود فيهم شرطاً السن والملك المذكوران ، ليختار الرسل منها ؛ فإن لم يكمل ممن يدفعون ألف فرنك خمسين ، تم اختيار الرسل من جملة الخمسين .

الأربعون : شرط اللكتوراي المنتخب للرسل أن يكون له ملك يدفع فردته ثلاثمائة فرنك ، وأن يكون قد بلغ من العمر ثلاثين سنة .

الحادية والأربعون : رؤساء مجلس المنتخبين ينصبهم الملك ، فيدخلون في أهل هذا المجلس .

الثانية والأربعون : يجب أن يكون نصف رسل العمالات فصاعداً مستوطنات عادة في تلك العمالة .

الثالثة والأربعون : رئيس ديوان رسل العمالات ينصبه الملك ، ويختاره من خمسة رسل يعرضهم ذلك الديوان .

الرابعة والأربعون : مجالس هذا الديوان تكون جهرية إلا إذا أراد خمسة من رسل العمالات كتم شيء ، فإنه يجوز إخراج الناس الأجانب من الديوان .

الخامسة والأربعون : الديوان ينقسم إلى دواوين صغيرة تسمى البورو ، يعني مكاتب ؛ فأهل هذه البورو تمتحن الأشياء التي يستحسنها الملك ويبعثها لها .

السادسة والأربعون : لا يقع تصليح شيء في آداب سياسات فرنسا ولا يمضي إلا إذا رضي به الملك ، ويبحث فيه في تلك الدواوين الصغيرة .

السابعة والأربعون : ديوان رسل العمالات يلقي تقارير طلب الفرد والمكوس ، ولا

تصل إلى ديوان البير إلا إذا رضي بها ذلك الديوان .
الثامنة والأربعون : لا يمكن أن ينفذ أمر الملك في الفرد إلا إذا رضي به الديوانان وأقره الملك .

التاسعة والأربعون : فردة العقار لا تقطع إلا سنة فسنة ، ويمكن قطع غيرها لأجل معلوم .

الخمسون : على الملك أن يأمر بفتح الديوانين كل سنة ، ولكن متى أرادوا له أن يبطل ديوان رسل العمالات بشرط أن يصنع ديوان رسل جديد ، وأن لا يزيد في تجديد الآخر عن ثلاثة أشهر .

الحادية والخمسون : لا يمكن أن يقبض أحد على إنسان من أهل مجلس رسل العمالات مدة فتح الديوان ، وشهراً ونصفاً قبل فتحه ، وشهراً ونصفاً بعده .

الثانية والخمسون : لا يمكن أن يقبض على أحد من أعضاء الديوان بسبب مادة من مواد العقوبات ، ما دام الديوان مفتوحاً وما دام اجتماع الديوان ، إلا إذا بغت وهو متلبس بالخطيئة ، أو أذن الديوان بأخذه .

الثالثة والخمسون : عرض الحال الذي يعرض على أحد الديوانين لا يقبل إلا إذا كان مكتوباً . وآداب السياسة الفرنسية لا تجوز أن يقدم الإنسان تقريراً بنفسه في المجلس .

الوزراء

المادة الرابعة والخمسون : يجوز أن يكون الوزير من أهل كل من الديوانين ، وله زيادة على ذلك حق الحضور في أحدهما ، ومتى طلب أن يتكلم في الديوان وجب أن يصغى إلى كلامه .

الخامسة والخمسون : يسوغ لديوان رسل العمالات أن يتهم الوزراء ، فتسمع دعواه في ديوان البير ليحكم بينهم ذلك الديوان ، فيفصل خصومتهم .

السادسة والخمسون : لا يتهم الوزير إلا بخيانة في التدبير بالرشوة أو باختلاس الأموال ، فيحكم عليه على حسب ما هو مسطر في القوانين المخصوصة .

طائفة القضاة

المادة السابعة والخمسون : الحكم حق الملك ، يُعتبر كأنه صادر منه ، فيحكم القضاة المنصبون من الملك الذين لهم ماهية من بيت المال ، ويبتون الحكم باسم الملك .

الثامنة والخمسون : إذا ولى الملك قاضياً وجب إبقاؤه ، ولا يجوز عزله .
التاسعة والخمسون : القضاة المنصبون وقت هذه الشرطة لا يمكن عزلهم ، ولو تجدد قانون آخر .

الستون : إقامة قضاة المعاملات لا يمكن إبطالها أبداً .
الحادية والستون : إقامة قضاة المصالحة تبقى أيضاً ولكن قاضي المصالحة يجوز عزله وإن كان منصبه يأتي له من الملك .

الثانية والستون : لا شيء يخرج عن حكم هؤلاء القضاة .
الثالثة والستون : لا يسوغ بسبب ما تقدم تجديد محاكم أو مجالس زائدة إلا بجمع قضاة النُقباء الذين يقال لهم بريوتال ، إذا احتاج الأمر إلى ذلك .

الرابعة والستون : إقامة الدعوى والتشاجر بين الخصوم قدام الحاكم الشرعي تكون على رؤوس الأشهاد في مواد العقوبات ، إلا إذا كان الذنب مضرّاً إشهاره بين العامة أو مخللاً بالحياء ، فإن أهل المحكمة يخبرون الناس بأن هذا الأمر يقع سراً .

الخامسة والستون : إقامة الجماعة المحكمين المسماة "جورية" الجنايات لا تبطل أبداً ، وإذا لزم تغيير بعض شيء في مواد القضاة لا يمكن إلا إذا كان بقانون من الديوانين .

السادسة والستون : قانون معاقبة الإنسان بالاستيلاء على ما تملكه يده قد أبطل بالكلية ، ولا يمكن تجديده أبداً .

السابعة والستون : للملك أن يعفو عن الإنسان وأن يخفف مواد العقوبات .
الثامنة والستون : كتب قوانين السياسات التي عليها العمل الغير المناقضة لما في هذه الشرطة لا ينسخ حكم ما فيها ، إلا إذا تغير بقانون آخر .

حقوق الناس التي يضمنها الديوان

المادة التاسعة والستون : كل أهل العسكرية سوى أصحاب خدمة دائمة أو متروكين لوقت الحاجة وكل النساء المتوفى عنهن أزواجهن وهم في العسكرية يبقى لهم مدة حياتهم وظيفتهم ودرجتهم وخرجهم .

السبعون : ديون الرعية التي في ذمة الديوان هي مضمونة على حسب اصطلاح الدولة مع أرباب الديون .

المادة الحادية والسبعون : لم يفضل لأهل الشرف القديم من درجات الشرف إلا الاسم فقط ، وكذلك لأرباب الشرف الجديد . ثم للملك فرنسا أن يعطي درجة الشرف الفرنسي لأي إنسان شاء ، ولكن ليس له أن يخص من يعطيه ذلك برفع الفرد ونحوها عنه ، فليس للشرف مزية غير التسمية .

الثانية والسبعون : من له علامة التمييز المسماة درجة الشوالية يعني الفارس في فنه فإن له أن يحفظها على الصورة التي يعينها ملك فرنسا لهذه الدرجة .

الثالثة والسبعون : القبائل والنزلات الخارجة من فرنسا ، لتعمير بلاد أخرى وللاستييطان بها ، تكون مدبرة بقوانين وسياسات أخرى .

الرابعة والسبعون : على كل ملك من ملوك فرنسا أن يحلف عند تولية المملكة الفرنسي أن لا يحيد عن هذه الشرطة . ثم إن هذه الشرطة قد حصل فيها تغيير وتبديل منذ الفتنة الأخيرة الحاصلة في سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة وألف بتاريخ البلاد ، فراجعها في باب قيامة الفرنسي وطلبهم للحرية والمساواة .

فإذا تأملت رأيت أغلب ما في هذه الشرطة نفيساً . وعلى كل حال ، فأمره نافذ عند الفرنسي . ولنذكر هنا بعض ملاحظات فنقول : قوله في المادة الأولى «سائر الفرنسيين مستوون قدام الشريعة» معناه سائر من يوجد في بلاد فرنسا من رفيع ووضيع ، لا يختلفون في إجراء الأحكام المذكورة في القانون ، حتى إن الدعوى الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره . فانظر إلى هذه المادة الأولى ، فإن لها تسلط عظيم على إقامة العدل ، وإسعاف المظلوم ، وإرضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم ، نظراً إلى إجراء الأحكام . ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنسي ، وهي من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة

عالية ، وتقدّمهم في الآداب الحضريّة . وما يسمونه الحرّيّة ، ويرغبون فيه ، هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والإنصاف . وذلك لأن معنى الحكم بالحرّيّة هو إقامة التساوي في الأحكام والقوانين ، بحيث لا يجوز الحاكم على إنسان ، بل القوانين هي المحكمة والمعتبرة . فهذه البلاد حرة بقول الشاعر :

وقد ملأ العدل أقطارها

وفيها توالى الصفا والوفا

وبالجملة ، إذا وجد العدل في قطر من الأقطار فهو نسبيّ إضافيّ ، لا عدل كليّ حقيقيّ ، فإنه لا وجود له الآن في بلدة من البلدان ، فهو كالإيمان الكامل والحلال الصرف وأمثال ذلك ونظائره . فلا معنى لحصر المستحيل في الغول والعنقاء والخل الوفي ، كما هو مذكور في قوله :

لما رأيت بني الزمان وما بهم

خل وفيّ للشدائد أصطفي

أيقنت أن المستحيل ثلاثة

(49) الغول والعنقاء والخل الوفي

مع أن ذلك ممنوع في العنقاء ، فإنها نوع من الطيور موجود الأفراد ، يذكر عند أرباب علم الحشائش . وذكر الثعلبيّ ، في قصص الأنبياء ، قضية العنقاء مع سيدنا سليمان في تكذيبها بالقدر . نعم لا وجود للعنقاء ، بالمعنى المشهور عند العامة من العرب والإفرنج ، من أنها من أعلاها عقاب ومن أسفلها أسد . وعلى كل حال ، فلها في الجملة وجود . وأما المادة الثانية ، فإنها محض سياسة ، ويمكن أن يقال إن الفرد⁽⁵⁰⁾ ونحوها لو كانت مرتبة في بلاد الإسلام كما هي في تلك البلاد لطابت للنفس ، خصوصاً إذا كانت الزكوات والفيء والغنيمة لا تفي بحاجة بيت المال أو كانت ممنوعة بالكلية ، وربما كان لها أصل في الشريعة ، على بعض أقوال مذهب الإمام الأعظم . ومن الحكم المقررة عند قدماء الحكماء ، الخراج عمود الملك . ومدة

(49) الشاعر صفي الدين الحلي .

(50) راجع الهامش 87

إقامتي بباريس ، لم أسمع أحداً يشكو من المكوس والفرد والجبايات أبداً ، ولا يتأثرون بحيث إنها تؤخذ بكيفية لا تضر المعطي وتنفع بيت مالهم ، خصوصاً وأصحاب الأموال في أمان من الظلم والرشوة . وأما المادة الثالثة ، فلا ضرر فيها أبداً ، بل من مزاياها أنها تحمل كل إنسان على تعهد تعلمه حتى يقرب من منصب أعلى من منصبه . وبهذا كثرت معارفهم ، ولم يقف تمدنهم على حالة واحدة ، مثل أهل الصين والهند ممن يعتبر توارث الصنائع والحرف ويبقى للشخص دائماً حرفة أبيه . وقد ذكر بعض المؤرخين أن مصر في سالف الزمان كانت على هذا المنوال ، فإن شريعة قدماء القبط كانت تعين لكل إنسان صنعته ، ثم يجعلونها متوارثة عنه لأولاده . قيل سبب ذلك أن جميع الصنائع والحرف كانت عندهم شريفة ، فكانت هذه العادة من مقتضيات الأحوال ، لأنها تعين كثيراً على بلوغ درجة الكمال في الصنائع ، لأن الابن يحسن عادة ما رأى أباه يفعله عدة مرّات بحضرته ، ولا يكون له طمع في غيره . فهذه العادة كانت تقطع عرق الطمع ، وتجعل كل إنسان راضياً بصنعته لا يتمنى أعلى منها ، بل لا يبحث إلا عن اختراع أمور جديدة نافعة لحرفته توصل إلى كمالها .

ويرد عليه أنه ليس في كل إنسان قابلية لتعلم صنعة أبيه ، فقصره عليها ربما جعل الصغير خائباً في هذه الصنعة . والحال أنه لو اشتغل بغيرها لصلح حاله وبلغ أماله . وأما المادة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة فإنها نافعة لأهل البلاد والغرباء ، فلذلك كثر أهل هذه البلاد وعمرت بكثير من الغرباء . وأما المادة الثامنة فإنها تقوّي كل إنسان على أن يظهر رأيه وعمله وسائر ما يخطر بباليه بما لا يضرّ غيره ، فيعلم الإنسان سائر ما في نفس صاحبه ، خصوصاً الورقات اليومية المسماة بالجرنالات والكازيطات (الأولى جمع جرنال والثانية جمع كازيطة) فإن الإنسان يعرف منها سائر الأخبار المتجددة ، سواء أكانت داخلية أو خارجية أي داخل المملكة أو خارجها ، وإن كان قد يوجد فيها من الكذب ما لا يحصى ، إلا أنها قد تتضمن أخباراً تتشوّف نفس الإنسان إلى العلم بها ، على أنها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق أو تنبيهات مفيدة أو نصائح نافعة ، سواء أكانت صادرة من الجليل أو الحقير ، لأنه قد يخطر ببال الحقير ما لا يخطر ببال العظيم ، كما قال بعضهم لا تحترق

الرأي الجليل يأتيك به الرجل الحقير ، فإن الدرة لا تستهان لهوان غَوَاصِها . قال الشاعر :

لما سمعت به سمعت بواحد
ورأيتَه فإذا هو الثقلان
فوجدت كل الصيد في جوف الفرا
ولقيت كل الناس في إنسان⁽⁵¹⁾

ومن فوائدها أن الإنسان ، إذا فعل عظيماً أو رديئاً وكان من الأمور المهمة ، كتبه أهل الجرنال ليكون معلوماً للخاص والعام ، لترغيب صاحب العمل الطيب وردع صاحب الفعلة الخبيثة . وكذلك إذا كان الإنسان مظلوماً من إنسان ، كتب مظلمته في هذه الورقات ، فيطلع عليها الخاص والعام فيعرف قصة المظلوم والظالم ، من غير عدول عما وقع فيها ولا تبديل ، وتصل إلى محل الحكم ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة ، فيكون مثل هذا الأمر عبرة لمن يعتبر . وأما المادة التاسعة فإنها عين العدل والإنصاف ، وهي واجبة لضبط جور الأقوياء على الضعاف ، وتعقبها بما في العاشرة من باب اللياقة الظاهرة . وفي المادة الخامسة عشر نكتة لطيفة وهي أن تدبير أمر المعاملات لثلاثة مراتب : المرتبة الأولى الملك مع وزرائه ، والثانية مرتبة البيرية المحامية للملك ، والثالثة مرتبة رسل المعاملات الذين هم وكلاء الرعية والمحامون عنهم حتى لا تظلم من أحد . وحينما كانت رسل المعاملات قائمة مقام الرعية ومتكلمة على لسانها ، كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها . وعلى كل حال ، فهي مانعة للظلم عن نفسها بنفسها ، وهي آمنة منه بالكلية ، ولا يخفى عليك حكمة باقي المواد .

(51) الفرا (جمع أفراء وفراء) : حمار الوحش . والشطر الأول مثل عربي قديم .

(خلاصة حقوق فرنساوية الآن بعد سنة 1831 من الميلاد وتصليح الشرطة)

حقوق فرنساوية الواجبة لهم والواجبة عليهم

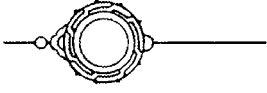
مضمون الشرطة بعد التغيير

الفرنساوية مستوون في الأحكام على اختلافهم في العظم والمنصب والشرف والغنى ، فإن هذه مزايا لا نفع لها إلا في الاجتماع الإنساني والتحضر فقط ، لا في الشريعة . فلذلك كان جميعهم يقبل في المناصب العسكرية والبلدية ، كما أنه يعين الدولة من ماله على قدر حاله . وقد ضمنت الشريعة لكل إنسان التمتع بحريته الشخصية ، حتى لا يمكن القبض على إنسان إلا في الصور المذكورة في كتب الأحكام . ومن قبض على إنسان في صورة غير منصوصة في الأحكام ، يعاقب عقوبة شديدة . ومن الأشياء التي ترتبت على الحرية عند فرنساوية ، أن كل إنسان يتبع دينه الذي يختاره يكون تحت حماية الدولة ، ويعاقب من تعرّض لعباد في عبادته . ولا يجوز وقف شيء على الكنائس أو إهداء شيء لها ، إلا بإذن صريح من الدولة . وكل فرنساوي له أن يبدي رأيه في مادة السياسات أو في مادة الأديان ، بشرط أن لا يخل بالانتظام المذكور في كتب الأحكام . كل الأملاك على الإطلاق حرم لا تهتك ، فلا يكره إنسان أبداً على إعطاء ملكه إلا لمصلحة عامة ، بشرط أخذه قبل التخليه قيمته ، والمحكمة هي التي تحكم بذلك . كل إنسان عليه أن يعين في حفظ المملكة العسكرية بشخصه ، بمعنى أنه كل سنة يجمع أولاد إحدى وعشرين سنة لتضرب القرعة لأخذ العساكر السنوية منهم . ومدة خدمة العسكرية ثمانى سنوات وكل فرنساوي عمره ثمانى عشرة سنة وله حقوقه البلدية ، يمكنه أن يتطوع ويدخل العسكرية . يعفى من العسكرية عدة أناس : الأول من طوله دون متر وخمسة وسبعين سنتماً ، يعني أربعة أقدام وعشرة برامق . الثاني أصحاب العلل . الثالث الابن الأكبر أو المنفرد عند فقدته ، إذا كانت الأم أو الجدّة لا زوج لها أو كان أبوه أعمى أو سنه سبعين سنة . الخامس البكري ، أحد الأخوين اللذين وقعا في قرعة لمرة واحدة . السادس الأخ الذي أخوه باق تحت البيرق ، أو مات في الخدمة ، أو جرح في الحرب ، ولو أراد الإنسان أن ينوب عنه غيره ، فإن المنوب عنه يضمن النائب سنة من خوف الهرب ، إلا إذا كان الهارب قبض عليه في السنة ، أو مات تحت بيرق

الفرنساوية . وفي أحد وعشرين في شهر دجمبر من كل سنة ، كل العساكر التي تمت خدمتهم يؤذن لهم بالعود إلى محالهم . ولما كان لا يمكن لكل إنسان أن يدخل بنفسه في عمل الدولة ، وكلت الرعية بتمامها عنها في ذلك أربعمائة وثلاثين وكيلاً تبعثها إلى باريس في المشورة . وهؤلاء الوكلاء تختارهم الرعية ، وتوكلهم بأن يمانعوا عن حقها ، ويصنعوا ما فيه مصلحة لها . وذلك أن كل فرنساوي مستكمل للشروط ، التي منها أن يكون عمره خمساً وعشرين سنة ، له أن يكون ممن له مدخل في انتخاب رسل عمالاته . وكل فرنساوي له أن يكون رسولاً إذا كان عمره ثلاثين سنة ، وكان موصوفاً بالشروط المذكورة في كتاب الأحكام . وفي كل مأمورية مجمع اختبار وانتخاب ، ومجامع انتخاب للأقاليم الصغيرة . ومجامع المأموريات الكبيرة مؤلفة من المنتخبين الكبار ، وتعين 172 رسولاً ومجامع انتخاب الأقاليم الصغيرة تعين 258 رسولاً . ودفاتر أرباب الانتخاب تطبع وتكتب في الطرق شهراً قبل فتح مجامع الانتخاب ، حتى إنه يمكن لكل إنسان أن يكتب إعلاماً به . وكل منتخب . بكسر الخاء يكتب رأيه سراً في ورقة ، ويعطيها للرئيس مطوية ، والرئيس يضعها في إناء القرعة . وديوان رسل العمالات يتجدد بالكلية كل خمس سنوات ، ولا يمكن أخذ الفرد إلاً بخلاصة من مشورة الديوانين ، مُقررة من طرف الملك . ويمكن لأهل البلدان أن يرسلوا أهل الديوانين بطرق العرضحال ، ليشتكوا من شيء أو يعرضوا شيئاً نافعاً . القضية لا ينزلون ، فلا يحكم على إنسان إلاً بقضاه محل استيطانه ، والدعاوى تقام جهراً . وذنوب الجنايات لا يحكم فيها إلاً بحضرة جماعة يسمون الجورين . والعقوبة بالقبض على الأموال بطلت . للملك أن يعفو عن المعاقب وأن يخفف العقاب الشديد . على الملك وورثته أن يحلفوا عند ارتقاء الكرسي بأن يعملوا بما في كتاب قوانين المملكة . ثم إنه يطول علينا ذكر الأحكام الشرعية أو القانونية المنصوبة عند فرنساوية ، فلنقل إن أحكامهم القانونية ليست مستنبطة من الكتب السماوية ، وإنما هي مأخوذة من قوانين أخر غالبها سياسي . وهي مخالفة بالكلية للشرائع ، وليست قارة الفروع ، ويقال لها الحقوق فرنساوية أي حقوق فرنساوية بعضهم على بعض ، وذلك لأن الحقوق عند الإفرنج مختلفة . ثم إن بباريس عدّة محاكم ، وفي كل محكمة قاض كبير كأنه قاضي القضية ، وحوله رؤساء وأرباب مشورة ، ووكلاء

الخصوم ومحامون للخصوم ونواب عن المحامين ، وموقع الوقائع .
شعر :

من ادعى أن له حاجة
تخرجه عن منهج الشرع
فلا تكون له صاحباً
فإنه ضرر بلا نفع



الفصل الرابع

في عادة سكنى أهل باريس وما يتبع ذلك

من المعلوم أن البلدة أو المدينة تبلغ من الحضارة على قدر معرفتها وبعدها عن حالة الخشونة والتوحش . والبلاد الإفرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب التي لا ينكر إنسان أنها تجلب الأنس وتزين العمران ، وقد تقرر أن الملة الفرنسية متميزة بين الأمم الإفرنجية بكثرة تعلقها بالفنون والمعارف ، فهي أعظم أدباً وعمراً . والبنادر أولى في العمارات عادة من القرى والضياع . والمدن العظمى أولى من سائر البنادر . وتحت المملكة أولى من سائر ما عداها من مدن تلك المملكة . فحينئذ ، لا عجب إن قيل إن باريس التي هي قاعدة ملك الفرنسيين من أعظم بلاد الإفرنج بناء وعمارة ، وإن كانت عماراتها غير جيدة المادة ، فهي جيدة الهندسة والصناعة . على أنه ربما يقال أيضاً إن مادتها جيدة ، إلا أنها ناقصة لعدم كثرة حجر الرخام فيها ، ولخلوها عن بعض أشياء آخر . كيف لا ، وأساس حيطانها من أحجار النحاتة ، وكذلك الحيطان الخارجية ، وأما الداخلية فإنها تتخذ من الخشب الجيد في الغالب . وأما عواميدها فهي غالباً من النحاس ، فقل أن كانت من الرخام . كما أن تخطيط الأرض يتخذ من حجر البلاط ، وقد يكون من الرخام الأسود مع البلاط . وذلك أن الطرق دائماً مبلطة بحجر البلاط المربع ، والحيشان مبلطة بالبلاط المذكور ، والقيعان بالآجر أو بالخشب أو بالمرمر الأسود مع البلاط المشغول . وجودة الحجر أو الخشب تختلف باختلاف الإنسان . ثم إن حيطان الغرفات والأرض من خشب ، كما تقدّم . وهم يطلبونه

بالطلاء ، ثم يسترون الحيطان بورق منقوش نقشاً نظيفاً ، فهو أحسن من عادة تبييض الحيطان بالجير ، فإن الورق لا يعود منه شيء على من مس الجدار ، بخلاف الجير . بل وهو أهون مصرفاً ، وأعظم منظراً ، وأسهل فعلاً ، خصوصاً في أوضاعهم المزينة بأنواع من الأمتعة التي لا يمكن الإفصاح عنها . غاية ما يقال أن الفرنساوية يحاولون إضعاف نور الأوض بوضع الستائر الملونة ، خصوصاً الخضراء . وأرض أوضاعهم مبلطة بخشب أو بنوع من القرميد الأحمر ، ويحكون أرض الأوضة كل يوم بالشمع الأصفر المسمى عندهم شمع الحك . وعندهم حكاكون بالأجرة معدون لذلك بالخصوص . وتحت أسرّتهم المكسوة بالخيشات⁽⁵²⁾ وبالمشجرات وغيرها ، سجادات عظيمة يطأونها بالنعال . وفي كل أوضة مدخنة للنار ، وهي على شكل صفة القلل ، مرخمة بجيد الرخام ، وفوقها ساعة بشتختة⁽⁵³⁾ وحول الساعة من الجهتين آنية من تقليد الرخام الأبيض أو من البلور ، فيها أزهار أو تقليد أزهار . وحول هذا من الجهتين القناديل الإفرنجية الدولابية التي لا يدرك صورتها حقيقة إلا من رآها موقودة . وفي غالب أوضاعهم آلة الموسيقى المسماة البيانو (بكسر الباء وضم النون) . فإذا كانت الأوضة أوضة شغل وقراءة ، ففيها طاولة مشتملة على آلات الكتابة وغيرها ، مثل سكاكين قطع الورق المصنوعة من العاج أو البقس⁽⁵⁴⁾ أو غيرهما . وأغلب الأوض مشحون بالصور خصوصاً صور الأقارب . وفي أوضة الشغل أيضاً ، قد توجد صور عجيبة ، وأشياء من غرائب ما كان عند القدماء على اختلافهم . وربما رأيت على طاولة الشغل أوراق الوقائع على اختلاف أجناسها . وربما رأيت كذلك في أوض الأكابر النجفات العظيمة التي توقد بشموع العسل . وربما رأيت أيضاً في أوضاعهم ، في يوم تلقي الناس ، طاولة وعليها جميع الكتب المستجدة والوقائع وغيرهما ، لتسلية من أراد من الضيوف أن يسرح ناظره وينزه خاطره في قراءة هذه الأشياء . وهذا يدل على كثرة اهتمام الفرنساوية بقراءة الكتب ، فهي أنسهم . ومن التوقيعات اللطيفة : الكتاب

(52) هكذا في النص ، ولعل الصحيح : بالخيشات .

(53) الشدغة أو الشنتخة : بندول الساعة ، كما يقول بعض إخواننا في مصر .

(54) البقس : شجر حرجي صلب ثمين .

وعاء ملئ علماً وظرف حشي ظرفاً ، ومن لك بروضة تقلب في حجر وبستان يحمل
في كم . وما أحسن قول بعضهم شعراً :

دفترى مؤنسي وفكري سميري
ويدي خادمي وحلمي ضجيعي
ولساني سيفي وبطشي قريضي
ودواتي عيشي ودرجي ربيعي

وقال آخر :

لنا جلساء ما يمل حديثهم
ألباء مأمونون غيباً ومشهداً
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى
وعقلاً وتأديباً ورأياً مسدداً
فإن قلت أموات فما أنت كاذب
وإن قلت أحياء فلست مفنداً

ومن كلام بعضهم ، نعم المحدث الدفتر . ومن كلام بعض الظرفاء : ما رأيت باكياً
أحسن تبسماً من القلم . ثم إن جميع هذه التحف يكمل الأنس بها بحضور سيدة
البيت ، أي زوجة صاحبه التي تحيي الضيوف أصالة ، وزوجها يحييهم بالتبعية . فأين
هذه الأوض بما احتوت عليه من اللطائف من أوضنا التي يحيا فيها الإنسان بإعطاء
شبق الدخان⁽⁵⁵⁾ من يد خادم في الغالب أسود اللون . وأما السقوف فإنها من الخشب
النفيس ثم إن البيت في العادة مصنوع من أربع طبقات بعضها فوق بعض ، ما عدا
البناء الأرضي فلا يحسب دوراً ، وقد يصل إلى سبعة أدوار وغيرها تحت الأرض من
المخادع التي تستعمل أيضاً لربط الخيل أو المطبخ وذخائر البيت ، وخصوصاً النبذ
والخشب اللوقود . ثم إن البيت عندهم كما في بيوت القاهرة مشتمل على عدة
مساكن مستقلة ، ففي كل دور من أدوار البيت جملة مساكن ، وكل مسكن متنافذ
الأوضاع . وقد جرت عاداتهم بتقسيم البيوت إلى ثلاث مراتب : المرتبة الأولى بيت

(55) الشبق أو الجبق (بالفارسية) الغليون ، لكن الموقف العنصري في المقارنة لا يليق بالمؤلف .

عادي ، والثانية بيت لأحد من الكبار ، والثالثة بيوت الملك وأقاربه ودواوين المشورة ونحوها . فالأول يسمى بيتاً ، والثاني يسمى داراً ، والثالث يسمى قصراً أو سراية . ويمكن أيضاً تقسيم البيوت من حيثية أخرى إلى ثلاث مراتب أيضاً : المرتبة الأولى البيوت التي لها حاجب ولها باب كبير يسع دخول العرب منة . والثانية البيوت التي داخلها دهاليز ولها بواب ، ولا يمكن أن تدخل العرب من بابها . والثالثة البيوت التي لا بواب لها أي لا مكان للبواب فيها يسكن فيه . ووظيفة البواب في باريس أن ينتظر الساكن إلى نصف الليل ، فإذا أراد الساكن أن يسهر في المدينة زيادة عن نصف الليل ، فعليه أن ينبّه البواب لينتظره ، ولكن لا بد أن يعطيه بعض شيء . وليس على الحارات بواب أصلاً ، وليس لها أبواب كما في مصر . ثم إن العقارات بباريس غالية الثمن والكراء ، حتى إن الدار العظيمة قد يبلغ ثمنها مليون فرنك ، يعني نحو ثلاثة ملايين قروشاً مصرية . ثم إن كراء المساكن في باريس قد يكون لمجرد المسكن ، وقد يستأجرها الإنسان بفراشها العظيم وجميع أثاثها وآلاتها . وآلات البيت عند الفرنسيين هي آلات الطباخة والمأكل بأجمعها ، بطقمها المشتمل على الفضيات ونحوها . وآلة الفراش للنوم ، وهو في الغالب عدة طراحات ، إحداها من الريش ، وملاية فرشة تتغير كل شهر ، وحرامات الغطاء . ثم آلات التجميل وتلقي الزوار ، وهي الكراسي المكسوة بالحرير المشغول ونحوه ، والسدلات المكسوة كذلك ، والكراسي العادية . والآلات العظيمة المنظر كالساعات الكبيرة المسماة عندهم بندوق ، وكأواني الأزهار العظيمة وغيرها من أواني القهوة الممّوءة بالذهب ، وكالنجفة المعلقة التي تتقد بالشموع المكررة ، وكخزانة الكتب التي لها باب من القزاز يظهر منه ما فيها من الكتب جيدة التجليد . وكل إنسان له خزانة كتب ، سواء الغني والفقير ، حيث أن سائر العامة يكتبون ويقرؤون . والغالب أن الرجل ينام في أوضة غير التي تنام فيها زوجته ، إذا تقادم الزواج . ومن العوايد التي لا بأس بها أن قصر ملك فرانس وقصور أقاربه تنفتح ، حين خروج السلطان وأقاربه كل سنة إلى الإقامة في الخلاء مدة أشهر ، فيدخل سائر الناس للفرجة على بيت الملك وأقاربه ، فيرون أثاث البيت وسائر الأشياء الغريبة . ولكن لا يدخل أحد إلا بورقة مطبوعة ، مكتوب فيها الإذن بدخول شخص أو شخصين أو أكثر . وهذه الورقة توجد عند كثير من الناس ، فإذا طلبها

الإنسان من يعرفه أعطاها له ، فترى في البيت ازدحاماً عظيماً للفرجة على جميع ما في حريم الملك وأقاربه . وقد دخلت ذلك عدّة مرّات فرأيت من الأمور العجيبة التي ينبغي التفرّج عليها ، وفيه كثير من الصور التي لا تمتاز عن الناس إلّا بعدم النطق . وفيه مصوّر كثير من ملوك فرنسا وغيرهم ، وكل أقارب السلطنة ، وكل الأشياء الغريبة . وأغلب الأشياء الموجودة في حريم السلطنة مستحسنة من جملة جودة صناعتها لا نفاستها بالمادّة ، مثلاً سائر الفراش كالكراسي والأسرة ، حتى كراسي المملكة مشغولة له شغلاً عظيماً بالقصب الخيش ومطلية بالذهب ، إلّا أنه لا يوجد بها كثير من الأحجار الكريمة كما يوجد ببلادنا بيوت الأمراء الكبار بكثرة . فمبنى أمور الفرنساوية في جميع أمورهم على التجميل ، لا على الزينة وإظهار الغنى والتفاخر . ثم سائر الأغنياء بباريس يسكنون في الشتاء في نفس المدينة . وقد أسلفنا في ذكر طبيعة إقليم باريس أن كل بيت به مداخن تتقد فيها النيران في القيعان والأود . وأما في مدّة الحسر ، فمن له يسار سكن في الخلاء ، لأن القصور بالخلاء أسلم هواء من داخل المدينة . ومن الناس من يسافر في بعض بلاد فرنسا أو ما جاورها من البلاد ، ليستنشق رائحة البلاد الغربية ويطلع على البلاد ، ويعرف عوائد أهلها ، خصوصاً في مدّة من السنة تسمى عندهم مدّة التعطيل أو مدّة الفراغ ، يعني البطالة . حتى النساء ، فإنهنّ يسافرن وحدهنّ أو مع رجل يتفق معهنّ على السفر ويتفقن عليه مدّة سفره معهنّ ، لأن النساء أيضاً متولعات بحب المعارف والوقوف على أسرار الكائنات والبحث عنها . أو ليس أنه قد يأتي منهنّ من بلاد الإفرنج إلى مصر ليرى غرائبها من الأهرام والبرابي وغيرها ، فهنّ كالرجال في جميع الأمور . نعم ، قد يوجد منهنّ بعض نساء غنيات مستورات الحال يمكنّ من أنفسهنّ الأجنبيّ ، وهنّ غير متزوجات فيشعرن بالحمل ويخشين الفضيحة بين الناس ، فيظهرن السفر لمجرد السياحة أو لمقصد آخر ، ليلدن ويضعن المولود عند مريض بأجرة خاصة ليتربى في البلاد الغربية ، ومع هذا الأمر فليس بشائع . وبالجملة ، ما كل بارقة تجود بمائها ، ففي نساء الفرنساوية ذوات العرض ، ومنهنّ من هي بضدّ ذلك ، وهو الأغلب لاستيلاء فن العشق في فرنسا على قلوب غالب الناس ، ذكوراً وإناثاً . وعشقهم معلل لأنهم لا يصدقون بأنه يكون لغير ذلك ، إلّا أنه قد يقع بين الشاب

والشابة فيعقبه الزواج . وما يمدح به الفرنساوية نظافة بيوتهنّ من سائر الأوساخ ، وإن كانت بالنسبة لبيوت أهل الفلمنك كلا شيء ، فإن أهل الفلمنك أشدّ جميع الأمم نظافة ظاهرية . كما أن أهل مصرفي قديم الزمان كانوا أيضاً أعظم أهل الدنيا نظافة ، ولم يقلدهم ذرايرهم وهم القبطة في ذلك . وكما أن باريس نظيفة ، فهي خالية أيضاً من السميات ، بل ومن الحشرات ، فلا يسمع بأن إنساناً فيها لدغته عقرب أبداً . وتعهد الفرنساوية تنظيف بيوتهم وملابسهم أمر عجيب . وبيوتهم دائماً مفرّحة بسبب كثرة شبابيكها الموضوعة بالهندسة وضعاً عظيماً يجلب النور والهواء داخل البيوت وخارجها . وظرفات الشبابيك دائماً من القزاز حتى إذا أغلقت فإن النور لا يحجب أصلاً ، وفوقها دائماً الستائر للغني والفقير ، كما أن ستائر الفرش التي هي نوع من الناموسية غالباً لستائر أهل باريس .

الفصل الخامس

في أغذية أهل باريس وفي عاداتهم في المآكل والمشرب

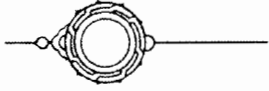
اعلم أن قوت أهل المدينة هو الخنطة ، وهي في الغالب صغيرة الحبوب إلا إذا كانت منقولة من البلاد الغربية ، فيطحنونها في طواحين الهواء والماء ، ويخبزونها عند الفران فيباع الخبز في دكانه . وسائر الناس لها مرتب يوميّ تشتريه من الخباز ، وعلة ذلك توفير الزمان والاقتصاد فيه ، لأن سائر الناس مشغولون في أشغال خاصة ، فصناعة العيش في البيوت لا تشغلهم . ثم إن المحتسب يأمر الخبازين أن يكون عندهم كل يوم من العيش ما يكفي المدينة . وفي الحقيقة لا يمكن فقد العيش أبداً بمدينة باريس ، بل ولا فقد غيره من أمور الأغذية . وأدم أهل هذه المدينة اللحوم والبقول والخضراوات والألبان والبيض وغيرها ، والغالب تعدّد الأطعمة ولو عند الفقراء . ثم إنّ المذابح عندهم تكون بأطراف المدينة لا داخلها ، وحكمة ذلك أمران : دفع الوحش ، ودفع أضرار البهائم إذا انفلقت . وكيفية الذبح تختلف عندهم ، فأما ذبح الضأن فإنه أهون من ذبح غيره ، فإنهم ينفذون السكين وراء زوره ، يعني بين زوره ورقبته ، ثم يقطعونه بعكس ما نفعل ، وأما ذبح العجول فإنه مثله . وأما الشيران فيضربونها بمقامع

من حديد في وسط رأسها فيدوخ من عظم الخطب ، ثم يكرّرون ذلك عدّة مرّات فيقطع الثور النفس مع بقاء الحركة ، ثم يذبحونه كما تقدّم من ذبح الضأن . ولقد بعثت خادماً لي مصرياً إلى المذبح ليذبح ما أشتري منه كما هو عادتي ، فلما رأى معاملة الثيران بمثل ذلك الأمر البشع جاء يستجير بحمد الله تعالى حيث لم يجعله ثوراً في بلاد الإفرنج ، وإلاّ لذاق العذاب كالثيران التي رآها . والعجول والثيران تكون من البقر ، إذ لا وجود للجواميس بهذه البلاد إلاّ للفرجة . وأما ذبح الطير فإنه على أنواع مختلفة ، فمنهم من يصنع فيها كالغنم ، ومنهم من يقطع لسان الطائر ، ومنهم من يخنقه بفتلة خيط ، ومنهم من يذبحه من قفاه ، إلى غير ذلك . وأما الأرانب فإنها لا تذبح أبداً ، بل تخنق ليحقن فيها دمها . وأما ذبح الخنازير فلم أره لأن له مذبحاً مخصوصاً ، والظاهر أنهم يصنعون بها كالعجول . ثم من الأمور التي بها راحة للناس بمدينة باريس محال الأكل المسماة الرسطوراي⁽⁵⁶⁾ اللوكنجة ، فإنها مستوفية لما يجده الإنسان في بيته ، بل أعظم . وقد يجد الإنسان ما يطلبه حاضراً . وفي هذه الرسطراطور غرف لطيفة متعدّدة مستوفية لآلات البيوت ، وربما يوجد فيها محال للنوم مفروشة بأعظم الفراش . وكما يوجد في الرسطراطور أنواع المأكّل والمشارب يوجد فيها أنواع الفواكه والنقل وعادة الفرنسية الأكل في أطباق كالأطباق العجمية أو الصينية لا في أنية النحاس أبداً ويضعون على السفرة دائماً كل إنسان شوكة وسكيناً وملعقة والشوكة والملعقة من الفضة ويرون أن من النظافة أو الشلينة أن لا يمس الإنسان الشيء بيده وكل إنسان له طبق قدّامه بل وكل طعام له طبق وقدّام الإنسان قدح فيصب فيه ما يشربه من قزازه عظيمة موضوعة على السفرة ثم يشرب فلا يتعدّى أحد على قدح الآخر ، وأواني الشرب دائماً من البلور والزجاج وعلى السفرة عدّة أوان صغيرة من الزجاج أحدها فيه ملح والآخر فيه فلفل وفي الثالث خردل إلى آخره ، وبالجملّة فأداب سفرتهم وترتيباتها عظيمة جداً وابتداء المائدة عندهم الشورية واختتامها الحلويات والفواكه والغالب في الشراب عندهم النبيذ على الأكل بدل الماء وفي الغالب خصوصاً لأكابر الناس أن يشرب من النبيذ قدرا لا

(56) الرسطوراي : Restaurant : مطعم ، أما اللوكنجة فلعلها من لوكاندا : فندق بالترجمة العامة .

يحصل به سكر أصلاً فإن السكر عندهم من العيوب والرزائل وبعد تمام الطعام ربما شربوا شيئاً يسيراً من العرقي ثم أنهم مع شربهم من هذه الخمر لا يتغزلون بها كثيراً في أشعارهم وليس لهم أسماء كثيرة تدل على الخمرة كما عند العرب أصلاً فهم يتلذذون بالذات والصفات ولا يتخيلون في ذلك معاني ولا تشبيهات ولا مبالغات نعم عندهم كتب مخصوصة متعلقة بالسكرارى وهي هزليات في مدح الخمرة لا تدخل في الأدبيات الصحيحة في شيء أصلاً ويكثر في باريس شرب الشاي عقب الطعام لأنهم يقولون أنه هاضم للطعام ومنهم من يشرب القهوة مع السكر وفي عوايد أغلب الناس أن يفتتوا الخبز في القهوة المخلوطة باللبن ويتعاطوها في الصباح . وإذا أردت بعض شيء يتعلق بالمأكل والمشرب ، فراجع فصل المأكل والمشرب في ترجمتنا قلائد المفاخر . ثم إن الغالب أن ما يقطعه أهل هذه المدينة من المأكل والمشرب كل سنة يكون هذا تقريبه : فمن الخبز ما تزيد قيمته على خمسة وثلاثين مليوناً من الفرنكات ، وتأكل من اللحوم نحو واحد وثمانين ألف ثور وأربعمائة وثلاثين ثوراً ، ومن البقر نحو ثلاثة عشر ألف بقرة ، ومن الضأن أربعمائة وسبعين ألف كبش ، ومن الخنازير الوحشية والأهلية نحو مائة ألف خنزير ، ومن السمن بنحو عشرة ملايين من الفرنكات ، ومن البيض بنحو خمسة آلاف فرنك . ومن غرائب الأشياء أن فيها التحيل على عدم عفونة الأشياء التي من شأنها العفونة . فمن ذلك ادخار اللبن بكيفية خاصة خمس سنين من غير تغير ، وادخار اللحم طرياً عشر سنوات ، وادخار الفواكه لوجودها في غير أوانها . ومع كثرة تفننهم في الأطعمة والفظورات ونحوها ، فطعامهم على الإلاق عديم اللذة ، ولا حلاوة صادقة في فواكه هذه المدينة ، إلا في الخوخ . وأما خماراتها فإنها لا تحصى ، فما من حارة إلا وهي مشحونة بهذه الخمارات ، ولا يجتمع فيها إلا أرذل الناس وحرافيشهم مع نسائهم ، ويكثرون الصباح وهم خارجون منها بقولهم ما معناه الشراب الشراب . ومع ذلك فلا يقع منهم في سكرهم أضرار أصلاً ، وقد اتفق لي ذات يوم وأنا مار في طريق في باريس أن سكران صاح قائلاً : يا تركي يا تركي ، وقبض بشيبي . وكنت قريباً من دكان يباع فيه السكر ونحوه ، فدخلت معه وأجلسته على كرسي ، وقلت لرب الحانوت على سبيل المزح هل تريد أن تعطيني بثمان هذا الرجل سكرأ أو نقلاً؟ فقال صاحب

الخانوت : ليس هنا ، مثل بلادكم ، يجوز التصرف في النوع الإنساني . فما كان جوابي له إلا أنني قلت : إن هذا الشخص السكران ليس في هذا الحال من قبيل الآدميين . وهذا كله والرجل جالس على الكرسي ، ثم تركته بهذا المحل وذهبت .



الفصل السادس

في ملابس الفرنسيين

من المعروف عندنا أن غطاء رأس الإفرنج البرنيطة ، وأن نعالهم في الأكثر الصرم السوداء والتاسومات ، وأن لباسهم في الغالب هو الجوخ الأسود . وأما الفرنساوية ، فإنهم في الغالب أيضاً على هذا الملبس ، إلا أنهم لا يلزمون ملبساً خاصاً ، بل كل إنسان يلبس باختياره ما تأذن له العادة بلبسه . والغالب أن لبسهم ليس له زينة ، وإنما هو في غاية النظافة . ومن العوايد العظيمة انتشار لبس القمصان والألبسة والصدريات تحت ملابسهم ، فإن الموسر يغير في الأسبوع عدة مرات ، وبهذا يستعينون على قطع عرق الواغش⁽⁵⁷⁾ ، فلذلك كان لا أثر للقمل ونحوه إلا عند من اشتد به الفقر . وملابس النساء ببلاد الفرنسيين لطيفة بها نوع من الخلاعة ، خصوصاً إذا تزين بأعلى ما عليهن ، ولكن ليس لهن كثير من الحللي ، فإن حليهن هو الحلق المذهب في أذانهن ، ونوع من الأساور الذهب يلبسنه في أيديهن خارج الأكمام ، وعقد خفيف في أجيادهن ، وأما الخلاخل فلا يعرفنها أبداً . ولبسهن في العادة الأقمشة الرقيقة من الحرير أو الشيت أو البفت الخفيف ، ولهن في البرد شريط فروة فيضعنه على رقابهن ، ويرخين طرفيه كالمآزر حتى يصل بطرفيه إلى قرب القدمين . ومن عوايدهن أن يحتزمن بحزام رفيع فوق أثوابهن ، حتى يظهر الخصر نحيفاً ، ويبرز الردف كثيفاً . وما أنشد الحاجري في ديوانه ، وإن كان فيه خروج ، قوله :

(57) الواغش (في لسان العرب) : القمل والصئبان في شعر الإنسان وبدنه .

ومزني يا ليتني أستاذه
كيما أفوز بضمة من خصره
القس يسقيه شبيهة خده
والمسلمون بأسرهم في أسره
فوحقه لولا رشاقة قدّه
مارق إسلامي لشدة كفره

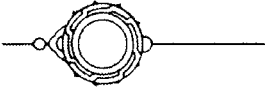
ومن العجائب أنه يمكن الإنسان أن يضع في الخصر وقت الحزام فتري يديه
لدقته⁽⁵⁸⁾. ومن خصال النساء أن يشبكن بالحزام قضيباً من صفيح ، من البطن إلى
آخر الصدر ، حتى يكون قوامهن دائماً معتدلاً لا اعوجاج به ، ولهنّ كثير من الحيل .
ومن خصالهنّ التي لا يمكن للإنسان أن لا يستحسنها منهنّ ، عدم إرخائهنّ الشعور
كعادة نساء العرب ، فإن الفرنسيين يجمعون الشعور في وسط رؤوسهنّ ، ويضعن فيه
دائماً مشطاً ونحوه . ومن عوايدهنّ في أيام الحرّ كشف الأشياء الظاهرية من البدن ،
فيكشفن من الرأس إلى ما فوق الثدي حتى إنه يمكن أن يظهر ظهرهنّ ، وفي ليالي
الرقص يخلعن عن أذرعتهنّ . وبالجملّة ، فلا يعدّ ذلك من الأمور المخلة عند أهل هذه
البلاد . ولا يمكن لهنّ أبداً كشف شيء من الرجلين ، بل هنّ دائماً لابسات
للشرابات الساترة للساقين ، خصوصاً في الخروج إلى الطرق . وفي الحقيقة سيقانهنّ
غير عظيمة أصلاً ، فلا يصلح لهنّ قول الشاعر⁽⁵⁹⁾ :

لم أنسه إذ قام يكشف عامداً
عن ساقه كاللؤلؤ البراق
لا تعجبوا إن قام فيه قيامتي
إن القيامة يوم كشف الساق
وملابس الحزن عند الفرنسيين هي علامة حزن تلبس مدة معلومة ، ولها محل

(58) هذه الجملة ملتبسة ، ودقة الحزام ليست من العجائب . ولعل المقصود أن الحزام من النابيلون
الشفاف .

(59) الشاعر ذو الرمة (77 - 117هـ/696 - 735) : غيلان بن عقبة العدوي ، من مضر .

معلوم . فالرجل يضع علامة الحزن في برنيطته مدّة معلومة ، والمرأة في ثيابها ، والولد على فقد أبيه وأمه يلبس علامة الحزن ستة أشهر ، وعلى فقد الجدّة أربعة أشهر ونصفاً ، والزوجة على فقد الزوج سنة وستة أسابيع ، وعلى فقد الزوجة ستة أشهر ، وعلى فقد الأخ أو الأخت شهرين ، وعلى فقد الخال والخالات أسبوعين . ثم إن ما يباع في باريس من الجوخ كل سنة بنحو مليون من الفرنكات تقريباً ، ومن الحرير بثلاثة مثليين من الفرنكات ، ومن الفراوي بمليون من الفرنكات . ولعلّ السبب في ذلك هو أن الفراوي تشتري من خصوص باريس لأهل باريس . ومن المتداول عند الفرنسيّة استعمال الشعور الاستعارية لنحو الأقرع ورديء الشعر ، بل قد يستعملونها في اللحن والشارب للتقليد . وقد شاعت عندهم تلك العادة من زمن لويز الرابع عشر ، ملك فرنسا ، حيث أن هذا الملك كان يلبسها ولا يخلعها من رأسه أصلاً إلاّ عند النوم . ولا زالت إلى الآن مستعملة ، لكن للأقرع أو رديء الشعر . ومن الغريب أنها تستعمل في مصر بين نساء القاهرة .



الفصل السابع

في متنزهات مدينة باريس

اعلم أن هؤلاء الخلق ، حيث أنهم بعد أشغالهم المعتادة المعاشية ، لا شغل لهم بأمور الطاعات ، فإنهم يقضون حياتهم في الأمور الدنيوية واللهو واللعب ويتفننون في ذلك تفنناً عجيباً . فمن مجالس الملاهي عندهم محال تسمى التياتر (بكسر التاء المشددة وسكون التاء الثانية) والسبكتاكل ، وهي يلعب فيها تقليد سائر ما وقع . وفي الحقيقة أن هذه الألعاب هي جدّ في صورة هزل ، فإن الإنسان يأخذ منها عبيراً عجيباً ، وذلك لأنه يرى فيها سائر الأعمال الصالحة والسيئة ، ومدح الأولى وذم الثانية ، حتى إن الفرنسيّة يقولون إنها تؤدّب أخلاق الإنسان وتهذبها . فهي وإن كانت مشتملة على المضحكات ، فكم فيها من المبكيات . ومن المكتوب على الستارة التي ترخى ، بعد فراغ اللعب ، باللغة اللاتينية ما معناه باللغة العربية : «قد تصلح العوايد باللعب» . وصورة هذه التياترات أنها بيوت عظيمة ، لها قبة عظيمة وفيها عدّة

أدوار ، كل دور له أود موضوعة حول القبة من داخله ، وفي جانب من البيت مقعد متسع يطل عليه من سائر هذه الأود ، بحيث إن سائر ما يقع فيه يراه من هو في داخل البيت . وهو منور بالنجفات العظيمة ، وتحت ذلك المقعد محل للآلاتية . وذلك المقعد يتصل بأروقة ، فيها سائر آلات اللعب وسائر ما يصنع من الأشياء التي تظهر ، وسائر النساء والرجال المعدة للعب . ثم إنهم يصنعون ذلك المقعد كما تقتضيه اللعبة ، فإذا أرادوا تقليد سلطان مثلاً في سائر ما وقع منه ، وضعوا ذلك المقعد على شكل سراية ، وصوّروا ذاته وأنشدوا أشعاره ، وهلم جرّاً . ومدة تجهيز المقعد يرخون الستارة لتمنع الحاضرين من النظر ثم يرفعونها ويبتدئون باللعب . ثم إن النساء اللاعبات والرجال يشبهون العوالم في مصر . واللاعبون واللاعبات بمدينة باريس أرباب فضل عظيم وفصاحة ، وربما كان لهؤلاء الناس كثير من التأليف الأدبية والأشعار . ولو سمعت ما يحفظه اللاعب من الأشعار وما يبدية من التوريات في اللعب وما يجاوب به من التنكيت والتبكيت لتعجبت غاية العجب . ومن العجائب أنهم في اللعب يقولون مسائل من العلوم الغربية والمسائل المشكلة ، ويتعمقون في ذلك وقت اللعب حتى يظن أنهم من العلماء ، بل الأولاد الصغار التي تلعب تذكر شواهد عظيمة من علم الطبيعيات ونحوها . ثم إنهم يبتدئون اللعب بالآلات الموسيقى ، ثم يلعبون ما يريدون لعبه . واللعبة التي تظهر تكتب في ورقة وتلصق في حيطان المدينة ، وتكتب في التذاكر اليومية ليعرفها الخاص والعام . وفي الليلة يلعبون لعبات ، وبعد فراغ كل لعبة ترخى الستارة . فإذا أرادوا مثلاً لعب شاه العجم ، ألبسوا لاعبا لبس ملك العجم وأحضره وأجلسوه على كرسي ، وهكذا . وهذه السبكتاكلات يصورون فيها ما يوجد ، حتى إنهم قد يصورون فرق البحر لموسى عليه السلام ، فيصورون البحر ويجعلونه يتماوج حتى يشبه البحر شبهها كلياً . وقد رأيت مرة في الليل أنهم ختموا التياتر بتصوير شمس وتسييرها وتنوير التياتر بها ، حتى غلب نور هذه الشمس على نور النجف ، حتى كأن الناس في الصباح ، ولهم أشياء أغرب من هذا . وبالجملة ، فالتياتر عندهم كالمدسة العامة يتعلم فيها العالم والجاهل . وأعظم السبكتاكلات في مدينة باريس المسماة الأوبرة (بضم الهمزة وتشديد الباء المكسورة وفتح الراء) ، وفيها أعظم الآلاتية وأهل الرقص ، وفيها الغناء

على الآلات والرقص بإشارات كإشارات الأخرس تدل على أمور عجيبة . ومنها تياتر تسمى أوبره كوميك ، فيغنى فيها الأشعار المفرحة . وبها تياتر تسمى التياتر الطليانية ، وبها أعظم الآلاتية وفيها تنشد الأشعار المنظومة باللغة الطليانية . وهذه كلها من السبكتاكلات الكبيرة وفي باريس سبكتاكلات أخرى وهي مثل تلك إلا أنها صغيرة . وهناك أيضا سبكتاكلات يلعبون فيها الخيل والفيلة ونحوها ، ومنها التياتر المسماة تياتر فنكوني (بكسر الفاء وفتح الراء وسكون النون وضم الكاف وكسر النون الثانية) وفيها فيل مشهور بالألعاب الغريبة ، معلم تعليما عجيبا . وكما أن أكبر التياترات الأوبرة ، فأصغرها تياتر تسمى تياتر الكمت ، وهي معدة لنزاهة الصغار كالحلوى في مصر . والكمت اسم معلم هذه السبكتاكل ، وكل اللاعبين واللاعبات صغار السن . وهذه التياتر يوجد بها كثير من الشعبثيات والسيم⁽⁶⁰⁾ ونحوها . ولولم تشتمل التياتر في فرنسا على كثير من النزعات الشيطانية ، لكنت تعد من الفضائل العظيمة الفائدة . فانظر إلى اللاعبين بها ، فإنهم يحترزون ما أمكن عن الأمور التي يفتتن بها ، المخلّة بالحياء . ففرق بعيد بينهم وبين عوالم مصر ، وأهل السماع ونحوهم . ولا أعرف اسما عربيا يليق بمعنى السبكتاكل أو التياتر ، غير أن لفظ سبكتاكل معناه «منظر» أو «متنزه» أو نحو ذلك . ولفظ تياتر ، معناه الأصلي كذلك ، ثم سمي بها اللعب ومحلّه ، ويقرب أن يكون نظيرها أهل اللعب المسمى خياليا ، بل الخيالي نوع منها ، وتشتهر عند الترك باسم كمدية . وهذا الاسم قاصر إلا أن يتوسع فيه ، ولا مانع أن تترجم لفظة تياتر أو سبكتاكل بلفظ خيالي ، ويتوسع في معنى هذه الكلمة ويقرب من تصوير السبكتاكل أو هو موضع منها ، يصوّر فيه للإنسان منظر بلد أو أرض أو نحو ذلك . فمن ذلك بانورامه ، وهو محل تنظر فيه فترى المدينة التي تريد تصويرها . ففي صورة مصر ترى كأنك على منارة السلطان حسن مثلاً ، والرميلة تحتك وباقي المدينة . ومنها كسمورمه ، وفيه صورة بلدة ثم أخرى ، وهكذا . ومنه ديورمه ، وفيه صورة دار . ومنها أورانورمه وفيه صورة الفلك الأعظم وسائر ما يحتوي عليه ،

(60) الشعبثة أو الشعبذة : الشعوذة ، ولعل الكلمة الأولى منحوتة من الشعوذة والعبث . والسيم : الأعيب

مصوراً على مذهب الإفرنج ؛ فالتفرّج فيه يمكنه أن يطالع علم الفلك . ومنها أوروربرمه ، وفيه صورة بلاد الإفرنج . ومن المتنزهات محال الرقص المسماة البّال ، وفيه الغناء والرقص . وقل أن دخلت ليلاً في بيت من بيوت الأكابر ، إلّا وسمعت به الموسيقى والمغنى . ولقد مكثنا مدة لا نفهم لغنائهم معنى أصلاً ، لعدم معرفتنا بلسانهم . ولله درّ من قال في مثل هذا الأمر :

ولم أفهم معانيها ولكن
شجت كبدي فلم أجهل شجاها
فكنت كائنني أعمى معنى
بحب الغانيات ولا يراها

والبال قسمان : بال عام ويدخله سائر الناس كالبال في القهاوي والبساتين ، وبال خاص وهو أن يدعو الإنسان جماعة للرقص والغناء والنزّهة ونحو ذلك ، كالفرح في مصر . والبال دائماً مشتمل على الرجال والنساء ، وفيه وقداث عظيمة وكراسي للجلوس ، والغالب أن الجلوس للنساء ولا يجلس أحد من الرجال إلّا إذا اكتفت النساء . وإذا دخلت امرأة على أهل المجلس ، ولم يكن ثم كرسي خال ، قام لها رجل وأجلسها ، ولا تقوم لها امرأة لتجلسها ؛ فالأنثى دائماً في المجالس معظمة أكثر من الرجل . ثم إن الإنسان إذا دخل بيت صاحبه ، فإنه يجب عليه أن يحيي صاحبة البيت قبل صاحبه ، ولو كبر مقامه ما أمكن ، فدرجته بعد زوجته أو نساء البيت . ومن المتنزهات جمعية النساء كضمة مصر إلّا أن فيها دائماً آلات الموسيقى والغناء والرقص . وبين كل نوبة من الموسيقى والغناء يقسم على الحاضرين بعض مطعومات ومشروبات خفيفة . وبالجملّة ، فالموسيقى بالأصالة والشراب الخفيف بالتبعية هما حظ هذه المجالس ، كما قال الشاعر⁽⁶¹⁾ :

هل العيش إلّا ماء كرم مصفق
ترقرقه في الكأس ماء غمام

(61) البحري (206 - 284هـ/696 - 735م) : أبوعبادة الوليد بن عبيد الطائي .

وعود بنان حين ساعد شدوه

على نغم الأوتار ناي زنام

وقد قلنا إن الرقص عندهم فن من الفنون وقد أشار إليه المسعودي في تاريخه المسمى مروج الذهب ، فهو نظير المصارعة في موازنة الأعضاء ودفع قوى بعضها إلى بعض ، فليس كل قوي يعرف المصارعة ، بل قد يغلبه ضعيف البنية بواسطة الحيل المقررة عندهم ، وما كل راقص يقدر على دقائق حركات الأعضاء . وظهر أن الرقص والمصارعة مرجعهما شيء واحد يعرف بالتأمل . ويتعلق بالرقص في فرنسا كل الناس ، وكأنه نوع من العياقة والشلابة لا من الفسق . فلذلك كان دائماً غير خارج عن قوانين الحياء ، بخلاف الرقص في أرض مصر فإنه من خصوصيات النساء ، لأنه لتهييج الشهوات . وأما في باريس ، فإنه نمط مخصوص لا يشم من رائحة العهر أبداً . وكل إنسان يعزم امرأة يرقص معها ، فإذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة الثانية وهكذا ، وسواء كان يعرفها أو لا . وتفرح النساء بكثرة الراغبين في الرقص معهن ، ولا يكفينهن واحد ولا اثنان ، بل يحبن رؤية كثير من الناس يرقصن معهن لسامة أنفسهن من التعلق بشيء واحد ، كما قال الشاعر :

أيا من ليس يرضيها خليل

ولا ألفا خليل كل عام

أراك من بقية قوم موسى

فهم لا يصبرون على طعام

وقد يقع في الرقص رقصة مخصوصة بأن يرقص الإنسان ويده في خاصرة من ترقص معه ، وأغلب الأوقات يمسكها بيده . وبالجمل ، فمس المرأة أياً ما كانت ، في الجهة العليا من البدن ، غير عيب عند هؤلاء النصارى . وكلما حسن خطاب الرجل مع النساء ومدحهن عدّه هذا من الأدب . وصاحبة البيت تحيي أهل المجلس . ومن النزّه ، المواسم العامة التي تصنع في الصيف ، ومبناها على الرقص والآلات وتسييب البارود ونحو ذلك . ومن المواسم العامة عندهم أيام تسمى أيام الكرنوال ، وتسمى عند قبطة مصر أيام الرفاع ، وهي عدة أيام يرخص لسائر الناس فيها سائر التقليدات والتشكلات ، فيتشكل الرجل بشكل امرأة والمرأة في صورة رجل ، ويتراءى الخواجة

في صورة راع ونحو ذلك . وبالجملـة فيباح سائر ما لا يضرّ براحة المملكة وانتظامها . ويقول الفرنسيـة إن هذه الأيام أيام جنون . ويدور بهذه البلدة فحل ، أسمن فحول فرنسا ، في موكب عظيم مدّة أيام الزفر الثلاثة ، ثم يذبـحونه ويعطون لصاحبه بخشيشاً في نظير تسمينه له حتّى يسمن سائر الناس عجولهم . ومن متنزهات باريس الحدائق العظيمة العامة ، ففي باريس نحو أربعة بساتين كبرى يتماشى فيها العام والخاص ، فمنها حديقة التولري التي بها قصر الملك ، وهي من أعظم المتنزهات التي يدخلها المتجملون من الناس ، ويحجز الأسافل من دخولها فكأنها مصداق قول بعض الظرفاء :

لو كنت أملك للرياض صيانة

يوماً لما وصل اللثام ترابها

ومنها حديقة تسمى الشمزليزه ، ومعناه بالعربية رياض الجنة ، وهي من أرق المتنزهات وأنضرها . وهي بستان عظيم يبلغ أربعين أرباناً ، والأربان هو قياس يقرب من الفدان . ومع أن طول طريقها نحو ألف قامة ، فإنها موضوعة بحيث أنك إذا مددت نظرك رأيت طرفها الثاني قدّام عينيك . وفي هذه الروضة العظيمة دائماً شيء من الملاهي لا يمكن حصره ، وسائر أشجار هذا البستان متصافة متوازية بعضها مع بعض رتبت بحيث أنه يوجد مدخل من كل الجهات ، فهو على سمت الخطوط المستقيمة من سائر الجهات . وفي وسط كل جملة من الأشجار يوجد محل مربع ، وهذه الحديقة يتصل أحد جوانبها بنهر السين وبينها وبينه رصيف وجانبها الآخر بيوت بأطراف الخلاء ، وفيها كثير من القهاوي والرسطاطورات ، يعني بيوت الأكل ، وفيها سائر أنواع الطعام والشراب ، وهي مجمع الأحباب والأكابر ، وبها كثير من المرامح للخيـل ، ويدخل فيها الأكابر بالعربات المزينة ، وفيها عدّة آلاف من الكراسي بالأجرة ، يجلس عليها في زمن الربيع نهاراً وفي زمن الصيف ليلاً . وأعظم اجتماع الناس فيها يوم الأحد ، فإنه يوم البطالة عند الفرنسيـة . وبالجملـة فهذه الحديقة محل المواسم والأفراح العامة والزينات ، وبها تتماشى سائر النساء الجميلات . ومن المتنزهات المحال المسماة البلوار وهي الأشجار المتصافة المتوازية ، وقد أسلفنا بيانها ، وهي محل يتماشى فيه سائر الناس في سائر الأيام ، وفيه أعظم قهاوي باريس وتدور

فيه الآلاتية المتنقلون بالآلاتهم ، وفيه كثير من محال التيارات . وبه أيضاً تدور النساء اللواتي يتعرّفن بالرجال ، سيما بالليل . فهو في جميع الليالي وفي ليلة الاثنين ، يحوي كثيراً من الناس ، فترى فيه كل عاشق مع معشوقته ، ذراعه في ذراعها إلى نصف الليل ، ويصلح هنا قول الشاعر⁽⁶²⁾ :

لا تلق إلاّ بليل من تواصله
فالشمس نامة والليل قوَاد
كم عاشق في ظلام الليل يستره
لاقى الأحبة والواشون رقاد

وقال آخر :

أيها الليل طر بغير جناح
ليس للعين راحة في الصباح
كيف لا أبغض الصباح وفيه
بان عني أولو الوجوه الملاح
ولا يمدح الليل إلاّ من ترقب فيه وصال محبوبته ، وتفقد فيه نيل مطلوبه ، بخلاف من كثر فيه حرقه ، وزاد أرقه ، وطال سهاده ، وطار رقاده ، فإنه يهوى الصباح ، ليذهب همه ويرتاح .
قال الشاعر⁽⁶³⁾ :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي
بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيا لك من ليل كأن نجومه
على صفحات الجوّ شدت ببذبل

(62) ابن المعتز (247-296هـ/861-908م) : عبد الله بن محمد المعتز ابن المتوكل العباسي ، حكم يوماً ليلة وقتل .

(63) امرؤ القيس (130-80 ق. هـ/496-544 م) : ابن حجر بن الحارث الكندي ، والشاهد من معلقته .

وقال آخر :

ليلي وليلي نفى نومي اختلافهما
بالطول والطول يا طويى لو اعتدلا
يجود بالطول ليلي كلما بخلت
بالطول ليلي وإن جادت به بخلا
وقال من يشكو من الليل⁽⁶⁴⁾ :

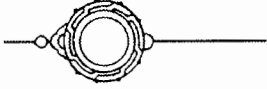
يا ليل طل أو لا تطل
لا بد لي أن أسهـهـرك
لو كان عندي قمـري
ما بت أرمي قمـرك
وقال آخر مثله⁽⁶⁵⁾ :

يا ليل طل يا شـوـقي دم
إني على الحالين صابر
لي فيك أجر مجاهد
إن صح أن الليل كافـر

وهذا أيضاً من باب الشكوى . ومن المتنزهات أيضاً سوق تباع فيه الأزهار ، وفي هذا السوق تجد سائر الأشجار والنباتات والأزهار الغريبة النادرة ، ولو في غير أوانها حتى إن الإنسان يمكنه أن يجدد بستاناً في يوم واحد ، بأن يشتري سائر ما يحتاجه ثم يزرعه في يوم . وبالجملـة ، فلا يمكن أن الإنسان يتمتع بهذه المتنزهات إلا بصحة البدن .

(64) ابن زيدون (394-463هـ/1004-1071م) : أبو الوليد أحمد بن عبد الله الخزومي الأندلسي .

(65) البهاء زهير (581-656هـ/1186-1258م) : زهير بن محمد بن علي المهلبى المكي .



الفصل الثامن

في سياسة صحة الأبدان بمدينة باريس

لما كان من ضروريات الحكمة الاعتناء بحفظ صحة الأبدان ، وكان الإفرج أحكم الأمم ، كثر اعتناؤهم بهذا الفن وبتكميل آياته ووسائله ، وكانوا أشد الناس مسارعة لما فيه نفع للبدن كالحمامات والحمام الباردة المياه ، وترييض الجسم وتعويده على الأمور الشاقة كالعموم ، وركوب الخيل ، والألعاب التي يخف بها البدن . والحمامات في باريس متنوعة ، وفي الحقيقة هي أنظف من حمامات مصر ، غير أن حمامات مصر أنفع منها وأتقن وأحسن في الجملة . وذلك أن الحمام في مدينة باريس عدة خلوات ، في كل خلوة مغطس من نحاس يسع الإنسان فقط ، وفي بعض الخلوات مغطسان ، وليس عندهم مغطس عام كما في مصر . ولكن هذه العادة أسلم بالنسبة للعورة ، فإنه لا طريقة أن يطلع الإنسان على عورة آخر ، حتى إن الخلوة التي فيها مغطسان ، بين كل مغطس ستارة تمنع أن ينظر الإنسان صاحبه . وليس في دخول الإنسان هذه المغاطس الصغيرة لذة كالدخول في الحمامات ، ولا يعرق الإنسان بها أبداً ، إذ الحرارة لا توجد إلا في المغطس لا في الخلوة أبداً ، وإن كان يمكن أن يوصي الإنسان على حمام البخار فإنهم يصنعون له ذلك ، ولكن بضمن آخر غير الثمن المعتاد . وفي الحمام صفان من الخلوي ، صف للرجال وصف للنساء . وكما أنه يوجد حمامات مستقرة ، يوجد حمامات منقولة ، فإذا طلب الإنسان حماماً في بيته أو كان مريضاً أو نحو ذلك ، فإنهم يحملون إليه في عربة كالبرميل ، الماء البارد في شقة والساخن في أخرى ، ومعها محم فيوضع اللحم في بيت الإنسان ، ويملاً من الماء المسخن فيغتسل الإنسان منه ، ثم بعد فراغه يحملونه إلى بيت الحمام . ومن الحمامات حمام يضع فيه الإنسان بعض بدنه لبعض الأمراض ، فيسمى نصف حمام . والحمامات بباريس كثيرة ، وأشهرها ثلاثون حماماً تقريباً . ومن أمور الرياضيات النافعة لصحة البدن مدارس يتعلم فيها علم السباحة ، وهي ثلاثة مكاتب على نهر السين . ومنها مدارس لتخفيف البدن وجعله قابلاً للأشياء العجيبة كالبهلوانية والمصارعة ونحو ذلك .



الفصل التاسع

في الكلام على اعتناء باريس بالعلوم الطبية

اعلم أن مدينة باريس هي أعظم مدن الإفرنج التي يرحل إليها الغرباء لتعلم العلوم ، خصوصاً العلوم الطبية . وقد ينتقل إليها المرضى من بلاد بعيدة للبحث عن تدابيرهم فيها . والعلوم الطبية ، التي تسمى أيضاً علم الحكمة ، هي علم الطب والجراحة والتشريح وفن الفيسيولوجيا ، ومعرفة داء الإنسان من حاله ، وسياسة الصحة لحفظها ، وتطبيب الحيوانات وغير ذلك . والحكماء في باريس كثيرون جداً حتى يوجد في كل خط عدة حكماء ، بل الطرق مملوءة من الحكماء ، حتى إن الإنسان إذا أصيب في الطريق بداء فإنه لا بد أن يجد الحكيم حالاً لكثرة الحكماء بهذه البلدة . ووضع المرضى بالنسبة للأطباء مختلف ، فمن المرضى من يطلب الطبيب ليزوره عنده ، وللحكيم قدر معلوم على كل مرة يأتيها إليه . ومن المرضى من يذهب إلى الطبيب في بيته ، وللطبيب ساعات معينة يمكث فيها قصداً في بيته لتلقي الناس . ومن المرضى من ينتقل مدة معينة في بيت يسمى بيت الصحة ، معداً لمن يدفع قدراً معيناً في نظير أكله وشربه وسكنه وتطبيب بدنه وخدمته ونحو ذلك . وفي باريس بيوت حكماء معدة لمن ابتلي بخلل شيء من عظام البدن كالاحديداب ، فإنه يدخل بيتاً من هذه البيوت للتطبيب ، فيقومون بدنه بشيء من علم الحيل . كما إذا كان الإنسان مقطوع أحد الأطراف ، فإنهم يجبرون ذلك بأن يضعوا له من المعدن أو الخشب شيئاً في محله . وفي هذه المدينة أيضاً بيوت يدخل فيها النساء الحوامل المشرفات على الولادة ليلدن فيها ويقضين فيها مدة النفاس ، وفي هذه البيوت توجد القوابل وسائر ما يحتاج إليه في الولادة . ومن المواضع المعدة للمرضى والتي يوجد فيها الأطباء المارستانات العامة ، فتدخلها المرضى للعلاج وإقامة مدة المرض بلا عوض . ثم إن الأطباء في باريس فرقتان ، إحداهما أطباء عامة لمطلق الأمراض على تنويعها ، والأخرى لداءات خاصة ، وذلك أن علم الطب متسع جداً ، فقل أن يشتغل إنسان بسائر فروعه ويحققها . فاحتاج أطباء الفرنساوية

إلى أن الطبيب ، بعد أن يقرأ فروع العلوم الطبية ، ينبغي له أن يختار منها فناً ليصرف فيه همهته ويتقوى فيه ويتبحر ، حتى يشتهر ويمتاز عن غيره من الأطباء بتحقيق ذلك الفن ، حتى يجلب إليه من به داء يدخله شيء من ذلك الفن . فلذلك يوجد في باريس أطباء ، مثلاً ، لخصوص مرض الرئة ، وأطباء لمرض العين تسمى المكحلائية ، وأطباء لأمراض الأذنين وأطباء لداء الأنف وتجبيره ، حتى أن من أطباء الأنف من يمكنه بالحيلة أن يرجع الأنف المجدوع صحيحاً . وفي باريس أطباء تستعمل جاذبية المغناطيس الإنسانية للاستعانة على مداواة الإنسان . وتفصيل ذلك أن في باريس جماعة من الطبائية تزعم أنه ثبت عندهم أن بدن الإنسان يشتمل على مادة سيالية ، يعني جاذبية المغناطيس الإنسانية ، يعني أن هذه المادة لها خاصية المغناطيس . وتحصل هذه بتقريب اليد عدة مرات كاللمس ، فينعس الإنسان أو تغيب حواسه حتى لا يحس بشيء ، فإذا غاب وكان مريضه بمرض شديد ، عاجله الحكماء بقطع شيء أو بفتح شيء من بدنه ، من غير أن يشعر بشيء أبداً . وقد جرب ذلك في قطع ثدي امرأة بعد مغناطيسيتها ، فمكثت عدة أيام ثم ماتت ، فقال علماء المغناطيسية إنها ماتت بسبب آخر لا باللمس القطع ، فإنها عاشت بعده . فالمعالجة بالمغناطيسية نافعة لمعالجة الأمراض العصبية . وفي باريس أيضاً حكماء لخصوص مداواة خلل العقل ، أو لألم أعضاء التناسل ، أو الحصوة ، ولخصوص الأمراض الجلدية المنفرة وغيرها كالجدام والجرب . وفي باريس أيضاً حكماء لتوليد النساء ، فإن العادة أيضاً في باريس أن المرأة يولدها رجل حكيم عارف بأمور الولادة . وبها حكماء لمعالجة البياضة التي تنزل بالعين ، والماء الذي يعميها . وبها حكماء لأوجاع الصدر ، وداء الفالج الذي هو شلل بعض الأعضاء ، فيداوونه بعلاج يسمى الإكمبكتور (بكسر الهمزة والكاف وسكون الميم وضم الباء وسكون الكاف وضم التاء) يعني شكات دبائيس كثيرة دقيقة ، فيخرجون بذلك شيئاً من الدم لتخفيف ضرر هذا الداء . وبها حكماء لعلاج اختلال خلقة الإنسان ، وهذا العلاج يسمى الأرتوبيدي (بضم الهمزة وسكون الراء وضم التاء وكسر الباء وسكون الياء وفتح الدال) يعني فن إصلاح خلل أعضاء الأطفال . فمن الحكماء من يصلح خلل الفم أو الوجه ، ومنهم من يشتغل بتدبير الأعضاء الناقصة لسدّ خللها بأعضاء أخرى مدبرة . ثم إن فروع

العلوم الطبية كثيرة ، فالمشهور منها فن التشريح ، وفن تمييز أمراض الإنسان من حال طبيعته ، وفن الكيمياء العقاقيرية ، وفن أسباب الأمراض الباطنية الطبية ، وعلم الجراحة الطبية ، ووضع العصابة على الجراح والتضميد بالمراهم ، وفن تطبيب ملازم الفراش المبتلى بأمراض ظاهرية ، وفن تطبيب ملازم الفراش المبتلى بأمراض باطنية ، وفن معالجة النفساء وتوليد الحامل ، وعلم الطبيعة التي تدخل الطب ، وعلم العقاقير والأدوية المفردة أو المركبة ، وصناعة المعالجة ومباشرة المريض . ومدارس الحكمة بمدينة باريس منافعها شهيرة ، فمنها مدرسة كبيرة تسمى أكاديمية الحكمة السلطانية ، وهي ديوان الحكماء السلطانية ، وهي مجعولة لحاجة المملكة الفرنسية ومباشرة الأمراض العامة الضرر ، كالأضرار الوبائية والأمراض التي يعتقد الفرنسيون أنها معدية وكمريض فصل البهائم . ومن وظيفة علماء أكاديمية الحكمة معالجة سائر الناس بما تجعله المملكة موقوفاً على النفع العام ، كإشهار تلقيح البقري لإخراج الجدري ، وامتحان الأدوية الجديدة والأدوية المكتومة ، وامتحان الأدوية المعدنية الأصلية أو المصطنعة لإدخالها في الأدوية . وبالجملة ، فأهل هذه الجمعية السلطانية أعظم الحكماء الفرنسيين . ولنذكر هنا بعض ما يتعلق بمارستان باريس في فصل فعل الخير ، وقد أسلفنا بعض شيء من ذلك في الفصل السابق .

ولنذكر لك نبذة من فن قانون الصحة وتدبير البدن ، حتى تتم فائدة هذه الرحلة . وهذه النبذة ترجمتها في باريز لقصد استعمال جميع الناس بمصر لها لصغر حجمها ، فهي وإن كانت تخرجنا عما نحن بصدد ، إلا أن منفعتها عظيمة وثمرتها جسيمة .

نصيحة الطبيب

المادة الأولى . في وصية صحاح البدن :

لا شك أن الأطباء معتبرون بين الناس لشدة نفعهم عندهم . ومع ذلك فالأولى الاستغناء عنهم لأنهم رفقاء المرضى ، فلنحرص على حفظ أنفسنا من أسباب المرض ، ومن الاحتياج إلى الطبية . والدواء المجرب لمنع الاحتياج إليه هو اعتياد الكدِّ

والقناعة . ولنذكر لك بعض أمور آخر : الأول ، لا تسكن داراً مماسة لمزرعة مرتفعة أو داراً غائرة في الأرض يسيراً ، فإن كلا هذين الوضعين يجعل الدار رطبة ومضرة للصحة . فالعافية ، ولو كانت قوية ، تذهب فيهما على تداول الأيام . ارفع أرض بيتك بعض قراريط برمّل أو حصى أو طوب مسحوق أو ما أشبه ذلك ، وتجنب البناء في أرض مماسة لأرض أعلى منها . اجعل منافس الهواء إلى الجنوب الشرقي ، أي اجعله بين الشرق والجنوب ، فإن ذلك للصحة أسلم من جميع الأوضاع . الثاني ، الهواء المخزون يجلب الحمى المحرقة ، فوسع طاقاتك ليسهل فيها دخول الهواء والنور ، وافتحها في غالب الأحيان لأن البرد للصحة أوفق من الحرّ ، فأهل الجانب الشمالي حياتهم وصحتهم أبرك من أهل الجنوب ، والمريض يشفى في غرفة مفتوحة لسائر الرياح ، وربما هلك لو كان بجانب الحرارة . الثالث ، بركة الماء الراكدة إذا اشتدّ قربها من البيوت ، فإنه يتصاعد منها أبخرة لا تناسب الصحة ، بل تؤذيها أو ربما قتلت . وبسبب ذلك ترى بعض البلدان منتنا بالأوباء ، فاجتنب هذه الأشياء الجالبة للأمراض والأوجاع . الرابع ، السكر يرمى البدن ويحرقه ويسرع بالمشيب ، فنصيب من ينهمك على شرب الخمر وغيرها من المسكرات أن يصاب بداء الذبول ويقصر الأجل . الخامس ، من أسباب الأمراض اختلاف الزمن كتعاقب الحرّ والبرد ، ونزول المطر السريع أو نزوله بارداً في وسط الأيام الحارّة ، فأولى ما يطرد هذه الأمراض أن تلبس أزيد مما يقتضيه الفصل ، فالبس أثواب الشتاء قبل فراغ الخريف ولا تعجل خلعها عند دخول الربيع . وإذا ابتلّ بدنك كله بماء بارد فاغتسل بالماء الفاتر ، فإن لم يبتلّ إلا عضو فقط فاغسله وحده . السادس ، احذر إذا اشتدّ حرّك أن تمكث في موضع بارد أو تشرب ماء شديد البرودة ، وإلا فالعرق ينحبس حالاً ويتداخل في الباطن ، ويتسبب عن ذلك داء الخناق وورم الصدر والقولنج المحرق ، وغير ذلك . فإذا نفذ القضاء وابتلى بأحدها فالواجب تداركه لعله يخف . فأول ما تحس بمبادئ العلامات فضع القدمين في ماء هين الحرارة ، وطرّ بالماء الفاتر ظاهر المتألم من الخلق أو الصدر أو البطن ، واحتقن بالماء الفاتر المخلوط بيسير اللبن ، وتعاط الشورية التي صورتها أن تأخذ من زهر الخمان وتضعها في إناء خزف مع أوقية ونصف من جيد الخل ، ورش على الجميع قذح ماء مغلي ، وغط الإناء ودعها تبرد . فمتى بردت هذه الشورية فصفها بخرقه ، وذوّب فيها

أوقيتين من العسل . فإذا فعلت ذلك فقد غنمت ما حرمت منه الطبيب من الدراهم ، فإن ما تعطيه له منها ذاهب عن يدك ، وربما كان ذلك الطبيب لا يفيدك في هذا الداء شيئاً .

المادة الثانية . في الدلالة على ما يصنع حين أخذ المرض في الظهور :

اعلم أن كثيراً من الناس ، باعتناء فاسد ، يُريد أن يداوي المرضى فيهلكهم . فأول ما يبدو قليل من الحمى أو القيء ، فلا يجد أحسن من تعريق المريض ، فيضغطه تحت أغذية ثقيلة ويحجب عنه الهواء ، ويسقيه شوربة الخضراوات الحارة ، وربما سقاه خمراً حاراً أو حلواً . فهل من الأصحاء من يستطيع حمل ذلك؟ أو ليس أن هذا يمرض من ليس بمرضى؟ نعم ، قد يكون العرق به الشفاء ، لكن حين تكون الأمراض قد صدرت عند انحباسه أو بعد تقليل هذه وإزالتها بكثرة تعاطي الشوربات . وعلى كل حال فلا بد من إدخال الهواء اللين في موضع المريض ، لما أن حاجة الإنسان إلى الهواء كمحاجة السمك إلى الماء . الشوربات الحارة تزيد الحرارة التي تهلك المريض وتحرقه وتيبسه ، والخمر هو سم حقيقي في الحمى ، فعليك بخلاف ذلك من الشوربات الرطبة الباردة ، فإنها تذيب الأخلاط المنفسدة وتسهل خروجها ، وتجفف الحرارة وتنظف المعدة . وبعض الناس يريد أن يردّ العافية لذي العي فيعطيه المرق فيضاعف ألمه ، مع أن الحقيقة المقررة عند أكابر الأطباء أن المريض الذي به خميرة المعدة ، كلما أعطوه من الأغذية زاد ضعفه . وهذه الأغذية إذا انفسدت بالأخلاط المعفونة التي تختلط معها في الجوف تنقلب مرضاً جديداً ، فما يتعين في شفاء المريض هو ما يضعف المرضى . ففي كل عشرين مريضاً يموتون في الأرياف ، فأكثر من الثلثين يمكن أن كان يشفى بلا شيء ، لو كان في موضع مستور من مضار الرياح ، وكان لا يشرب إلا ماء مبرداً ، ولكن لا مفر من القدر . وأغلب الأمراض الحادة والحميات يتقدمها أيما تشویش ، كيسير الخدر ، وقلة النشاط ، وعدم شهية الأكل ، ويسير ثقل المعدة ، والتعب وثقل الرأس ، والنعاس الثقيل عديم الراحة غير المصلح القوي ، بل وثقل الصدر والميل إلى البرودة وتيسر العرق غير المعتاد ، وانقطاع العرق المعتاد . وعند ذلك يتيسر تدارك أو تخفيف هذه الأمراض المضرّة بأربعة : الأول ، ترك



سائر الأشغال الشاقة والمداومة على الأشغال الهينة . الثاني ، تقليل أكل المغذيات أو اجتنابها ، لا سيما ترك اللحم والمرق والبيض والنبيد . الثالث ، إكثار الشرب يعني أن يشرب كل يوم قزاة فأكثر ، في كل نصف ساعة طاسة من الشربة المذكورة في المادة السابقة ، أو من الماء الفاتر المخلوط في كل قزاة ، إما بخمسة عشر أو بعشرين حبة من الملح المعتاد ، أو بفنجان خل أو بملاعق من العسل . الرابع ، الاحتقان بماء فاتر أو بهذا الدواء ، وهو أن تأخذ قبضتين من الحشائش أو من زهر الخبازي ، وتغمرهما وترش عليهما نصف قزاة ماء مغلي ، وتصفيها بخرقه ، وتضيف عليهما أوقية عسل .

المادة الثالثة . في الدلالة على ما يصنع حين ظهور المرض :

اعلم أنه ينبغ للمريض ، إذا تلبس بالبرودة أو العي أو الألم ، أن يلزم الفراش والجلوس ، وأن يتغطى زيادة عن عادته ، وأن يشرب في كل ربع ساعة فنجاناً من مسخن الشربة السابقة ؛ فلا بأس بتغطية المرضى حال بردهم ، ولكن لا بد من تخفيف الغطاء كلما خفت البرودة ، حتى يكون بمجرد انقطاعها ليس عليهم إلا الغطاء المعتاد . ثم إن بعض أهالي القرى يعتادون النوم على طراحة مكبوسة ريشاً ، ويتغطون بغطاء ثقيل من الزغب ، والحرّ الصادر عن الريش هو خطر على المحمومين . لكن لما اعتمد على ذلك ، يمكن اغتفار هذه العادة في بعض الأحيان ، إلا في مدة الحر واشتداد الحمى ، فليتخذ للنوم طراحات مكبوسة بالقش ، وللغطاء ملاحف أو أكسية أقل خطراً من الريش ، فهذا هو ما يريح المريض . وينبغي الحذر من تسخين هواء محل المريض ، ومن كثرة الناس واللغط ، ومن الكلام معه إلا على قدر الحاجة . وينبغي فتح طيقانه ، وأقله ربع ساعة في النهار وربع ساعة بالليل ، وينبغي مع فتح الطيقان فتح باب الغرفة ليتجدد الهواء . ولكن لا يعاد المريض عن جريان الأهوية ، فلتسحب عليه ستائر فراشه وليحجب عن الهواء بكفية أخرى . وفي زمن الحرّ ينبغي إبقاء طاقة من الطيقان مفتوحة ، ويحسن أيضاً تبخير غرفته بخل مطفي فوق نحو مجرفة حديد محممة . وينبغي في الهجير ، والمريض متعب بالهواء الحار ، أن يرش بلاط غرفته ، وأن يوضع فيها فروع غليظة من شجر الصفصاف ونحوه ، تغمس في إناء فيه ماء لتكون مسقية ، وليجتنب المريض تناول الأطعمة المغذية ، ولا يأكل إلا

يسيراً من خفيف الثريد المنضج ، أو الأرز المطبوخ بالماء مع يسير من الملح . ولا بأس في الصيف بالأثمار المستوية ، وفي الشتاء بالتفاح المنضج أو البرقوق والأجاص بعد تبييسهما وطبخهما . فهذه الأثمار إذا أكلت بلا إكثار منها تروي وتبرد وتصلح الصفراء المنفسدة الحارة ، فهي الأغذية اللائقة بالمحموم ، واستعمل الشراب الرطب والمبرد الذي ذكرناه سابقاً . ولا بأس أيضاً أن تضع في نحو قزازه الماء طاسة من عصير الفواكه التي ذكرناها قريباً ، وينبغي للمريض أن يشرب كل يوم قزازتين من ماء فأكثر ، وأن يتناول في المرة يسيراً ، ففي كل ربع ساعة يشرب فنجاناً ما لم ينم . واللائق أن يكون الشراب غير شديد البرودة ، ففي اعتدال الزمن يكون في مزاج طراوة نسيم ، ولو امتنع المريض من حاجة الإنسان جملة أيام ، أو لم يبل بكثرة أو خرج بوله أحمر ، أو خلط في كلامه أو كانت حمته قوية ، أو كان وجع رأسه أو كليته شديداً ، أو كانت بطنه متألماً ، أو كان محتاجاً كثيراً إلى النوم ، فليحتقن كل يوم بالحقنة المركبة مما سبق ذكره في المادة الثانية . فالاحتقان شفاء المحموم ، إلا إذا حدث للمريض العرق النافع فلا يحتقن . وإذا خف المرض فينبغي الخروج من الفراش في اليوم ساعة فأكثر كما يمكنه ، ولكنه لا أقل من نصف ساعة ، ولا ينبغي ترك فراشه وهو متلبس بالعرق . ومن المستحسن تصليح فراشه كل يوم وتغيير ما على بدنه كل يومين ، إذا تيسر ذلك . ومن الضرر البين الحكم بخلاف ذلك ، واعتقاد أنه يخشى على المريض من خروجه من فراشه فيتركه في ثيابه المتسخة ، وهذه الثياب لا تقتصر في أضرارها على إبقاء أصل المرض فقط بل تقويه . قيل إن المريض تعبان جداً ، وهذه حجة عاطلة ولو سلم أن استعمال ذلك يتعبه درجة ، فإنه يزيد ما بقي من قوته ويسرع تخفيف ألمه .

المادة الرابعة . في معالجة الناقه :

اعلم أنه ما دام بالإنسان قليل من الحمى ، فلا يتناول إلا الأغذية الخفيفة التي بينها ، فإذا انقطع عرق الحمى فلا بأس أن يتناول غيرها ، كقليل من اللحم الطري أو السمك أو المرققة أو البيض هين النضج . فهذه الأغذية تصلح القوى ، بشرط عدم الإكثار فيما يتناول منها وإلا فتبطل الصحة ، لأن المعدة الضعيفة من المرض ليست

متأهله إلا ليسير الهضم ، فلو أعطيتها فوق ما في قوتها لم ينهضم سائر ما يدخل فيها بل يفسد . وقوام البدن إنما هو بما تهضمه المعدة لا بما يصل إليها فقط ، فينبغي للناقة أن يكون كالمريض في تناوله قليلاً في كل مرة ، ولكن في غالب الأوقات ، وأن لا يتعاطى في المرة إلا جنساً واحداً من الأطعمة ، وأن لا يكثر من تغيير الأطعمة ، وأن لا يستعجل في مضغ ما يتناوله من الجوامد ، وأن لا يكثر من الضرب . وخير الشراب هو الماء المخلوط بشيء من الأنبذة ، وليسر على قدر ما يستطيع ماشياً أو راكباً عربية أو فرساً ، ومن العبث ترك ركوب الخيل في هذه الحالة لمن يملك الخيل كأغلب أهل الأرياف . وإذا كان السير بعد تناول الطعام كان مقوياً لمادة الهضم ، بخلاف فعله قبل فهو ربما يضر الهضم . وليتناول من قام من المرض يسيراً من الطعام في الماء ، لأن النوم أريح وأصلح له من الأكل ، ولا يضره عدم قضاء الحاجة كل يوم . نعم إذا جاوز يومين من خروج شيء ، فليحتقن ثالث يوم أو قبله ، إن علم أن قبض بطنه تتولد عنه الحرارة ، أو الانتفاخ ، أو ضيق الصدر ، أو وجع الرأس . وينبغي لمن قام من مرضه جديداً أن لا يسرع في العود إلى شغله ، فإن لم يصبر إلى تمام عافيته طال ضعفه ، فالاستعجال على الشغل قبل أوانه يعقبه من الخسارة زيادة على ما يؤمل كسبه ، فإن لم يتحفظ على نفسه ، وإلا أصابه مرض الذبول . فينبغي حين إرادة الأخذ للمبادئ مراقبة العواقب .

المادة الخامسة. في وصايا عامة على الصحة:

اتخذ القناعة في الأكل ، فمن لم يقتنع لا يشبع فيهلك نفسه . قيل من أرحى على الطعام طويل عنانه ، حفر مقبرته بحدّة أسنانه . لا تأكل دون مرتين في اليوم ، بل لا بأس بثلاثة ، والصغار لهم أن يأكلوا أربع مرات بل خمسة . لا تنم عقب الأكل ، ومدة النوم للسليم ست ساعات أو سبعة ، وللضيف والصغير أطول من ذلك ؛ تضمحل القوة والعقل ، ويذهب كل منهما ، باعتياد تطويل النوم . النظافة نصف الصحة ، فلتكن في البدن والثوب والمسكن والغذاء والمتاع . لا تمضغ الدخان ولا تنشق به ، فكثرة اللعاب الذي يكسبه للطبيعة مضغفة على طول الزمن ، وبه يضعق الريق اللازم في الهضم ، وينتن النفس وتسود الأسنان وتفسد ؛ وقد شوهد أن كثيراً

من الناس اعتريته الحماسة بالإكثار من شرب الدخان أو شم النشوق . إياك والانهماك على تعاطي الخمر والمسكرات سيما أيام الصوم ، وقد توهم أنها تشد القوى ، مع أن القوة المستفادة من تعاطيها تمر في أدنى زمن ، ويعقبها وهن . وذلك كما أن النار تذكو إذا أكثر من نفخها وترعى الوقود سريعاً ، ولا تعطي الحرارة إلا درجة وأما الفلاحون الذين يشتغلون في وقت الصيف ، فعليهم تغطية رؤوسهم ، وأن يتداركوا أشغالهم .

المادة السادسة . في معالجات لجملة علل وأمراض :

الأول ، الزكام والنزلة : يقال هذا ليس بشيء ، إن هو إلا زكام أو نزلة . نعم ، نسلم أن الإنسان لا يموت بذلك ، لكن يتسبب عن ذلك حرارة الصدر المهلكة له . ومن كلام بعض الحكماء الأقدمين ، يهلك بالنزلة والزكام أبلغ مما يهلك بالوباء . وعلاج ذلك استعمال الشربة المذكورة في المادة الأولى ، أو تعاطي سلاقة الخمان التي ربعتها أو ثلثها لبن ، وينبغي قبيل النوم وضع الرجلين في الماء الفاتر . ولو انحبست البطن تعيين الاحتقان ، وينبغي الاقتصار على تناول الأطعمة الخفيفة ، وتعاطي السير في المأكول ، ولا بأس بتعاطي بعض طاسات من خفيف مرقة الخشخاش الأحمر . وقد توهم بعضهم أن هذا الداء يذهب بالعرقى المحروق ، أو الخمر المعطر أو الحلو ، مع أن هذا كإلقاء الحطب في النار . إن هذه الأشربة أقرب في تثقيل هذا الداء من إزالته . أو ليس أن هذا الداء حرارة ، وهي تزداد بهذه الأشربة ؟

الثاني ، وجع الأسنان : إذا كان الوجع ناشئاً عن فساد السن فخير علاجه ، كما قيل ، الكلبتان ؛ فاللائق قلعه ، وإلا دام الوجع ، وفسد غيره من الأسنان ، وربما جرّ ذلك إلى فساد الحنك . ولكن لو اختير بقاء السن خوفاً من قلعه ، فلا بأس أن تختبر بأن تلطخ على موضع الفساد قطنة مبلولة في قطرات من عصير القرنفل ، فإن ذلك يصلحها زمناً طويلاً ، وربما كانت نهايته تفتتها وسقوطها . ويمكن أيضاً إصلاحها بأن تلطخ على ذلك الموضع قطعة صغيرة من عرق عاقر قرحا ، وتتمضمض بسليق النبات المسمى حشيشة الفضة . وأما إذا تحرك الوجع من غير أن تكون الأسنان فاسدة ، فأدم الغرغرة بالشعير أو بالماء أو اللبن ، وتضميد الصدغ بالضماد المطري ، واتخذ الحموم جملة ليال بماء فاتر ، ولا تشرب الأنبذة المخدرة ، ولا تكثر من الأكل . وأما إذا كان

بالأسنان قرح ، فتنضيجه بأن تديم في فمك لبناً أو تيناً مطبوخاً في لبن ، فإذا أنضج فافتحه فإنه سهل غير مؤلم .

الثالث ، السكتة : اعلم أن داء السكتة يأتي الإنسان فجأة ، فيعطل الحواس والحركات الاختيارية ما عدا النبض ، وبه يتعسر التنفس . وهذا المرض مخوف فتجب المسارعة إلى الطب ، ومدة انتظار حضوره يجب ، أولاً ، كشف رأس المريض وتغطية ما عداه من البدن بشيء خفيف جداً ، وجلب الهواء الطري عنده وفتح طوقه بالكلية . ثانياً ، يقام حسبما يمكن رأسه إلى أعلى ورجله إلى أسفل . ثالثاً ، يحقن حقنة مصنوعة من سلاقة الحشائش الطرية والملح . رابعاً ، اسقه كثيراً من الماء حسب الإمكان . خامساً ، إبعاده عن الأشربة المخدرة كالخمر ، وكذلك الماء المعطر ، شرباً وضماً أو سعوياً . سادساً ، عدم مسه أو تحريكه إلا لضرورة . سابعاً ، عصب الرجلين تحت الداغصة⁽⁶⁶⁾ ، وهي العظم المدور والمتحرك في وسط الركبة ، حتى ينحجب الدم عن الصعود إلى الرأس . وربما يرجع داء السكتة بعد ذهابه ، وكلما رجع كان أصعب مما قبله ، فالواجب تداركه من قبل بأن يأكل ، وهو في هذه الحالة قليلاً جداً . وأولى ما ينفع له أن يترك العشاء ، وأن يتجنب الأشياء الغزيرة المائية ، وطيبات الروائح والحوامض والأشربة المقوية والقهوة ، وأن يأكل قليلاً من اللحم وكثيراً من الخضراوات والفواكه ، وأن يشرب دواءً مسهلاً مرتين أو ثلاثاً كل سنة ، وأن يتريض ، وأن لا يكثر من السخونة في أوضته أو حرارة الشمس ، وأن لا يتأخر في النوم أو في القيام منه ، وأن لا يلبث فوق ثمانين ساعات في فراشه .

الرابع ، ضربة الشمس : هو مرض يصيب الإنسان متى اعترض في حرّ الشمس زمناً طويلاً عريان الرأس ، فيعرف هذا المرض بوجع الرأس الشديد ، واحتمرار البشرة واحمرار العيون وجمود الدموع ، وضعف البصر عن الامتداد إلى الضوء . وقد يحصل للمريض به سهر ، أو ربما أحس بالنوم وقلق شديد ، أو في الغالب تكون بشرة الوجه محترقة ، فالمريض لا يزال شديداً حتى يأتي الطبيب سريعاً . فينبغي في مدة انتظاره أن تضع رجل المريض في ماء فاتر ، وتدخله نصف حمام أو حماماً كاملاً ،

(66) تسمى بالعامية : صابونة الركبة .

واحقنه بأعشاب مطرية ، واسقه كثيراً من شربة الليمون والماء ، واسقه ماء مخلوطاً بيسير الخل ، وأنفع من ذلك مصل اللبن الصافي المخلوط بيسير الخل ، والطخ على جبهته وصدغه ورأسه خرقة مطرأة بماء بارد وخل معاً .

الخامس ، نهش السميات : أولاً ، اخرج الزباني إذا ألصقت بالحل الملدوغ . ثانياً ، تعده بالماء . ثالثاً ، الطخ عليه إما كزبرة أو كرفساً أو زهر الخمان . رابعاً ، فإن عظم الحرقان فأسرع ما ينفع هو أن تبل خرقة صوف في سلاقة الخمان ، وتلطخها وهي هينة الحرارة . خامساً ، أن تلصق على الوجه لبخة من سحق بزر الكتان ، أو من لباب الخبز الممزوج باللبن أو العسل .

السادس ، قاعدة يجب اتباعها في تعهد الصغار والأطفال ، حتى على الأمهات اللاتي يردن حفظ صحة أبنائهن وتربيتهم أن يتركن عوايد البربر ، من لف الأطفال بكيفية تمنع معها تحركهم وتنقل أرجلهم أو أيديهم ، فكيف يقلن لو أخبرهن الإنسان لصحتهن أن يحتبسن في أثوابهن ، وأن يلصقن أذرعتهن ببدنهن ، وأن لا يتحركن كالمسلسل ، فلاي شيء يصنعن ذلك بأطفالهن وهم ضعاف؟ فليطلقنهم يتحركوا وليعرضن أطرافهم للهواء . من يتوهم ، من غير مستند ، أن الفرس الصغير أو العجل كذلك ، من المستحسن لصحتهما ربطهما وتكتيفهما على ذلك الوجه ، أو ليس أن حكم تربية الأدمي كغيره من باقي الحيوانات؟

السابع ، السم بالفطر : وهو ⁽⁶⁷⁾ جنس رديء من الكمأة ، كثير من الناس من يهلك بيله إلى الفطر ، وكان الأحسن في حقهم يقيناً أن يتجنبوه ، وقد شوهد غير مرة أن الأم تحمل لعيالها كثيراً من الفطر لتبريهم به فتقتلهم بيدها . وأعمال هذا النبات السمي لا يظهر إلا بعد مضي ست ساعات إلى اثنتي عشرة ، فأول ما تحس به اطلب الطبيب ، وتناول مدة انتظار حضوره حبتين أو ثلاث حبات من الطرطمقيء ، أي ملح الطرطير المقيء بعد تذويبه في طاستي ماء .

الثامن ، السم بالزنجار : اعلم أن أنية النحاس التي تستعمل فيها المطبوعات هي خطيرة بسبب زنجرتها سريعاً ، والزنجار سم قوي فلتبيض أوانيك وقتاً بعد وقت

(67) وردت في النص : (وهي) ولا أرى مسوغاً لتأنيث الفطر .

بالقصد ، ولا تترك الأطعمة تبرد فيها ، خصوصاً إذا كان بها الخل أو الحمض أو الحريفات أو الدسمة . فإذا اعتراك ، وأنت محترز عن ذلك ، قولنج أو قيء ، فامزج نحو خمسة عشر من بياض البيض في قزازتي ماء واشرب منها طاسة في نحو قيقتين لتتقي السم ، فإن لم تجد البيض فأكثر من شرب اللبن ، فإن عدت اللبن فمن الماء المحلى أو ماء الصمغ .

التاسع ، داء الكلب : وهو معروف لسائر الناس بوصفه وعمله الرديئين ، وهو يتولد طبيعة في الذئب والثعلب والسنانير ، وخصوصاً في الكلاب . وعضة الحيوان الكلب تكسب هذا الداء للآدميين وغيرهم من الحيوانات . وعلامة الكلب أنك تراه أولاً كثيباً ذابلاً مدة أيام ، فيختفي ويسلك الحال المظلمة ، ولا ينبج بل يختفي ويترك المأكّل والمشرب ، ثم يهجر بيت أصحابه ويجري من جهة إلى أخرى ، ويقف شعره ويبتل لسانه من اللعاب ويتدلى من فمه ، وينعوج ذنبه بين رجليه ، ويهرب من المائعات ، ويهم أن يعض سائر الناس حتى صاحبه ، ثم يموت بعد يوم أو يومين بشدة مصارعته ، وتفوح من جيفته رائحة منتنة ، فالواجب حينئذ دفنها في عميق من الأرض . ومتى عض هذا الكلب الإنسان فإن الجرح من عادته أن يلتئم بالسهولة كأنه غير متسمم ، وبعد مدة قليلة أو كثيرة ، وهي ثلاثة أسابيع إلى ثلاثة أشهر ، يحس بالجرح وجع مكتوم ، فينتفخ أثره ويحمر وينتفخ ويقيح . ومدته⁽⁶⁸⁾ تخرج حارة منتنة محمرة ، ويدوق المريض الكأبة والخدر والكسل والبرودة ، ويعسر عليه التنفس ، ويمسك الوجع أمعاءه ، ويضطرب في نعاسه ، ويعطش عطشاً مهلكاً ، ويقاسي إذا شرب ، ثم يعتريه الارتعاد من الماء والمائع ، ويبح صوته ثم يجن ويموت . وليس من شأن من أصيب بهذا الداء أن يعض غيره دائماً ، بل معظم المبتلين بهذا الداء إذا أحس هجومه عليه ، ينصح الحاضرين بأن يكونوا منه على حذر ، وما يذوقه من الألم تقصر عنه العبارة فيتمنى ولو الموت . ومعالجته هي أن أول ما يعضه الكلب تسرع الدواء فيه ، فإن توانيت سرح السم إلى الدم ولا يجدي التطبيب شيئاً . وذلك الدواء هو أن تستخرج الدم من الجرح بعد كشفه ، وتغسله بماء ملح وتكويه بحديدة بعد

(68) المدة (بكسر الميم) : ما يتجمع في الجرح من قيح .

إحراقها في النار حتى تبيض بعد الاحمرار ، وتغرزها في سائر أقطار الجرح ، فلو بقي جزء من الجرح غير محكم الكي ، كان الكي كلاً شيء . ويصح أن تستعمل بدل الحديد المحرقة دهن الزاج ، فتدخله بين شفتي الجرح وتجريه في سائره ، ومتى انكوى اللحم تغطيه بخرقه مدهونة بالقيروطي ، أي المرهم أو بالزبدة الطرية . واعلم أنه يجب غسل الثياب المنقوية بأسنان الكلب لما أنها حين تشربت من ريقه ، تخلل بها جزء من سمه . وما تقدّم لك هو الكيفية المتعينة المجربة في هذا المرض الشديد ، فلا تتردد أو تخف قليلاً من الألم الذي يطرد غيره من الألم الشديد أو الهلاك المفزع ، وأيضاً لو طلبت الحكيم لأثبت لك بسداد رأيه هذه المعالجات السالفة . ولا بأس أن تستعمل هذا الدواء في أي حيوان معضوض بكلب كلب ، وأزل ما على الجرح من الشعر ولو كان المعضوض أذنأ أو ذنباً فلتقطعه ، ولتكو على ما سبق موضع القطع . وينبغي أن تعزل البهائم المعضوضة عن غيرها من سائر البهائم ، حتى يزول ما بها ولا تعدي غيرها .

العاشر ، الاستعانة على إفاقة الغريق : لا تيأس من إفاقة الغريق إلا إذا أخذ بدنه في العفونة ، فحينئذ ولو مضت ساعات كثيرة من وقت غرقه ، أو ذهبت حركته بالكلية ، أو فقد إمارات الحياة ، فافعل به ما يستحقه عليك من واجبات الأخوة . فقبل كل شيء ، اطرّد من اجتمع عليه من الخلق ، لأنه يضيق الصدور ويحجب الهواء . ثانياً ، لو رأيت الغريق قد فقد الحس والحركة ، فأمل رأسه بحيث يكون وجهه إلى أسفل ، وافتح شفتيه حتى يخرج بسهولة الماء الذي قد دخل من الفم أو الأنف ، وارفع رأسه مغطاة بقلنسوة من صوف إن تيسرت ، وأولج باقي بدنه في نحو ملحفة . ثالثاً ، انقله سريعاً إلى أقرب موضع . رابعاً ، بعد وصوله اخلع ما عليه من الثياب بأسهل ما يمكن ، ولو بقطعها بآلات إن لزم . خامساً ، افرش له عند ذلك بعض طراحيات ومخدّات بها بعض صلابة ، واجعلها قريباً من نار متقددة ، وضع فوق الطراحي ملحفة من الصوف ، وردد الغريق فوقها مرفوع الرأس ملفوف البدن . سادساً ، ذلك البدن تحت الملحفة بالرفق بخرقه صوف مدفأة يابسة ، ثم ذلك بالمائعات القوية المستقطرة على ظاهر بدنه ، خصوصاً على السرة وما حولها ، والأولى خصوصاً في الشتاء أن تسخن عاجلاً ماء ، وتغسل منه مثنائات على الثلثين من ماء هين الحرارة ،

وتضعها فوق أجزاء البدن المحتاجة للحرارة . سابعاً ، مدّة الدلك أو عقب وضع المثلثات ينبغي أن تدخل الهواء في صدره ، بأن تضع قصبه أو ريشة في فم المريض ، أو في إحدى طاقتي أنفه مع فتح الأخرى ، وانفخ في تلك القصبه بمنفاخ لدفع الهواء فيها ، فإن كان النفخ في الفم فاقبص الأنف ولكن أرخ أصابعك مرة بعد أخرى ، ليخرج منه الهواء أحياناً . ثامناً اشممه القلي البخاري ، يعني الروح البخارية من ملح النشادر ، بأن تقرطس ورقة حتى تكون مبرومة في صورة فتيلة ، وتشربها من قزازه قلي بخاري ، وتعرضها تحت أنف الغريق أو تدخلها في منخاره ، وتكرر هذا العمل مراراً بالرفق . تاسعاً ، ألحقه إن أمكن يسيراً من روح الأنبذة المخلوط بالكافور ، وربما مكث هذا المائع في فمه يسيراً من الزمن ثم بلعه ، ولكن لا تملأ فمه منه حتى يتعسر بلعه . عاشراً ، لو بلعها فاعطه أكثر منها ، فلو تحركت معدته من غير وجود قيء ، وذلك ما يتعبه ، فاعطه ثلاث حبوب من الطرطمقي مذوبة في ثلاثة أو أربعة ملاعق ماء ، فإن تقياً⁽⁶⁹⁾ بهذه الكيفية فاسقه ماء فاتراً ، وإن أنزل من المخرج شيئاً فقهو بتناوله شيئاً من الأنبذة . حادي عشر ، لو أبطأ عن الإحساس فاحقنه حقنة حريفة ، وصورتها أن تأخذ أوراقاً يابسة من الدخان قدر نصف أوقية ومن الملح المعتاد ثلاثة دراهم ، وتغلي ذلك في مقدار من الماء يعادله نحو ربع ساعة وتحقنه به ، ويصح أن تؤلف هذه الحقنة من نصف طاسة ماء وطاسة خل وربع رطل من الملح المعتاد . وهذه كيفية معالجة الإفاقة للغريق وتديرها ممكن لكل إنسان حتى يحضر الطبيب فيعينهم أيضاً ، ولو كانت مفيدة ففائدتها لا تحصل إلا بعد التدبير مدّة ساعات على التوالي ، ففائدة ذلك بطيئة خفيفة ، ولذلك كان اللازم استدامة ذلك زمناً ، فمن الغرقى لا يفيق إلا بعد ست ساعات أو سبعة من مبدأ خروجه من الماء .

الحادي عشر ، غيبوبة الحياة برائحة بيوت الأخلية والبالوعات والآبار والمجاري ونحوها : أولاً ، أخرج سريعاً من أصيب بهذا الداء ، وضعه تحت الهواء . ثانياً ، جرّده من الثياب ، ورش على بدنه ماء بارداً أو ماء مشوباً بخل ، وهو أولى ، وأولى منه حامض الجير . ثالثاً ، ألحقه ماء بارداً ممزوجاً بقليل من الخل . رابعاً ، احقنه بحقنة ماء

(69) وردت في النص : تقايي (وهي عامية) .

بارد ثلثها خل ، ثم بعد ذلك احقنه بملح ذائب . خامساً ، أدخل في أنفه طرف شعر ريشة وحركها بالرفق . سادساً ، أدخل الهواء في صدره بواسطة قصبه وانفخها بمنفاخ ، كما سلف في الغريق عند العمل السابع ، واسلك سبيل النشاط والاستعجال في هذه المعالجة ، فكلما أبطأت كلما ظن اليأس من إنتاجها ، ولما كان الموت لا ينكشف إلا بعد مدة تحتم إدامة المعالجة حتى يتيقن .

الثاني عشر ، غيبوبة الحياة بالبرودة : اعلم أن شدة البرد قد تستحكم بأعمالها في الإنسان فتجمد الأعضاء وتحبس جريان الدم ، وربما مات بها الإنسان ، ودواؤها مخوف العاقبة جداً ، وإن كان لا ألم به أبداً . فباديها هو الرعشة التي تكاد تصرع الإنسان ، وصلابة الجسم ، وانحباس الدم ، وخدر المفاصل ، وذهاب الإحساس ، والتذاذ البدن بالنوم وانقياده إليه ولو بالقهر ، وانقطاع حركات الحياة على التدرج . وعاقبته خروج المبتلى به من حيز الأحياء إلى حيز الأموات . وفي الحقيقة ، حركات الحياة ليست إلا متوقفة ، فعليك أن تسرع في معالجته بدواء ، سواء ذهبت إمارات الحياة بالكلية أو بقي منها شيء . واعلم أن بعض الناس توهم أن معالجة إفاقته تكون بالحرارة ، وهذا وهم فاسد لإضرار الحرارة بكثير من الناس . ولكن معالجته هي أن تلف ، أولاً ، بدنه في ملحفة من صوف وتحمله إلى أقرب ما يرتاح فيه من الأماكن ، وتخلع ثيابه وتضعه في فرش غير محمي . ثانياً ، إذا كان عندك ثلج فذلك البدن مع رفق بشيء من ذلك ، ماراً من القلب إلى المفاصل ، ثم بعد لحظات ادلكه بدل الثلج بخارقة مسقية بماء بارد ، وبعده بماء فاتر ، ثم بماء مسخن ، ورش على وجهه شيئاً من هذه المياه . ثالثاً ، لو تعذر الثلج فضعه في حمام فيه ماء بثر بارد ، وبعد نحو ثلاث دقائق أفرغ عليه قليلاً من الماء المسخن ، وهلم جراً ، فافرغ عليه كل ثلاث دقائق حتى تذهب برودة الماء على التدرج ويصير فاتراً معتدلاً . واعمل جميع ذلك نحو ثلاثة أرباع ساعة فقط ، فإن استشعرت برجوع حركة نبض المريض ، فلك أن تزيد حرارة الحمام حتى يصير في درجة سخونة الحمام المعتاد ، وما دام المريض في الحمام فرش على وجهه يسيراً من ماء بارد بعد تدليكه بخارقة رقيقة . رابعاً ، المسه في أنفه بطرف ريشة أو بفتلة ورق مسقية من القلى البخاري . خامساً ، أدخل الهواء في صدره بواسطة أنبوبة أو منفاخ كما سبق في الغريق . سادساً ، أعطه سفوفاً حبات من الملح

المعتاد وألغقه لعقتين ماء بارداً مخلوطاً بقطرات من ماء الملكة . سابعاً ، إذا بقي بالمريض الخدر فاسقه قليلاً من ماء ممزوج بخل ، وإن كان نومه به سباتاً فاحقنه بحقنة حادة ، وهي ما تقدّمت في شأن الغريق . ومن سوء الخطأ توهم أن استعمال الخمر والمسكرات القوية يمكن أن يتدارك به أبعاد هذا الداء ، مع أن الأمر بعكس ذلك ، وهو أن كثرة الأشربة تحبس جريان الدم ، فمن ينهمك على تعاطيها فهو أشد تأثراً من غيره بأفات البرودة .

الثالث عشر ، غيبوبة الحياة بدخان الفحم : كل من يمكث في غرفة مغلقة موقود بها فحم فقد ألقى نفسه في مهلكة ، فبدوها يحصل للإنسان شدة وجع الرأس ، وبعد ذلك يعتريه تعسر النفس ، ثم يقع في ذبول كحالة الموتى ؛ فإن عولج فذاك ، وإلا هلك . ومعالجته هي أن تسرع إلى تعريضه في الهواء ، وتجردّه من أثوابه ، وتنيمه على ظهره ، وتسقيه ماء ممزوجاً بخل ، وترش من هذا الماء على وجهه وصدره ، وتبل خرقة من ذلك الماء وتلك بدنه بها وتمسح وجهه ، ثم تعيد ذلك عدّة مرّات ، وتقرب نحو مشامه عود كبريت مشتعل أو غيره من حاد الرائحة ، وتغمزه في باطن أنفه بطرف ريشة ، وتحقنه مرّتين : الأولى بماء ممزوج بخل ، والثانية بماء ملح ، فإن بقي بعد ذلك على حالته فد لك فقار ظهره بمسحة من عرف حيوان ، والطح شياً من معجون الخردل على بطن رجله ، وأدخل الهواء في صدره بأن تدخل في إحدى طاقتي أنفه فم منفوخ وتنفخ ، والحال أن الأخرى مسدودة ، فاجتهد وواظب على ذلك . وليس في الغالب يفوق المريض ، فإن ساعدتك المقادير على إفاقته وظهر شيء من إمارات الحياة ، فضعه في فرش عظيم التسخين ، في غرفة بها الهواء ، وألغقه شيئاً من خير الأشربة .

الرابع عشر ، في معالجة الحرق : أول ما يحترق عضو الإنسان فليغمس العضو في أبرد ما يمكن من الماء ، وإن تعذر غمسه في الماء فرشه دائماً بإسفنجة مملوءة منه ، وكلما تسخن الماء المستعمل في ذلك الغسل فجدّده وواظب على ذلك ساعات ، وافتح ما ينتفخ من الدمامل بطرف إبرة ، واحذر أن تفشخها أو تسلخ البشرة . ثم الطخ على ذلك العضو المرهم الملتصق على بعض خرقة خفيفة بورق اللازوق ومحل هذا كله ما لم يضر نصف ساعة قبل غسل العضو المحترق في ماء بارد ، وإلا فهذا الدواء

يكون مضرّاً ، بل في هذه الحالة ، لا بد أن تكتفي باستعمال المرهم الذي تنوب عنه الزبدة الطرية . ولو رأيت الحرق امتد على العضو بتمامه ، فعليك بالحكيم لتستعين به على ذلك .

الخامس عشر ، في الجدري والتخلص من مجيئه بتلقيح البقري : أمر الجدري معلوم ، وكونه إما قاتلاً أو مشوهاً لا سيما بالوجه بين عند سائر الناس ، وربما أذهب البصر ، وأورث أسقاماً لا تنقضي إلا بانقضاء الأجل . وهناك طريقة لتداركه قبل أوانه مجربة . فمن مرض بالجدري مع وجودها ، فهو من سوء تفريط والديه وإهمالهما ، فعلى أبي الإنسان وأمه المبادرة لذلك . فإذا بلغ سن المولود ستة أسابيع إلى ثمانية ، وجب طلب الحكيم ليخرج سم الجدري بالتلقيح . ولا عذر لهما إن أهملّا في ذلك ، لقدرتهما على مداواة ولدهما . فلو تركاه حتى أصيب بالجدري ، فقد فات أوان استعمال تلقيح البقري فيندمان حيث لا ينفع الندم . وفي بعض الممالك تلقيح البقري للأطفال معين على بيت المال ، فلا كلفة فيه خصوصاً على الفقراء . فعلى أهل هذه المملكة أن يقبلوا عليه في الحال ولا يتأخروا إلى غد ، فرمّا في اليوم القابل تحرك سم الجدري ، ولا يغترّ بقول من يزعم أنه غير مثمر شيئاً ، فصحيح التجربة أوضح فائدة استعماله . ومن استعمله لطفل فأصيب الطفل بعد ذلك بالجدري ، فذلك لفقد شروط كون التلقيح كان غير محكم الوضع ، والحبات التي أخذت كانت غير تامة . فإذا استعملته في المولود فأطلع الحكيم على حبات البقري ، تتحقق إصابة استعماله وعدمها . واستعمال تلقيح البقري غير مؤلم ، فهو أخف من شكة إبرة ولا يمرض به الإنسان ، ويصح استعماله لأي عمر كان . والجدري داء متوقع ، مدة أجل الإنسان حتى كأنه دين ما له إلا القضاء ، وقضاؤه يحصل بالمسارعة إلى استعمال تلقيح البقري لمن يريد التخلص من إصابته .

خاتمة

هذا آخر ما أردنا شرحه من النصائح النافعة للصحة . فالصحة جوهر نفيس عن سائر ما عداه ، إذ بسلبها لا تنفع زينة الحياة ، فما ثمرة الأموال لعليل ، لا يتمتع منها بشفاء الغليل؟ يذهب المريض كنوز ذهبه ، لمن يبريه من وصبه . ومع ذلك قد يكون خلاف غرضه ، فلا يصح له الشفاء من مرضه . تفرع الأمراض باب الخطير ، على نسق ما تفرع باب الحقير ، ولا ترق لشكواه ، ولا تسمع دعواه . حكمة بالغة للحكم العدل ، ذي الاقتدار والفضل ، فليس بنا قوة ولا حول ، بل الكل بحول وقوة ذي الطول ، فهو الممرض والشافي ، والمبتلي والمعافي . هانحن الآن في حيز الحياة والنبات ، ولا ندري هل نعد غدًا في زمرة الأموات ، فهذا سرّ خفي لا نصل إلى فهمه . كيف وقد استأثر به الله في غامض علمه ، فلا تثق بالمحايل الظاهرة ، من الصحة الزاهية الزاهرة ، فرما في أسرع من البرق اللامع ، تعترينا الأمراض وتلزمنا المضاجع . وقدرتنا على القبض على الأجل ، وحفظ الصحة من الخلل ، كإقتدارنا على عروج السما ، واتخاذ الأفلاك ملزمًا ، فعلينا بالاستعداد للمعاد ، ولكن كالمسافر المستحضر على الحمل والزاد ، العازم على الرحيل ، والجازم على الإقامة بالقليل ، قد كان بالأمس نوبة الجار ، وستأتي غدًا نوبة صاحب الدار ، ولا خوف علينا ولا حزن ،

حيث كان خلاص ذمتنا حسنا⁽⁷⁰⁾ . هذا ، والحمد لله وحده وصلى الله على نبيه
وآله وصحبه وسلم .



الفصل العاشر

في فعل الخير بمدينة باريس

اعلم أن غالب الناس ببلاد الإفرنج ، وسائر البلاد التي تكثر الصناعة والنجامة
فيها ، يعيشون من كسب أيديهم . فإذا حصل للإنسان منهم مانع كمرض أو نحوه ،
فقد معيشتة واضطر إلى أن يعيش من غير كسب يده ، كأن يتكفف⁽⁷¹⁾ الناس أو نحو
ذلك ، فشرعت المارستانات المعدة لفعل الخير حتى إن الإنسان لا يسأل ما في أيدي
الناس . وكلما كثرت صنائع بلدة وكثر كسبها ، كثرت أهاليها فاحتاجت إلى
مارستانات أكثر من غيرها . ومعلوم أن مدينة باريس من أعمر المدن وأكثرها صناعة
ونجامة ، فلذلك كثرت مارستاناتها وجمعيات فعل الخير بها ، سادة لخلل شح أفراد
أهلها وبخلهم ، لما تقدّم أنهم بمعزل عن الكرم من العرب ، فليس عندهم حاتم طيء
ولا ابنه عدي ، ولم يخرج من بلادهم معن بن زائدة الشهير بالحلم والندى الذي قال
فيه الشاعر⁽⁷²⁾ :

يقولون معن لا زكاة لماله
وكيف يزكي المال من هو باذله
إذا حال حول لم يكن في دياره
من المال إلا ذكره وجمائله

(70) وردت في النص (حسن) لمراعاة السجع .

(71) يتكفف الناس : يمد كفه إليهم مستعطيا .

(72) هذه الأبيات تنسب إلى عدة شعراء : زهير ابن أبي سلمى ودعبل الخزاعي وأبو تمام الطائي . البيت

الأول يشير إلى معن بن زائدة الشيباني (ت : 151هـ) .

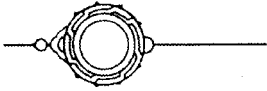
تراه إذا ما جثته متهللاً
كأنك تعطيه الذي أنت نائله
هو البحر من كل النواحي أتيته
ولجته المعروف والبر ساحله
إذا مرّ بالوادي فتبكي تلاله
عليه وبالنادي فتبكي أرامله
تعود بسط الكف حتى لو أنه
أراد انقباضاً لم تطعه أنامله
ولو كان ما في كفه غير روحه
لجاد بها فليتنق الله سائله

ولم يسمع في بلادهم عند ملوكهم ووزرائهم شيء ولو يسيراً مما يحكى عن بني العباس والبرامكة أصلاً ، فالملك المنصور المشهور بالدوانيقي أكرم الكرماء بالنسبة إليهم . نعم إن البلاد المتحضرة يقل كرمها ، وأيضاً يرون أن إعطاء القادر على الشغل شيئاً فيه إعانة له على عدم التكسب . وفي مدينة باريس ديوان لتدبير المارستانات وأهله خمسة عشر نفساً للمشورة العامة ، وفي هذا الديوان خمس نظارات : النظارة الأولى لمباشرة المارستان . النظارة الثانية لمباشرة مهمات المارستانات والخدمة للمرضى والعقاقير العامة . النظارة الثالثة لمباشرة الأوقاف . النظارة الرابعة لمباشرة الفقراء في بيوتهم وإعانتهم . النظارة الخامسة لمباشرة مصاريف المارستان وتوابعها . ولا يدخل الإنسان المارستان إلا إذا ثبت مرضه بقول الحكماء . ومن قام من مرضه في المارستان ، وأراد أن يخرج منه قبل أن يتم شفاؤه وترجع له قوته ، أخذ من الوقف بعض شيء يستعين به على قوته حتى يمكنه الرجوع إلى أشغاله . أعظم مارستان بباريس المارستان المسمى أوتيل ديو ، يقرب أن يكون معناه بيت الله ، وهو موقوف على المرضى والجرحى . ولا يدخل فيه الأطفال ، ولا أرباب الداء العضال ، ولا المجانين ، ولا النفساء ، ولا أرباب الأمراض المزمنة ، ولا المبتلى بالإفرنجي ، فإن كل داء من هذه الأشياء له مارستان خاص . ومن المارستانات الشهيرة في باريس مارستان يسمى سنلويز ، وهو معدّ لأرباب الأمراض المزمنة ولأرباب الدماطل والقوبة

والحكمة والجرب ونحو ذلك . وفي باريس مارستان للقطاء ، يعني الأطفال الذي يلتقطونهم من الطرق ، فيدخل فيه الذين يهملهم أهلهم كأولاد الزنا ونحو ذلك . وباريس مارستان أيضاً للأيتام ، وفيه يدخل الأولاد الفاقدون لأهاليهم ، وهو موقوف على نحو ثمانمائة ذكر وأنثى ، فالذكور فيه في جهة والإناث في أخرى ، ويباشر هذا المارستان عدة راهبات تسمى عندهم أخوات الإحسان ، ويتعلم صغار هذا المارستان فيه القراءة والكتابة والحساب . ولهذا المارستان ديوان يديره ، فلا يوضع الصغير في هذا المارستان إلاّ بأمر هذا الديوان ، وإذا بلغ الإنسان إحدى عشرة سنة في السن فإنه يخرج بإذن أهل ذلك الديوان من هذا المارستان ، ويسكن عند معلم صنعة ، ومصرفه يخرج من وقف المارستان ، ولمعلم الصنعة أن يتبنى الصغير ، أي يأخذه وينزله منزلة ابنه ، ولكن بشرط أن يثبت لأهل ذلك الديوان يساره وفضله وحسن حاله . ومن جملة مارستانات باريس مارستان موقوف لتلقيح الجدري بوضع البقري . ومنها مارستانان يسميان مارستاني الشيخوخة والهزم ، فأحدهما للذكور والآخر للنساء . ومنها مارستان لأصحاب الداء العضال موقوف على أربعمائة وخمسين مريضاً ذكراً ، وخمسمائة وعشرين مريضة . ومنها مارستان العميان من أهل باريس أو غيرها من العمالات ، فلهم فيه الأكل والشرب وسائر ما يحتاجون إليه في تعليمهم ونحو ذلك . ومنها مارستان المجانين ، وفيه قشلة عظيمة تسمى مارستان السقط ، وفيه يوضع مجاريح الحروب ومقاطيع الأيدي والأرجل أو نحو ذلك ، وهو من أنظف وأعظم المارستانات ، وفيه ستة عشر طبيباً وجراحاً⁽⁷³⁾ وستة عقاقيرية لصناعة الأدوية . ويوجد في باريس زيادة عن هذه المارستانات ديوان عام يسمى ديوان الإحسان ، والمقصود منه تكميل الخير الذي لا يمكن في المارستانات ، كما إذا أحرقت تجارة تاجر أو انكسر فإنه يجبر من هذا الديوان بشروط معلومة . وفي كل خط بباريس ديوان إحسان ، والإحسان فيه قسمان : إحسان حالي وإحسان حولي ، فالأول يعطى للفقير الذي وقف حاله أو حدث له ما يعطله ، والثاني لمن به حالة دائمة تمنعه من الشغل . ومن فعل الخير بمدينة باريس أنه يوجد بشاطئ نهرها علب وحوايح ، بها روايح

(73) في النص : جرايحيا .

لتشميم الغريق ، والمغمى عليه ، والجريح ونحو ذلك ، ليفيق . ويوجد أيضاً بهذه المواضع عدة رجال من أهل الخبرة ، لينهضوا لإسعاف من وقعت له حادثة عارضة . ومن هذا كله يتبين أن فعل الخير بمدينة باريس أكثر منه في غيرها بالنسبة للجملة أو للمملكة ، لا لكل واحد على حدته ، فإنه قد يشاهد في طرفها أن بعض الناس الذين لا يذهبون إلى المارستانات الموقوفة ونحوها يقع في وسط الطريق من الجوع . وربما تراهم ينهرون السائل ويردونه خائباً ، زاعمين أنه لا ينبغي السؤال أبداً ، لأنه إذا كان السائل قادراً على الشغل فلا حاجة إلى السؤال ، وإن كان عاجزاً عنه فعليه بالمارستانات ونحوها ، ولأن السائلين عندهم أصحاب حيل في تحصيل الأموال في غالب الأحوال ، حتى إنهم يتشكلون في صورة المجاريح ونحوهم ليشفق الناس عليهم ويرقوا لحالهم . ومن فعل الخير أنهم يجمعون عند الحاجة أشياء لمن نكبه الزمان حتى يصير بها غنياً فمن ذلك أنهم جمعوا لأولاد الجنرال في نحو مليونين من الفرنكات يعني ستة ملايين من القروش .



الفصل الحادي عشر

في كسب مدينة باريس ومهارتها

اعلم أن من المركز في أذهان هؤلاء الطوائف محبة الكسب ، والشغف به ، وصرف الهمة إليه بالكلية ، ومدح الهمة والحركة ، وذم الكسل والتواني ، حتى أن كلمة التوبيخ المستعملة عندهم على ألسنتهم في الذم هي لفظة الكسل والتنبلة ، وسواء في محبة الأشغال العظيم والحقير ، ولو حصل من ذلك مشقة أو مخاطرة بالنفس ، فكأنهم فهموا قول الشاعر⁽⁷⁴⁾ :

(74) الطغرائي (455-513هـ/1063-1120م) : الحسين بن علي ، ولد بأصفهان وتولى الوزارة في بلاط

السلطان السلجوقي مسعود بن محمد صاحب الموصل ، لكن أخاه محمود استولى على الحكم وقتل

الشاعر .

حب السلامة يثني عزم صاحبه
عن المعالي ويغري المرء بالكسل
فإن جنحت إليه فاتخذ نفقاً
في الأرض أو سلماً في الجو واعتزل
ودع غمار العلا للمقدمين على
ركوبها واقتنع منهم بالأمل

إلى أن قال :

فلإنما رجل الدنيا وواحد
من لا يعول في الدنيا على رجل

ثم إن أعظم التجارات وأشهرها في باريس معاملات الصيارفة . والصيارفة قسمان : صيارفة المملكة أو الميري ، وصيارفة باريس . ووظيفة صيارفة الدولة ، بالنسبة للتجارة ، أن يضع الناس ما يريدون وضعه ويأخذوا كل سنة ربحه المعين في قانونهم ، فلا يعدّ عندهم هذا الربح ربا إلا إذا زاد عما في القانون . وللإنسان أن يأخذ ما وضعه من المعاملة عند صيارفة الدولة متى أراد ، ومثل ذلك صيارفة باريس ، فإنهم يأخذون ويعطون الأموال بالمرابحة . وهم يعطون الربح أزيد مما تعطيه صيارفة بيت المال ، الذين هم صيارفة المملكة ، ولكن المال الموضوع عند صيارفة المملكة آمن من الموضوع عند صيارفة المدينة ، وذلك لأن صيارفة المدينة يفلسون ، وأما صيارفة الدولة فإن ما يأخذونه يكون ديناً على الدولة ، والدولة دائماً موجودة . ومن أمور المعاملات المهمة عند أهل باريس جمعية تسمى الشركاء في الضمانة ، فإنها تضمن لمن يدفع لها كل سنة قدرأ هيناً مخصوصاً سائر ما يتلف في بيته بحادثة قهرية ، كما إذا احترق بيته أو حانوته أو نحو ذلك ، فإنها ترجعه له كما كان وتدفع له قيمته . وفي مدينة باريس معامل سلطانية ومعامل غير سلطانية ، فمنها معامل المعادن كاشتغال الفضة والذهب واتخاذ الآنية منهما ، ومنها معامل الصيني والفرغوري ، ومعامل الشمع الإسكندراني ، ومعامل الصابون والقطن والجلود المدبوغة ، وشغل السختيان ونحو ذلك . وصناعاتهم تعظم جودتها شيئاً فشيئاً ، حتى إنهم كل نحو ثلاث سنوات يعرضون أشغالهم على رؤوس الأَشْهاد ، ويظهرون ما اخترعوه وما كملوه . وفي باريس

عدّة خانات عظمى توجد فيها سائر المبيعات ، ووكانل وحوانيت وبيوت للتجارة والصناعة ، مكتوب على واجهتها اسم التاجر واسم تجارته ، وبعض الأحيان قد يكتب اسم المتجر . ولا يمكن أن يشرع الإنسان في التجارة إلا إذا دفع لبيت المال شيئاً ولو هيناً ، فيأخذ نيشاناً علامة على الإذن له في التجارة ، فيحتاج أن يكون معه النيشان وعلى تجارته . وللتجارة مكتب مخصوص يسمى مكتب التجارة ، يتعلم فيه التلامذة علم التجارة ، وعلم تمييز صفات أنواع الأشياء المبيعة ، ومعرفة الأثمان والقيم . وفي هذا المكتب خمس عشرة مدرسة ، وفيه تلامذة من أقاليم عديدة . ومقتضى قانون ذلك المكتب أنه ، بدفع القدر المعين ، يقبل من أراد الدخول للتعليم من سائر الأمم . ومن الأمور التي تعين على النجامة والكسب تعمير طرق البر والبحر . فمن ذلك صناعة الخلجان والقوارب التي تسير بالدخان ، ونصب القناطر ونصب دواوين تسفير العربات الكبيرة ، والتلغراف وهي الإشارة ، ونصب البريد بالساعي والبريد بالخيول وغير ذلك . فانظر إلى مدينة باريس ، فإن حولها أربعة خلجان تأتي منها المتاجر . وفي نهر السين تسير قوارب على صورة العربات ، وقوارب تمشي بالنار سريعة السير . بمدينة باريس جملة أنواع من العربات مختلفة الشكل والاسم والسير والاستعمال ، فمنها عربات معدة لوسق الأمتعة من باريس إلى البلاد البرانية وتسمى رولاجة . ومنها جنس معدّ لوسقه بالناس ليسافروا فيه ويسمى الدبلنس . ومنها عربات صغيرة للسفر إلى المحال القريبة من باريس تسمى كوكو (بضم الكافين) ويدفع فيها على كل رأس قدر معلوم كالسفر في السفن . وفي باريس عربات تستأجر إلى أجل معلوم كيوم أو شهر أو سنة . والعربات العادية في باريس هي الفياكره ، وهي ما فيها مقعد فيه سدلّتان متقابلتان تسعان ستة أنفس ، ولها حصانان يسحبانها ؛ والكيريوله ، وهي نصف الفياكره ، فلها سدة واحدة . وركوب الفياكره أو الكيريوله تكون أجرته بالساعة ، أو يستأجر من محل إلى محل آخر ، وأجرة ذلك محدودة لا تزيد ولا تنقص . ووجودها في سائر طرق باريس أكثر من وجود الحمير في طريق القاهرة . وقد تجددت الآن عربات كبيرة تسمى الأمنيوسه ، معناها لكل الخلق ، وهي عربات كبيرة تسع كثيراً من الخلق ، مكتوب على بابها أنها تمشي إلى الحارة الفلانية ، فكل الناس الذهابين إلى حارة واحدة يركبونها ، ويدفع كل منهم قدراً معيناً ، وهي

موجودة في أمهات خطوط باريس . ومن العربات جنس ينقل أمتعة البيوت ، ومنها عجلات البياعين ويوسقونها ويدورون بها في الطرق ليبيعوها . وهذه العجلات قد يسحبها حصان ، وقد يسحبها حمار ، وقد يسحبها شخص وحده أو مع كلبه ، وبها أجناس أخر من العجلات لحمل الحجارة والتراب وغير ذلك . وأما البريد المسمى عند الفرنسيين البسطة ، فإنه من أهم المصالح النافعة في التجارات وغيرها ، يسهل فيه إخبار الغير بواسطة المكاتبات التي تذهب عاجلاً ، ويأتي ردّها في أسرع ما يكون . وتديرها بكيفيتها التي هي عليها من أعظم ما يمكن ، فإن المكاتيب التي تبعث في البلد أو العمالة تصل إلى صاحبها من غير شك ، لأن سائر ثمة البيوت مكتوب عليها بالرقم عددها المسمى النمرة ، فيها يمتاز البيت عما عداه . والمكتوب الذي تبعثه لإنسان تضعه في محل المكاتيب الموضوع في كل حارة ، فيأتي الساعي ويأخذه ، فيصل المكتوب إلى الحارة الأخرى ، ويأتي ردّه في يومه . ثم إن الفرنسيون يحترمون من أمور المراسلات غاية الإمكان ، فلا يمكن لإنسان أن يفتح مكتوباً معنوناً باسم آخر ، ولو كان متهماً بشيء . ولما كان احترام المراسلات بباريس على هذه الحالة كثرت الرسائل بين الأحباب والأصحاب ، خصوصاً بين العشاق ، لأمن الإنسان على مكتوبه من أن يفتحه غير المرسل إليه ، المعنون باسمه . وإعلام العشاق ، بين العاشق ومعشوقته ، يكون بالمراسلة ؛ وبها أيضاً يحصل الوعد بالموافقة . وفي باريس محل لإرسال المعاملات والحوائج مع الساعي أيضاً ، من غير خوف أبداً . ومن الأمور النافعة في التجارات الجرنالات ، فيكتبون بها كثيراً من البضاعة النافعة أو الحميدة الصنعة ، ويمدحونها ليروجوا السلع ، وليعلموا الناس بها . وصاحب البضاعة يدفع لهم شيئاً في نظير ذلك . وسيأتي الكلام عليها ، إن شاء الله تعالى . وقد يطبع التاجر الذي يريد ترويج سلعته عدّة أوراق صغيرة ، ويرسلها مع خدم في سائر البيوت ، ولسائر المارّين بالطرق ويفرقها عليهم مجاناً . ففي هذه الأوراق ، يذكر اسمه واسم دكانه وما عنده من المبيع ، ويعين القيمة لسلعته . وبالجملة ، ففي مدينة باريس يباع سائر ما يوجد في الدنيا ، سواء كان خطيراً أو حقيراً . ومن أعظم الأشياء دكاكين العقاقيرية ، فيها توجد سائر الأدوية مجهزة ، وسائر العقاقير التي على وجه الأرض المعروفة الاسم والخاصية . وسائر الخلق بباريس يحبون الكسب والتجارة ، سواء الغني

والفقير ، حتى إن الصغير الذي لا يمكنه التكلم إلا بالأشياء الصغيرة ، إذا أعطيته فلساً يفرح به ويصفق بيديه قائلاً ما معناه بالعربية : «كسبت وقنيت» . ولولا أن كسبهم مشوب في الغالب بالربا ، لكانوا أطيب الأمم كسباً . وإذا كسدت تجارة أحدهم ، كما هو غالب في تلك البلاد ، فسد حاله ، وآل أمره إلى تطلب ما في أيدي الناس . وربما أخذ معه مكتوباً من أحد الكبار يدل على كساد حاله ، وأنه يستحق الإعانة . ويكثر وقوع مثل هذا الأمر في هذه المدينة ، وإن كثر أخذها وعطاؤها . وتداول الأمطار والرياح لا يمنع الإنسان منهم عن الخروج إلى شغله . يقولون بلسان حالهم : اليد الفارغة تسارع إلى الشرّ ، والقلب الفارغ يسارع إلى الإثم . وأهل باريس أغنياء جداً ، حتى إن المتوسط منهم أغنى من تاجر عظيم من تجار القاهرة ، فلا يرضون قول الشاعر :

ولا فخر إلا بالنوال وبالعطا

وليس بجمع المال عز ولا فخر

بل يحرصون على الأموال ، ويسلكون سبيل الحرص زاعمين أنه يزيد في الأرزاق ، ولا يقتدون بقول الشاعر :

وليس يزاد في رزق حريص

ولو ركب العواصف كي يزاد

وقد يوجد بها ، من أهالي الحرف الدنيئة ، من إirاده كل سنة أبلغ من مائة ألف فرنك ، وذلك من كمال العدل عندهم ، فهو المعول عليه في أصول سياساتهم ، فلا تطول عندهم ولاية ملك جبار أو وزير اشتهر بينهم أنه تعدى مرةً وجار ، ولا شك أنه تأسس في قلوبهم قول الشاعر :

والملك الجبار والمنيع

ما عنده هاد ولا شفيع

رعية الجبار مرعى الحرب

والملك العادل نصف الخصب

وهذا لا يمنع من أنهم يدفعون الميري عن طيب خاطر ، لما أنهم يرون أن الخراج عمود الملك ، إذا دفع كل إنسان منهم ما هو عليه قادر ، فمال الميري هو قوام صورة

الممالك ، وإحسان مصرفه في استحقاقه خير مما هنالك قال الشاعر :

والمال أس لقيام الصورة

وخير منه صالح المشورة

ولما كانت رعيتهم رائعة ، كانت الدولة عندهم لها إيراد سنوي عظيم ، فإن إيراد الدولة الفرنسية كل سنة نحو تسعمائة وتسعة وثمانين مليوناً من الفرنكات . ومن جملة أسباب غنى الفرنسية أنهم يعرفون التوفير وتدبير المصاريف ، حتى إنهم دونوه وجعلوه علماً متفرعاً من تدبير الأمور الملكية ، ولهم فيه حيل عظيمة على تحصيل الغنى ، فمن ذلك عدم تعلقهم بالأشياء المقتضية للمصاريف . فإن الوزير ، مثلاً ، ليس له أزيد من نحو خمسة عشر خادماً ، وإذا مشى في الطريق لا تعرفه من غيره ، فإنه يقلل أتباعه ما أمكنه داخل داره أو خارجه . وقد سمعت أن قريب ملك الفرنسيين المسمى الدوق درليان ، وهو الآن السلطان الذي هو من أعظم الفرنسيين مقاماً وأكثرهم غنى ، له من الأتباع وسائر من في طرفه من العساكر ونحوها كالبيستاجية والخدم وغير ذلك نحو أربعمائة نفس لا غير ، والفرنساوية يستكثرون ذلك عليه . فانظر الفرق بين باريس ومصر حيث أن العسكري بمصر له عدة خدم .

الفصل الثاني عشر

دين أهل باريس

قد تقدم لنا في الشرطة أن دين الدولة هو دين النصارى القاثوليكية⁽⁷⁵⁾ ، وقد بطل هذا الشرط بعد الفتنة الأخيرة . وهم يعترفون للبابا ، الذي هو ملك روما ، بأنه عظيم النصارى وكبير ملتهم . وكما أن الدين القاثوليقي هو دين الدولة الفرنسية ، كذلك هو دين غالب الناس عندهم . وقد يوجد بباريس الملة النصرانية المسماة البروتستانتية وغيرها ، ويوجد بها كثير من اليهود المستوطنين ، ولا وجود لمسلم مستوطن بها . وقد أسلفنا أن الفرنسية ، على الإطلاق ، ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم ، فهم

(75) الكاثوليكية .

داخلون في اسم الكتابيين ، فلا يعتنون بما حرّمه دينهم أو أوجبه أو نحو ذلك . ففي أيام الصيام في باريس لا ينقطع أكل اللحم في سائر البيوت إلا ماندر ، كبعض القسوس وبيت ملك الفرنسيين القديم ، وأما باقي أهل المدينة فإنهم يستهزئون بذلك ولا يفعلونه أبداً ، ويقولون إن سائر تعبدات الأديان التي لا نعرف حكمتها من البدع والأوهام . ولا تعظم القسوس في هذه البلاد إلا في الكنائس عند من يذهب إليهم ، ولا يسأل عنهم أبداً ، فكأنهم ليسوا إلا الأعداء للأنوار والمعارف . ويقال إن غالب ممالك الإفرنج مثل باريس في مادّة الأديان . ثم إن مسيو دساسي ، لما اطلع على ذلك كتب عليه ما نصه : «إن الفرنساوية ليس لهم دين البتة وأنهم ليسوا النصرى إلا بالاسم» فيه نظر ، نعم إن كثيراً من الفرنساوية ، خصوصاً من سكان باريس ، ليسوا نصرى إلا بالاسم فقط ، لا يعتقدون اعتقادات دينهم ، ولا يتعبدون بعبادات النصرانية ، بل هم في أعمالهم لا يتبعون إلا أهواءهم ، تشغلهم أمور الدنيا عن ذكر الآخرة ، تراهم ما دامت حياتهم لا يهتمون إلا باكتساب الأموال بأيّ وجه كان . وإذا حضرهم الموت ماتوا كالبهائم ، ولكن فيهم أيضاً من يقيم على دين آبائه ، يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل الصالحات ، وهم طائفة لا تُحصى من الرجال والنساء ومن العوام والخواص ، بل ومن المشهورين بفضل العلم والأدب ، غير أنهم في ورعهم وتقاهم على مراتب شتى ، منهم من يشارك عامّة الناس في تصرفاتهم ، ويحضر معهم في محافل اللذات ، أعني السبكتاكل والبال ومجامع الأغاني ، ومنهم المتقشفون المعرضون عن كل ما تشتهيه الأنفس . وهؤلاء أقل عدداً ، وإن دخلت كنائسنا أيام الأعياد المعظمة ، ظهر لك صحة قولي هذا) .

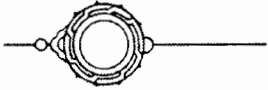
انتهت عبارته ، والحامل له على ذلك كونه من أرباب الديانة ، وعددهم نادر لا يحكم له . ومن الخصال العادية المهولة ببلاد الفرنسيين ، أو ببلاد النصرى القاثوليكية ، عدم الإذن بزواج القسيسين على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم ، فإن عدم زواجهم يزيدهم فسقاً على فسقهم . ومن الخصال الذميمة أن القسيسين يعتقدون أنه يجب على العامة أن يعترفوا لهم بسائر ذنوبهم ليغفروها لهم ، فيمكث القسيس في الكنيسة على كرسيّ يسمى الاعتراف ، فسائر من أراد أن تغفر ذنوبه يذهب إلى كرسيّ الاعتراف داخل باب بينه وبين القسيس حائل كالشبكة ، فيجلس فيه ثم

يعترف قدامه بذنوبه ويستغفره ، فيغفر له . وقد عرف عندهم أن أكثر من يدخل الكنيسة أو يذهب إلى الاعتراف ، يكون من النساء والصغار ، وهذا موافق لقول بعض شعراء العرب :

إن من يدخل الكنيسة يوماً
يلق فيها جاذراً وطلباء

ودرجة القسيسية عندهم مختلفة ، فأولهم الكردينال وهو بعد البابا في الرتبة ، وذلك أن البابا قبل توليته يشترط أن يكون كردينالاً ، ثم بعده المطران ، ثم بعده الأسقف ، ثم الخوري ، ثم نائب الخوري ، ثم الشماس . وعند الفرنساوية أعياد دينية متنقلة ، يعني لا تقع في يوم معين كل سنة ، بل هي دورية ومرتبة في الغالب على وقوع عيد الفصح . فمن أعيادهم الغربية عيد الرفاع ، وقد تقدّم ؛ ومنها عيد ظهور السيد المسيح . ويسمى عيد الفرنسيين عيد الملوك ، وذلك أن كل عائلة تصنع فطيرة عظيمة ، وتضع فيها حبة فول في عجينة ، ويقسمون الفطيرة على الندامى ، فكل من جاءت حبة الفول في نصيبه فهو الملك ؛ فإن جاءت في نصيب رجل فإنه يسمى باسم الملك ، ويخاطب فوق المائدة وتقام الليلة بخطاب الملوك ، ثم يختار من النساء امرأة يجعلها الملكة ، فتخاطب أيضاً بذلك الخطاب ؛ وإن جاءت الفولة في نصيب امرأة ، فإنها أيضاً تختار من الحاضرين شخصاً كالزوج لها وتطلق عليه اسم الملك ، فيكون سائر إكرام الليلة للملك والملكة برسوم خاصة وقوانين مألوفة . وهذه الكيفية تصنع في سائر البيوت في مدينة باريس ، حتى في بيت ملك الفرنسيين . ومن جملة بدع القسيسين أنهم يصنعون في عيد القربان موكباً ، ويلبسون فيه حللاً مطرزة ، ويدورون المدينة بشيء يسمونه البونديو . وكلمة البونديو مركبة من كلمتين : الأولى (بون) ومعناها : طيب أو عظيم ، والثانية (ديو) ومعناها : الإله ، فكأنهم يقولون إن الإله حاضر في الجحفة التي بين أيدي القسوس . والمراد عندهم بالبونديو عيسى عليه السلام . والفرنساوية يعرفون أن هذه الأمور من باب الهوس الذي يندس بلادهم ، ويزري بعقول أهلها . غاية الأمر أن العائلة السلطانية كانت تعين القسيسين على هذه الأمور ، فتمتثل الرعية لذلك مع غاية الخط والتشنيع . وللقسيسين بدع لا تحصى ، وأهل باريس يعرفون بطلانها ، ويهزؤون بها . ولهم أعياد آخر لا يسعها هذا

الكتاب . ثم إن لكل إنسان من الفرنساوية عيداً ، وهو يوم مولد القدّيس الموافق له في اسمه ، فإذا كان إنسان اسمه بولص ، مثلاً ، فإن عيده يكون عيد مار بولص ، فترى كل إنسان اسمه بولص يصنع وليمة ، ويشهر عيده . وفي عيد الإنسان يهادونه بأنواع الأزهار .



الفصل الثالث عشر

في ذكر تقدّم أهل باريس في العلوم والفنون والصنائع
وذكر ترتيبهم وإيضاح ما يتعلق بذلك

الذي يظهر ، لمن تأمل في أحوال العلوم والفنون الأدبية والصناعة في هذا العصر بمدينة باريس ، أن المعارف البشرية قد انتشرت وبلغت أوجها بهذه المدينة ، وأنه لا يوجد من حكماء الإفرنج من يضاهي حكماء باريس ، بل ولا في الحكماء المتقدمين ، كما هو الظاهر أيضاً . غير أن صاحب النقد السديد قد يقول إن سائر الفنون العلمية التي يظهر أثرها بالتجارب معرفة هؤلاء الحكماء الأمور به ثابتة ، وإتقانها عندهم لا نزاع فيه ، كما يشهد لذلك قول بعض أجلة الحكماء : الأمور بتمامها ، والأعمال بخواتيمها ، والصنائع باستدامتها . وأما أغلب العلوم والفنون النظرية ، فإنها معروفة لهم غاية المعرفة ، ولكن لهم بعض اعتقادات فلسفية خارجة عن قانون العقل ، بالنسبة لغيرهم من الأمم ، غير أنهم يمّوهونها ويقوونها حتى يظهر للإنسان صدقها وصحتها ، كما في علم الهيئة مثلاً ، فإنهم محققون فيه وأعلم من عداهم ، بسبب معرفتهم بأسرار الآلات المعروفة من قديم الزمان ، والمخترعة له . ومن المعلوم أن المعرفة بأسرار الآلات أقوى معين على الصناعات ، غير أن لهم في العلوم الحكمية حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية ، ويقىمون على ذلك أدلة يعسر على الإنسان ردّها . وسيأتي لنا كثير من بدعهم ، وننبه عليها في محالها ، إن شاء الله تعالى . وإنما نقول هنا إن كتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من هذه البدع ، فسائر كتب الفلسفة يجري فيها الحكم الثالث من الخلاف الذي ذكره صاحب متن السلم في الاشتغال بقلم المنطق . فحينئذ يجب على من أراد الخوض في لغة

الفرنساوية المشتعلة على شيء من الفلسفة أن يتمكن من الكتاب والسنة حتى لا يغتر بذلك ولا يفتر عن اعتقاده ، وإلا ضاع يقينه . وقد قلت جامعاً بين مدح هذه المدينة وذمها :

أوجد مثل باريس ديار
شموس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح
أما هذا وحققكم عجيب

ومن جملة ما يعين الفرنسية على التقدم في العلوم والفنون سهولة لغتهم وسائر ما يكملها ، فإن لغتهم لا تحتاج إلى معالجة كثيرة في تعلمها ، فأى إنسان له قابلية وملكة صحيحة يمكنه بعد تعلمها أن يطالع أي كتاب كان ، حيث أنه لا التباس فيها أصلاً فهي غير متشابهة . وإذا أراد المعلم أن يدرس كتاباً لا يجب عليه أن يحل ألفاظه أبداً ، فإن الألفاظ مبينة بنفسها . وبالجمل ، فلا يحتاج قارئ كتاب أن يطبق ألفاظه على قواعد أخرى برانية من علم آخر ، بخلاف اللغة العربية مثلاً ، فإن الإنسان الذي يطالع كتاباً من كتبها في علم من العلوم يحتاج أن يطبقه على سائر آلات اللغة ، ويدقق في الألفاظ ما أمكن ، ويحمل العبارة معاني بعيدة عن ظاهرها . وأما كتب الفرنسيين ، فلا شيء من ذلك فيها ، فليس لكتبها شراح ، ولا حواشي إلا نادراً ، وإنما قد يذكرون بعض تعليقات خفيفة تكميلاً للعبارة بتقيد أو نحوه . فالتون وحدها من أول وهلة كافية في إفهام مدلولها . فإذا شرع الإنسان في مطالعة كتاب ، في أي علم كان ، تفرغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير محاكاة الألفاظ ، فيصرف سائر همته في البحث عن موضوع العلم ، وعن مجرد المنطوق والمفهوم ، وعن سائر ما يمكن إنتاجه منها ، وأما غير ذلك فهو ضياع . مثلاً ، إذا أراد الإنسان أن يطالع علم الحساب ، فإنه يفهم منه ما يخص الأعداد ، من غير أن ينظر إلى إعراب العبارات ، وإجراء ما اشتملت عليه من الاستعارات ، والاعتراض بأن العبارة كانت قابلة لتجنيس وقد تخلت عنه ، وأن المصنف قدّم كذا ولو أخره كان أولى ، وأنه عبر بالفاء في محل الواو والعكس أحسن ، ونحو ذلك . ثم إن الفرنسيين يميلون بالطبيعة إلى تحصيل المعارف ، ويتشوقون إلى معرفة سائر الأشياء . فلذلك ترى أن سائرهم له

معرفة مستوعبة إجمالاً لسائر الأشياء ، فليس غريباً عنها ، حتى إنك إذا خاطبته
تكلم معك بكلام العلماء ، ولو لم يكن منهم . فلذلك ترى عامة الفرنسيّة يبحثون
ويتنازعون في بعض مسائل علمية عويصة وكذلك أطفالهم ، فإنهم بارعون الغاية من
صغرهم ، فالواحد منهم كما قال الشاعر :

عشق المعاني الغرّ وهو مرّاهق

وافتنض أبكار الفنون وليدا

فإنك قد تخاطب الصغير الذي خرج من سن الطفولية عن رأيه في كذا وكذا
فيجيبك ، بدلاً عن قوله لا أعرف أصل هذا الشيء ، بما معناه الحكم على الشيء فرع
عن تصوّره ، ونحو ذلك . فأولادهم دائماً متأهلون للتعليم والتحصيل ، ولهم تربية
عظيمة . وهذا في الفرنسيّين على الإطلاق والعادة أنهم يزوّجون أولادهم قبل تمام
تعلّمهم ، وهذا يكون غالباً في عشرين إلى خمس وعشرين سنة . فقلّ منهم من كان
في سن العشرين ولم يبلغ درجة التدريس ، أو يتعلّم صنّعة التي يريد تعلّمها . غير
أنه قد يمكث مدّة طويلة ليتمكن من العلوم والفنون غاية التمكن . وهذا السن ، في
الغالب ، يظهر به براعة الإنسان وحسن طالعته ، كما قال الشاعر :

إذا ما أول الخطي أخطا

فما يرجى لآخره انتصار

إذا جاز الفتى عشرين عاماً

وما بلغ المراد فذاك عار

فكان هذا السن عند سائر الأمم سن انتهاء الناجب . فانظر إلى الأخضرّي فإنه في
سن إحدى وعشرين سنة قد نظم رسالة السلم وشرحها ، وكذلك العلامة الأمير
فإنه ، في دون العشرين بيسير ، صنف مجموعته فتورك على قول الأخضرّي⁽⁷⁶⁾ :

ولبني إحدى وعشرين سنة

معذرة مقبولة مستحسنة

(76) عبد الرحمن بن محمد الأخضرّي (918-983هـ/1512-1575م) : صاحب متن «السلم» وهي

أرجوزة في المنطق ، وله أيضاً «شرح السلم» ، و«الجوهر المكنون» ، وهو من أهل بسكرة في الجزائر .

بأنه وهو ، في دون ذلك السن ، ألف في أصعب من ذلك المقام ، وما قلناه بالنسبة لأرباب المعارف من الإفرنج . وأما علماؤهم فإنهم منزع آخر لتعلمهم تعلماً تاماً عدة أمور واعتنائهم ، زيادة على ذلك ، بفرع مخصوص ، وكشفهم كثيراً من الأشياء ، وتجديدهم فوائد غير مسبوقين بها ، فإن هذه عندهم هي أوصاف العالم . وليس عندهم كل مدرس عالماً ، ولا كل مؤلف علامة ، بل لا بد من كونه بتلك الأوصاف ، ولا بد له من درجات معلومة ، فلا يطلق عليه ذلك الاسم إلا بعد استيفائها والارتقاء . ولا تتوهم أن علماء الفرنسيين هم القسوس ، لأن القسوس إنما هم علماء في الدين فقط ، وقد يوجد من القسوس من هو عالم أيضاً . وأما من يطلق عليه اسم العالم ، فهو من له معرفة في العلوم العقلية التي من جملة علم الأحكام والسياسات ، ومعرفة العلماء في فروع الديانة النصرانية هينة جداً . فإذا قيل في فرنسا هذا الإنسان عالم ، لا يفهم منه أنه عالم في دينه ، بل إنه يعرف علماً من العلوم الأخر . وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى في العلوم عن عداهم ، وبذلك تعرف خلوة بلادنا عن كثير منها ، وأن الجامع الأزهر المعمور بمصر القاهرة ، وجامع بني أمية بالشام ، وجامع الزيتونة بتونس ، وجامع القرويين بفاس ، ومدارس بخارى ونحو ذلك ، كلها زاهرة بالعلوم النقليّة وبعض العلوم العقلية ، كعلوم العربية والمنطق ونحوه من العلوم الآلية . والعلوم في مدينة باريس تتقدم كل يوم ، فهي دائماً في الزيادة ، فإنها لا تمضي سنة إلا ويكشفون شيئاً جديداً ، فإنهم قد يكشفون في السنة عدة فنون جديدة أو صناعات جديدة ، أو وسائط أو تكميلات . وستعرف بعض هذا ، إن شاء الله تعالى . وما يستغرب أن في رجال العسكرية منهم من طباعه توافق طباع العرب العربا ، في شدة الشجاعة الدالة على قوة الطبيعة ، وشدة العشق الدالة ظاهراً على ضعف العقل ، ومزاجهم كالعرب في الغزل بالأشعار الحربية . فقد رأيت لهم كلاماً كثيراً يقرب من كلام بعض شعراء العرب ، مخاطباً لمحبوته بقوله :

ولقد ذكرتكَ والوغي بحر طغى

والنقع ليل والأسنة أنجم

فحسبته عرساً ونحن بروضة

وأنا وأنت بظله نتنعم

وقول الآخر⁽⁷⁷⁾ :

ولقد ذكرتكم والرماح نواهل
مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها
برقت كبارق ثغرك المتبسم
وقول صاحب لامية العجم⁽⁷⁸⁾ :

لا أكره الطعنة النجلاء قد شفعت
برشقة من نبال الأعين النجل
ولا أهاب صفاح البيض تسعدني
باللمح من خلل الأستار في الكلل
ولا أخل بغزلان تغازلني
ولو دهنتني أسود الغيل في الغيل

ولنذكر لك مجامع العلماء والمدارس المشهورة وخزائن الكتب ونحو ذلك ، لتعرف به مزية الإفرنج على غيرهم . فمن خزائن الكتب الخزانة السلطانية ، وفيها سائر ما أمكن الفرنسيات تحصيله من الكتب في أي علم كان ، بأي لغة كانت ، مطبوعة أو منسوخة . وعدة ما فيها من الكتب المطبوعة أربعمئة ألف مجلد . وفيها مبلغ عظيم من الكتب العربية الخزائنية التي يندر وجودها بمصر أو غيرها ، وفيها عدة مصاحف لا نظير لها أبداً . ثم إن المصاحف التي عند الفرنسيات في خزائنها غير مهانة ، بل هي مصنونة غاية الصون ، وإن كان عدم إهانتها حاصلًا غير مقصود ، غير أن الضرر في كونهم يسلمونها لمن يريد أن يقرأ القرآن منهم أو يترجمه أو نحو ذلك . وتوجد المصاحف للبيع في مدينة باريس ، وبعضهم لخص من القرآن العظيم سائر الآيات التي اختارها للترجمة ، ثم ترجمها وضم إليها قواعد الإسلام ، وبعض شعبه . وقال في كتابه إنه يظهر له أن دين الإسلام هو أصفى الأديان ، وأنه مشتمل على ما لا

(77) عنتره العبيسي .

(78) الطغرائي .

يوجد في غيره من الأديان . ومن خزائن الكتب الخزانة المسماة خزانة مسيو ، وتسمى خزانة الأرسنال ؛ ومعنى أرسنال : ترسانة ، وهي أعظم الخزائن بعد الخزانة السلطانية ، وبها نحو مائتي ألف مجلد مطبوعة ، وعشرة آلاف منسوخة . وأغلب هذه الكتب كتب تاريخ وأشعار ، خصوصاً الأشعار الإيطالية . ومنها خزانة مزارينة ، وفيها خمسة وتسعون ألف مجلد مطبوعة ، وأربعة آلاف منسوخة . ومنها خزانة الأنسببوت ، أي دار العلوم ، وفيها خمسون ألف مجلد . ومنها خزانة المدينة ، وهي نحو ستة عشر ألف مجلد ، وهي دائماً في الزيادة ، وكتبها آداب . ومنها خزانة بستان النباتات ، وفيها عشرة آلاف مجلد في العلوم الطبيعية . ومنها خزانة الرصد السلطاني ، وفيها كتب علم الهيئة . ومنها خزانة مكتب الحكمة . ومنها خزانة أكدمة الفرنسييس ، وهي خمسة وثلاثون ألف مجلد . وكل هذه خزائن موقوفة ، وهناك خزائن مملوكة ، وهي كثيرة جداً ، فمنها ما يشتمل على خمسين ألف مجلد ، ومنها للدولة نحو أربعين خزانة ، فأقل ما يوجد في كل خزانة منها ثلاثة آلاف مجلد ، وأكثرها في الغالب خمسون ألف مجلد وقد تنيف عن ذلك ، ولا حاجة لتسميتها هنا . ولكل إنسان من العلماء أو الطلبة أو الأغنياء خزانة كتب على قدر حاله ، ويندر وجود إنسان بباريس من غير أن يكون تحت ملكه شيء من الكتب ، لما أن سائر الناس تعرف القراءة والكتابة ، وسائر بيوت الأعيان فيها خلوة مشتملة على خزانة الكتب ، وعلى آلات العلوم وأدواتها ، وعلى التحف الغريبة التي تتعلق بالفنون ، كالأحجار التي يبحث عنها علم المعادن ونحو ذلك . ففي باريس كثير من الخزائن التي يقال لها خزائن المستغربات ، فيوجد بها ما تتشوق إليه نفوس الفضلاء ليستعينوا به على الغوص في الطبيعيات ، كالمعادن والأحجار والحيوانات البرية والبحرية المحفوظة الجثة وسائر المواليد من الأحجار والنباتات ، وسائر الأشياء التي فيها آثار القدماء ، وتعلق هذه الأشياء بالعلوم . إن الإنسان يدرس ما يراه في الكتب ويقابله ، فإن رأى في كتاب تعريف حجر كذا وحيوان كذا ، وكان الحجر أو الحيوان نصب عينه ، قابله مع الأوصاف المذكورة في الكتب . وأنفع الأشياء بالنسبة للطبيعيات بمشيئة باريس البستان السلطاني المسمى «بستان النباتات» ، وفيه سائر ما يعرفه البشر من الأمور الخارجة من الأرض الغربية ، ويزرع بأرضه سائر النباتات الأهلية التي يعالجون تطبعها

عندهم بقوة الصناعة والحكمة . فيطالع طلبة علم العقاقير والحشائش دروسهم ، ويقابلون ما في الكتاب على ما يرونه ، ويأخذون فرعاً من كل صنف من الحشائش ، يضعونه في نحو ورقة ، يكتبون اسمه وخاصيته . وفيه أيضاً سائر مراتب الحيوانات الحية ، غريبة أو أهلية ، برية أو وحشية : فيوجد بها نحو الدب الأبيض والأسود ، والسبع والضبع والنمورة ، والسنانير الغريبة ، والإبل والجواميس وغنم بلاد التبت وزرافة سنار ، وفيلة الهند وغزلان البربر والأيل وبقر الوحش ، وأنواع القردة والثعالب وسائر أنواع الطيور المعروفة لهم . وهذه الحيوانات التي تراها حية بهذا البستان تراها ميتة أيضاً محشوة بالتبن ، يراها الإنسان على صورة الحية ، كبو⁽⁷⁹⁾ البقر الذي يصنعه الفلاحون بوادي مصر . ويوجد في هذا البستان أروقة مملوءة بالمعادن النفيسة وسائر الأحجار ، سواء كانت غشيمة أو طبيعية ، فترى فيها مراتب الطبيعيات الثلاث بسائر أجناسها وأنواعها وأصنافها ، ففيها كثير من الأشياء التي لا يمكن أن نجد لها أسماء عربية ، كحيوانات بلاد أمريكة ونباتها وأحجارها . وكل هذه الأشياء موضوعة بهذا البستان ، كالعينة أو النموذج من كل شيء ، ومكتوب على كل شيء اسمه باللغة الفرنسية أو اللاتينية . مثلاً ، في القاعة التي فيها سبع ، مكتوب عليها اسم السبع باللغة الفرنسية ، وهو «ليون» وهكذا . وما وقع في هذا البستان ما اشتهر أن بعض السباع قد مرض ، فدخل حارسه ومعه كلب ، فقرب الكلب من الأسد وحس جرحه فبرى الجرح ، فحصلت الألفة بين الأسد والكلب ، ودخلت محبة الكلب في قلب الأسد ، فصار الكلب يتردد دائماً على الأسد ويتملق إليه ، ويراه كأنه من أصحابه . فلما مات الكلب مرض الأسد لفرقته ، فوضعوا معه كلباً آخر امتحاناً لتطبعه ، فتسلى به عن الميت ولا زال معه . وفي بستان النبات رواق يسمى رواق التشريح وفيه جميع الموامي ، أي الجثث المحنطة المصبرة ونحوها من الجثث . ويوجد بهذا الرواق بعض شيء من جثة المرحوم الشيخ سليمان الحلبي الذي استشهد بقتله الجنرال الفرنسي كليبير ، وقتل الفرنسيون له في أيام تغلبهم على مصر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . ومن مجال العلوم الفلكية الرصد السلطاني بمدينة

(79) البو (يفتح الباء وتشديد الواو) : جلد العجل يحشى تبناً ويقرب من البقرة لتتخذ به وتدر الحليب .

باريس ، وهو من أغرب المراصد الموجودة على ظهر الدنيا ، وذلك أنه مبني من مجرد الحجارة ، بغير دخول الحديد أو الخشب في مادته ، وهو على شكل مُسدّس الأسطحة المتوازية ، القائمة الزوايا ، موجه الضلوع الأربعة إلى الجهات الأربع : الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وفي طرف الجهة الجنوبية صومعتان مثمنتا الزوايا ، وفي طرف الجهة الشمالية صومعة ثالثة ، وهي باب الرصد . وفيه رسم الفرنسيين ، في رواق في الدور الأول ، خط نصف نهارهم ، فخرج ذلك الخط بقسم الرواق قسمين متساويين . فمن هذا الخط يحسب الفرنسيون درجة الطول ، فينسبون إليه غيره من الأماكن المغايرة له في السمّ . وقد أسلفنا ذلك موضعاً في الفصل الأوّل من المقالة الثانية . وارتفاعه وسطحه ثلاثة وثمانون قدماً فوق الأرض ، وهو منقسم إلى عدّة أروقة مناسبة لحاجة أشغال الفلك . فمن هذه الأروقة ستة لها مآرق مفتوحة ، قطر كل مرق ثلاثة أقدام ، وهو موضوع على كيفية يمكن معها رؤية السماء ، ويعين فيها على ما يحتاج إلى رصده ، فترى منها النجوم وأنت في المخادع التي تحت الأرض . وفي هذه الأروقة امتحنوا أثقل الأجسام الطبيعية ، وميزان الهواء . وفي هذا الرصد رواق كبير فيه آلات ، وعلى قلته⁽⁸⁰⁾ آلة تعديل الرياح المسماة الأتيمومتر ، بها تقاس قوّة الرياح ، وفيها طشت يسمى «دن العيار» يعدّل به ماء المطر الذي ينزل كل سنة . ومخادع هذا الرصد هي داخلية في الأرض التي مقها يساوي سمك حيطان الرصد . وإلى هذه المخادع ينزل بدرج على الدوران والانعطاف ، كدرج المنارة ، وعدّة درجها ثلاثمائة وستون . ووظيفة هذه المخادع أنها قد تفيد الطبائعية والكيمائية أن يصنعوا بها تجاربهم ، بأن يجمدوا فيها المائعات ويبردوا بها الأجسام ، ليعرفوا أمزاج الأهوية . وفيها رواق يسمى رواق المناجاة أو رواق الأسرار ، وذلك أن فيه أمراً عجيباً من قرع الصوت للأذن ، أي وصوله بالهواء إليها . وذلك أن بالرواق عموداً يقابل عموداً آخر ، فإذا وضع الإنسان فمه على العمود وأسرّ بكلام ، فإنه يسمعه الإنسان الذي بالعمود الآخر ، ولا يسمعه من يقرب منه . وهذه الأمور يفهمها من له إلمام بخاصية الصوت . ومن المحال العلمية بمدينة باريس موضع يقال له الكنسروتوار (بضم الكاف وسكون

(80) قلة الشيء : أعلاه .

النون وكسر السين وسكون الراء وفتح الواو وسكون التاء) كلمة فرنساوية معناها المخزن أو المحفظ أو نحو ذلك . وفي هذا المحل جميع الآلات ، سواء العظيمة وغيرها ، خصوصاً الآلات الهندسية ، كآلات الحيل وتحريك الأثقال ؛ ويزعم الفرنساوية أنه ليس في الدنيا نظير هذا المخزن . وفي هذا المحل يرد الصدى صوت الشخص بحد عجيب . ثم إنه يكثر بباريس مدارس سائر العلوم والفنون والصناعات . وقد سلف الكلام على اعتناء الفرنساوية بالحكمة ، يعني علم الطب ، ولهم فيها مدارس كثيرة . ولنذكر هنا محال العلماء ومراتبهم فنقول : إن العلماء في مدينة باريس لهم مجامع عظيمة تسمى بأسماء مختلفة ، فمنها ما يسمى أكدمية ، ومنها ما يسمى مجمعاً أو مجلساً ، والأنسطيطوت عندهم اسم عام يشتمل على جميع اجتماع الأكدميات ، أي المجالس الخمس : وهي أكدمية اللغة الفرنساوية ، وأكدمية العلوم الأدبية ومعرفة الأخبار والآثار ، وأكدمية العلوم الطبيعية والهندسية ، وأكدمية الصنائع الظرفية⁽⁸¹⁾ ، وأكدمية الفلسفة . وقلنا أكدمية أو أكدمية أو أكدمية ، هو لفظ مأخوذ من اسم مكان في مدينة أثينا ، كان أفلاطون الحكيم يعلم فيه تلاميذه ، ومنه قيل لطائفة من الفلاسفة القدماء «الأكاديميون» . وكان يقال لهذا المكان أكدمية لأن صاحبه كان شخصاً يونانياً اسمه أكدمس ، وقد جعل هذا المكان وقفاً لأهل مدينة أثينا ، وصيره بستاناً يتماشون فيه ويتفرجون ، فكان يدرس فيه أفلاطون ، ومنه قيل لجماعة أفلاطون أكاديميون ، ويقال لهم أفلاطونيون ، ويقال لهم أيضاً إلهيون . ويطلق أكاديميون الآن عند الفرنساوية فيفهم منه ، بمجرد إطلاقه ، أهل أكدمية الفرنسيين ، وهم كبار علماء الفرنساوية ، ووظيفتهم تأليف القواميس الفرنساوية ، وإنهم يمتحنون مؤلفات العلوم الأدبية وكتب التاريخ . وقد اتفق أن بعض علماء الفرنسيين قد بلغ درجة عالية في العلوم ، وصلاح لأن يكون من أرباب هذه الأكدمية بدل واحد من أربابها مات ، وكان هذا العالم كثير المجون فتوقفوا في قبوله في هذا الديوان ، فما كانت حيلته إلا أنه كان دائماً يعرض بهجو أهلها . فمن نوادر وقايعه أنه مر ذات يوم ومعه بعض أصحابه على هذه الأكدمية ، فتحدث مع أصحابه فتذكروا في فضل علماء أكدمية ، فقال لا شك

(81) لعل المقصود بـ(الصنائع الظرفية) : الفنون الجميلة .

أن عقول أرباب هذا الديوان كعقل أربعة ، يشير بذلك إلى بعض الأمثلة الفرنسية من قولهم في مدح الإنسان أن له عقلاً أربعة ، ومشيراً إلى عقل كل عشرة منهم كعقل واحد . فظاهر عبارته من باب المديح ، وباطنها غير ذلك . ومن نوادره أنه كتب قبل موته ، كعادة الفرنسية ، على رخامة قبره المهيأ له بيت شعر باللسان الفرنسي ، يقول فيه ما معناه بالعربية :

ها قبر من لم يك شيئاً أئمه

كلا ولا من علماً أكدمه

ومعناه : هذا قبر من لم يصل إلى درجة ، أياً ما كانت ، حتى لو بلغت هذه الدرجة في الحقارة درجة هؤلاء العلماء . وهناك أكدمه تسمى أكدمه تقييد الفنون الأدبية ، وأهل ديوان هذه الجمعية ثلاثون نفساً ، وظيفتها الاشتغال بالألسن النافعة وبآثار القدماء ، خصوصاً بالمباني الغربية ، وبالعلوم الأدبية ، وبعواید الأمم وأخلاقها ، وغالب شغلها تكميل آداب العلوم الفرنسية بما خلت عنه مما هو في كتب علوم اللغات الغربية كاللاتينية والعربية والفارسية والهندية والصينية واليونانية والعبرانية والقبطية وغيرها . ومن الأكدمات الأكدمه المسماة أكدمه العلوم السلطانية ، وأهلها منقسمون أحد عشر قسماً ، لكل قسم منهم فرع مخصوص فتكون فروعهم اثني عشر فرعاً : فأهل القسم الأول يشتغلون بالرياضيات كالهندسة والحساب ، وأهل القسم الثاني بعلوم الحيل كعلم جرّ الأثقال ونحوه ، والثالث بالعلوم الفلكية ، والرابع بالعلوم الجغرافية والعلوم التجريبية ، والخامس بعلم الطبيعة العامة ، والسادس بالطبيعة ، والسابع بعلم المعادن والأحجار ، والثامن بعلم الحشائش ، والتاسع بتدبير مصاريف الأرض ، والعاشر بتطبيب الدواب ، والحادي عشر بالتشريح ، والثاني عشر بفن الطب والجراحة . ومنها الأكدمه السلطانية المسماة أكدمه مستظرفات الفنون ، وهي خمسة فروع : الأول فن الرسم ، الثاني فن النحاتة ، الثالث فن العمارات ، الرابع فن النقاشة ، الخامس فن تركيب حروف الموسيقى . ومنها مكتب الفنون الظرفية ، وهو مكتب موقوف على تعليم علم الرسم وتوابعه ، وفيه يتعلم الرسم والنقاشة والعمارة . ومن مجالس العلوم جمعية تسمى أثينة الفنون ، وهي تعين على تقدّم الفنون والصنائع ، وهي كالحكم الذي ينفذ الأشياء ويقضي بها برأيه . ومنها أثينة باريس

السلطانية ، وهي محل علوم وفنون ، ولا يكون فيها الإنسان للتعلم إلا إذا دفع شيئاً يسيراً كل سنة ، والمدرسون فيها أرباب فضل . ومنها جمعية تسمى الجمعية الفيلوماتية ، ومعناه محبو العلوم ، والغرض من هذه الجمعية الإعانة على التقدم في علوم التولدات ، وهي مرتبة الحيوانات والنباتات والمعادن . ومنها جمعية تشتغل بعلوم الإنشاء والبلاغات ، والغرض من هذه الجمعية تدوين العلوم الأدبية وحفظ غريبها ، حتى لا تفسد لغة الفرنسيين ، وإذا اخترع الإنسان معنى غريباً ، أو أجاب عن سؤال غريب ، أو قال شعراً مقبولاً ، فإنهم يعطونه جائزة ذلك . ومنها جمعية تسمى حسن الدروس ، ووظيفتها تعليم الآداب القاثوليكية والدين القاثوليقي . ومنها جمعية تسمى أكدمية أنبا أبولون ، يعني الأدباء ، وهي مجلس أرباب الفنون الأدبية . ومنها جمعية تسمى الجمعية الجغرافية ، وهي معدة لتحسين وتكميل علم الجغرافيا ، فهي تقوي الناس على السفر إلى البلاد المجهولة الأحوال ، فإذا سافر فيها إنسان ورجع يطلبون منه سائر ما علقه عليها ، فتأخذ ما علقه وتقيدته وتدخل في كتب الجغرافية . ولذلك كان هذا العلم عند الفرنسيين دائماً يأخذ في الكمال . وبالجمل ، فهذه الجمعية هي التي تخدم سائر ما يتعلق بالجغرافيا ، كطبع الخرائط ونحوها . ومنها الجمعية الغرماتيقية ، يعني المشتغلة بنحو اللغة الفرنسية ، فإن علم النحو يسمى في اللسان الفرنسي الأغرير ، وباللاتينية والإيطالية أغرماتيقا . ووظيفة هذه الجمعية الاشتغال بتصحيح اللغة وتجديد اصطلاحات أو إبقاء الاصطلاحات القديمة ، لأن اللسان الفرنسي لسان غير قار القواعد ، كتابة وقراءة . ومنها جمعية تسمى جمعية المولعين بالكتب الخزانة ، ووظيفة أهل هذه الجمعية الحث على طباعة الكتب النافعة النادرة . ومنها جمعية للخطاطين ، وأهلها يشتغلون بإجادة الخط . ومنها جمعية تسمى جمعية المغناطيسية الحيوانية ، وهي جماعة تقول بوجود سائل مغناطيسي في الحيوان . ومنها جمعية حفظة آثار القدماء ، وهي جمعية معدة لحفظ سائر ما يوجد من الآثار الباهرة عند القدماء ، كبعض مبانيهم وموميائهم وملبسهم ونحو ذلك ، والبحث عن ذلك ليتوصل به إلى دراسة عوايدهم . ففي ذلك يوجد كثير من الأمور النفيسة المأخوذة من بلاد مصر ، كالحجر المصوّر عليه فلك البروج ، المأخوذ من دندره ، فإن الفرنسيين يتوصلون به إلى معرفة الفلك على مذهب قدماء أهل مصر . فإن مثل ذلك يأخذونه

بغير شيء ، إلا أنهم يعرفون مقامه فيحفظونه ، ويستخرجون منه نتائج شتى ومنافع عامة . ومنها مكتبة تسمى مكتبة الأطوال ، وأهلها اثنا عشر : ثلاثة مهندسون ، وأربعة فلكيون ، وأربعة بحرية ، وواحد جغرافي ، فيشتغلون بعلم الهيئة ، وتأليف الرزنامات السنوية ، وتحرير الزيجات وذكر أطوال البلاد . ومنها الجمعية السلطانية في علوم الفلاحة وتحرير توفير المصاريف البرانية والجوانية ، وأهل هذه علماء ، أغنياؤهم يعطون الجائزة لمن يخترع شيئاً جديداً نافعاً . ومنها جمعية لتحسين الأصواف ، ووظيفة أهلها مباشرة ما يتعلق بالغنم . ومنها جمعية تعين على حث الفرنساوية على البراعة في الفنون والصنائع ، وهي تعين الصنائع بسائر أنواعها على التقدم ، فإذا اقترح إنسان شيئاً نافعاً أخذ من أهل هذه الجمعية تحفة عظيمة وشهرة . وفي باريس مدارس سلطانية تسمى الكوليج (بضم الكاف وفتح اللام وسكون الياء) وهي مدارس يتعلم فيها الإنسان العلوم المهمة التي تكون وسائل في الأمور المقصودة منها ، وهي خمسة كوليجات يدرس فيها صناعة الإنشاء والتأليف ، والألسن القديمة الغريبة ، والعلوم والرياضيات ، وعلم التاريخ والجغرافيا ، والفلسفة وأصول الطبيعيات ، يعني كتبها الصغيرة ، وعلم الرسم وعلم الخط ، وفيها مراتب للطلبة ، فإن الإنسان يسلك فيها في العادة مرتبة كل سنة ، ففي كل سنة من ست سنين ، يخرج الإنسان من مرتبة إلى أعلى . فهي بالترقي ، لا بقوة الفهم ولا بغيره ، فلا يمكن للإنسان أن يتعدى أبداً . وهناك كوليجان آخران غير سلطانيين ، وفيهما يدرس ما يوجد في الكوليجات الخمسة السابقة . وفيها كوليغ آخر يسمى كوليغ الفرنساوية السلطاني ، وهو أعظم جميعها ، فيتعلم فيه الرياضيات والطبيعة المخلوطة بالحساب ، والطبيعة العملية والهيئة ، والطب والتشريح العمليان ، وفيه تعلم اللغات كالعربية والفارسية والتركية والعبرانية والسريانية والهندسة ، ولغة أهل الصين وعلومهم ، ولغة التتار ، والحكمة اليونانية التي هي فلسفة اليونان ، وعلم الفصاحة والبلاغة في اللسان اللاطيني ، وعلوم بلاغة اللغة الفرنساوية . وهذا الكوليغ يشتمل على أكابر المدرسين ، وفيه ستة آلاف طالب . ومن أشهر المدارس مدرسة بوليتقنيقا (بضم الباء وكسر اللام وسكون الياء والقاف وكسر التاء والنون وسكون الباء) يعني مدرسة كليات العلوم . وفيه يدرس الرياضيات والطبيعيات لتربية مهندسين في علم الجغرافيا وفي

العسكرية : مهندسو الجغرافيا يهندسون القناطر والأرصفة والطرق والجسور والخلجان وكل آلات الحيل ورفع الأثقال ، وأما مهندسو العلوم العسكرية فهم يهندسون القلاع والحصون والبروج ، والتوقي من ضرر الأعداء ، واتخاذ العراضى ، وهندسة تسبيل البارود . وأرباب هذه المدرسة محققون ، لهم باع في سائر العلوم ، ويكفي في فضل الإنسان أن يكون من تلاميذها . ومنها مكتب يسمى مكتب الفروع الفقهية ، فيدرسون فيه أحكام المعاملات والجنائيات ونحوها . ومنها مكتب موقوف على تعليم علم الرسم ، فيدرس فيه الذكور والإناث علم التصوير . ومنها مكتب الغناء السلطاني ، فيتعلم فيه أيضاً الذكور والإناث علم الألحان الصوتية والغناء الكنائسي . ومنها مكتب موقوف أيضاً على الرسم والرياضيات لتكون وسائل للفنون ، فيتعلم فيه الحساب والهندسة والقياس ، ونحاتة الحجر والخشب ، وعلم المساحة ، وتصوير البهيمة والآدمي والأزهار وأنواع الزينة . ومنها مكتب القناطر والجسور ، وفيه يتعلم هندسة الطرق والخلجان والأرصفة . ومنها مكتب سلطاني لتعلم علم المعادن ، وفيه يتعلم وسائط كشف المعادن واستخراجها . ومنها مدرسة الفنون والحرف ، يتعلم فيها علما الكيمياء والهندسة الداخلة في الحرف والفنون ، وفيها يوجد سائر آلات الصنائع الموجودة إلى هذا العصر . ومنها مكتب يسمى مكتب اللغات المشرقية المستعملة ، وفيه يتعلم الفارسي ، والملاباري ، والعربية الأصلية والدارجة ، ولغة الترك والأرمن والروم . ومنها مكتب يسمى مكتب الأريغولوغى (بفتح الهمزة وسكون الراء وكسر اللام وسكون الياء وضم الغين واللام وكسر الغين الأخيرة) يعني تفسير الكلمات المكتوبة من قديم الزمان في اللغات القديمة ، فيفسرون فيه النقود والمعاملات المكتوبة . ومنها مكتب سلطاني ، يتعلم فيه تواريخ الدول وسياساتها ونحو ذلك . ومنها مكتب سلطاني للموسيقى والإنشاء والخطابة ، وفيه يتعلم أهل اللعب والغناء والآلاتية من الذكور والإناث ، وأهل التعلم به أربعمئة نفس . ومنها مدرسة بستان السلطان التي هي بستان النباتات ، وبها يقرأ ثلاثة عشر درساً في جملة فروع ، كعلم الخشائش ، والطبيعيات ، والكيمياء ، والمعادن ، والتشريح ، والمقابلة بين أجزاء بدن الآدمي والبهيمة . وفيها مكتب يسمى مكتب البستنجية ، وفيه يتعلم علم زراعة الشجر وحفظه من البرد ، وتطبيع النباتات الغربية ، المنقولة على إقليم المحل الذي

نقلت إليه . ومنها مكتب تقليم الأشجار غير المثمرة ، لإخراج ثمرها . ومنها مكتب تعليم النباتات والمعادن لمن يريد السفر في بلاد ، ليميز نباتها ومعدنها . ومنها مكتب يسمى طب البهائم ، وفيه يتعم تطبيب البهائم ، وفيه مارستانات للحيوانات المريضة . وفيه مدرسة كيميا ، ومدرسة لعلم الطبيعة ، وفيه العقاقير ، وبستان حشائش ، ومكتب الفلاحة العملية ، وجملة أجناس من البهائم معدة لتجربة اختلاف أصناف البهائم وأصولها فيطلقون فيها صنفاً مثل الخيل على صنف آخر كحصان عربي على حجر⁽⁸²⁾ أندلسية ليتولد منهما صنف آخر . ومنها مكتب الصم البكم ، وهو موقوف على مائة نفس ، ويدخلون فيه من إحدى عشرة إلى ستة عشر ، فيتعلم فيه القراءة والكتابة والحساب واللسان والتاريخ والجغرافيا وصنعة من الصنائع . وفي هذا المكتب ورشة يتعلم فيها علم الطباخة والنقاشة والنجارة والخراطة والصرمانية⁽⁸³⁾ ونحوها . ومنها مكتب العميان السلطاني ، وهو موقوف على جملة محصورة من العميان ، فيتعلمون القراءة على شيء مكتوب لهم كتابة مخصوصة فيمسونها باليد ، ويتعلمون أيضاً علم الجغرافيا على خرطاط مخصوصة أيضاً ، ويتعلمون التاريخ واللغات والرياضيات والموسيقى ، بالصوت وبالألة ، وغير ذلك من الحرف كشغل الجرابات ونحوه . وغير ما ذكرنا ، يوجد أيضاً عدة مدارس . ويوجد في باريس أيضاً مكاتب تسمى البنسيونات : جمع بنسيون (بفتح الباء وسكون النون وكسر السين وضم المثناة التحتية وسكون الواو) وهي مكاتب يتعلم فيها الصغار القراءة والكتابة وعلوم الآلات كالحساب والهندسة ، وغيرها كالتاريخ والجغرافيا ، وهي نحو مائة وخمسين بنسيوناً ، وفيها أكل الإنسان وشربه ونومه وغسل ثيابه ونحو ذلك ، فيدفع أهالي الأولاد قدراً معلوماً في السنة . وغير البنسيونات المذكورة يوجد بيوت يكون صاحبها عالماً ، فيأخذ عنده عدة أولاد ليأكلوا معه ويشربوا معه ، ويعلمهم بنفسه ويحضر لهم معلمين عنده . ومن الأشياء التي يستفيد منها الإنسان كثير الفوائد الشاردة ، التذاكر اليومية المسماة الجرنالات : جمع جرنال ، وهو يجمع في اللغة الفرنسية على جرنو ، وهي

(82) الحجر (بكسر الحاء وسكون الجيم) : أنثى الخيل الكريمة ، وقد وردت في النص (حجرة) خطأ .

(83) صانعو الأحذية . الصرم (بالفارسية) : الجلد ، ومنها نحت العامة كلمة (صرماية) بمعنى : حذاء .

ورقات تطبع كل يوم ، وتذكر كل ما وصل إليهم علمه في ذلك اليوم ، وتنشر في المدينة وتباع لسائر الناس . وسائر أكابر باريس يرتبونها كل يوم ، وكذلك سائر القهاوي . وهذه الجرنالات ، مأذون فيها لسائر أهل فرنسا أن تقول ما يخطر لها ، وأن تستحسن وتستقبح ما تراه حسناً أو قبيحاً ، وأن تقول رأيها في تدبير الدولة ، فلها حرية تامة ما لم تضرّ بذلك ، فإنه يحكم عليها وتطلب بين يدي القاضي . والجرنو عصب ، فكل جماعة لها في رأيها مذهب كل يوم تقويه وتحاميه وتؤيده ، ولا يوجد في الدنيا أكذب من الجرنالات أبداً ، خصوصاً عند الفرنسيين الذين لا يتحاشون الكذب إلا من حيث كونه عيباً . وبالجملة ، فكتاب الجرنو أسوأ حالاً من الشعراء عند تجاملهم أو محبتهم . والجرنالات مختلفة الأنواع والأصناف ، فمنها ما هو معدّ لذكر أخبار داخل مملكة الفرنسيين وخارجها ، ومنها ما هو مخصوص بأمور المملكة فقط ، وما هو للمعاملات وما هو للطب ، ولكل علم على حدته كعلم الطب إلى آخره . والجرنال الواحد ينطبع منه غالباً للبيع خمسة وعشرون ألف نسخة ، وكل جرنال تكثر نسخه على حسب رغبة الناس . وأرباب الجرنو يعرفون الأخبار الغربية قبل غيرهم ، لأن لهم مراسلات مع سائر البلاد ، وهم في الواقع كخطباء الأمة يتعرّضون للمدح والذم والاستحسان والاستقبح والتحسين والتقبيح والإغراء والتحذير إلى غير ذلك . وقبلهم في ذلك المؤلفون ، وربما اتخذ المؤلفون خطابات أرباب الكازيطات مادة لهم . وأعلى درجة منهم أرباب الخطابات بالجمعيات العمومية الذين هم من أعضاء المجالس ، وهم أعلى طبقة في الاعتبار من الشعراء . فإذا نظرت وجدت هذا على نسق العرب في قديم الزمان ، فقد قال أبو عمرو بن العلاء ما نصه : كان الشاعر في الجاهلية يقدّم على الخطيب ، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم بأثرهم ، ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوق وتشرّعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر . ولذلك قال الأول : الشعر أدنى مروءة السري وأسرى مروءة الدني . وقد وضع قول الشاعر من قدر النابغة الذبياني ، ولو كان في الدهر الأول ما زاده إلا رفعة . ومن جملة علوم باريس الدفاتر السنوية ، والتقويمات الجديدة ،

والزيجات المصححة ونحو ذلك . فكل سنة يظهر فيها كثير من الروزنامات المشتمة على التواقيع ، وعلى غرائب العلوم والفنون ، وعلى كثير من أمور الدولة ، وعلى تسمية أكابر الدنيا ، وتسمية أعيان فرنسا وتعيين بيوتهم ودرجاتهم ووظائفهم ، فإذا احتاج الإنسان إلى اسم واحد وإلى بيته راجع في ذلك الكتاب . وفي باريس أرض القراءة أو خلوات القراءة ، فيذهب الإنسان فيها ويدفع قدراً معلوماً ويقرأ سائر الجرنالات وغيرها من الكتب ، ويستأجر منها ما يحتاجه من الكتب ويأخذه عنده ويرجعه . وما يبهر العقول في باريس دكاكين الكتبية وخاناتهم ، وتجارات الكتب ، فإنها من التجارات الرائجة مع كثرتها ، وكثرة المطابع ، وكثرة التأليف التي تنطبع كل سنة ، فإنها يعسر حصرها ، وأغلبها المقصود منه الكسب لا النفع . ولا تمر سنة بمدينة باريس ، إلا ويخرج من المطبعة كتب معدومة النظير . واعتناؤهم بالمعارف هو أحسن ما ينبغي أن يدحوا به . قال الشاعر :

إذا شئت أن تحظى من الكتب كلها
بأطيب مروي وأحسن مسموع
فطالع مجاميع الدفاتر أنها
تفرّق من همّ الفتى كل مجموع

وقال آخر :

اجعل جليسك دفترًا في نشره
ليريك من حكم الزمان نشورا
ومعيد آداب ومؤنس وحشة
وإذا انفردت فصاحباً وسميرا
وبالجملة فلا يمكن وصف مدينة باريس مع تفصيل علومها وفنونها ، إلا أنه يمكن التعبير عن ذلك إجمالاً كما ذكرناه .

المقالة الرابعة

في ذكر نبذ من العلوم والفنون المذكورة في الباب الثاني من المقدمة

فيما كنا عليه من الاجتهاد والاشتغال بالفنون المطلوبة لتحصيل غرض ولي النعم
وفي تدبير أشغال الزمن في القراءة والكتابة وغيرهما وفي المصاريف الواسعة الخارجة
من طرف صاحب السعادة وفي عدة مراسلات بيني وبين بعض خواص الإفرنج
تتعلق بالتعلم وفي ذكر ما قرأته من الفنون والكتب بمدينة باريس ومن هذه المقالة
تفهم أن تعلم الفنون ليس سهلاً وأنه لا بد لطالب المعارف من اقتحام الأخطار لبلوغ
الأوطار في تلك الأقطار قال الشاعر⁽⁸⁴⁾ :

دعيني أنل ما
لا ينال من العـ
فسهل العـ في الصـ
والصـ في السـ

(84) المتنبي ، وقد وردت في ديوانه كما يلي :

ذريني أنل ما لا ينال من العلى فصعب العلى في السهل والسهل في الصعب
تريدين لقيان المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل

تريدين إدراك المعالي رخيصة
ولا بدّ دون الشهد من إبر النحل
وقال آخر وهو من الكلام الجامع :
من كان يعلم أن الشهد راحته
فلا يخاف للدغ النحل من ألم
وقال آخر أيضاً :

إن الفضائل بالأخطار مولعة
فابغ الفضائل وابذل جهدك الثمنا
وإن أراك الهوى منه الهوان فقل
حكم المنية في حب الحبيب منى

الفصل الأول

فيما حصل لنا في أول الأمر من الترتيب في القراءة والكتابة وغيرهما

من عادة أهل باريس أنهم في التعلم يبتدئون بتعليم الإنسان القراءة في كتب عظيمة الحروف ، لترسم صورها في ذهنه . وفي هذه الكتب توجد الحروف الهجائية بتركيبها ، ثم بعدها عدة ألفاظ لغوية من الأسماء والأفعال . فهذه الطريقة يتعلم الإنسان منها الكتابة ، ويحفظ هذه الكلمات وينطق بها كما ينبغي حتى تخرج لغته من صغره صادقة الجودة . ثم بعدها تلقى في هذه الكتب عدة جمل سهلة التعقل تناسب الصغار ، فمن هذه الجمل ما وجدناه في الكتاب الذي قرأنا : هذه فرس لها أربع أرجل ، والطيور ليس لها إلا رجلان لكن لها أجنحة تطير بها ، وأما السمك فإنه يسبح في الماء ، ونحو ذلك مما هو معلوم للمخاطب ، فهو مثل قول النحاة : السماء فوقنا والأرض تحتنا ، الممثل به لما لم يفد فائدة جديدة ، على اختلاف تفسير الوضع في قولهم : الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع . ثم بعد ذلك يوجد في هذا الكتاب أوصاف الحيوانات المعروفة ، خصوصاً التي تتعلق بالصغار باللعب بها ، من العصافير والطيور والسنانير ونحو ذلك . ثم بعد ذلك نبذة صغيرة في كيفية سلوك الصغار وطاعتهم للوالدين ونحو ذلك . ثم نبذة في علم الحساب فبعد فراغ هذا

الكتاب ، يبدوون في قراءة كتاب أهمّ منه ، وفي كتاب النحو الفرنسي وغيره ، وتقسيم الزمن على دروس الإنسان ، فإن الإنسان يتعلم في النهار عدّة أمور مختلفة ، فيقرأ في الصباح مثلاً التاريخ ، ثم بعده درس تصوير مع معلم الرسم ، ثم بعده درس النحو الفرنسي ، ثم بعده درس تقويم البلدان ودرساً مع معلم الرسم ، ثم بعده درس النحو الفرنسي ، ثم بعده درس تقويم البلدان ودرساً مع معلم الخط لتعلم قواعد الكتابة إلى آخره . وقد أسلفنا ذلك . ولما كانت آمال وليّ النعم متعلقة بتعلمنا عاجلاً ورجوعنا إلى أوطاننا ، ابتدأنا في مرسيليا قبل وصولنا إلى باريس ، وتعلمنا في نحو ثلاثين يوماً التهجي . ثم لما ذهبنا إلى باريس ، مكثنا جميعنا في بيت واحد وابتدأنا في القراءة ، فكانت أشغالنا مرتبة على هذا الترتيب : وهو أننا كنا نقرأ في الصباح كتاب تاريخ ساعتين ، ثم بعد الغداء نتعلم درس كتابة ومخاطبات ومحاورات باللغة الفرنسية ، ثم بعد الظهر درس رسم ، ثم درس نحو فرنساي . وفي كل جمعة ثلاثة دروس من علمي الحساب والهندسة . وفي مبدأ الأمر كنا نأخذ في الخط درسين ، يعني في معرفة الكتابة الفرنسية ، ثم بعد ذلك كنا نأخذ كل يوم درساً ، ثم انتهى الأمر إلى أننا تعلمنا الخط فانقطع عنا معلم الخط . وأما الحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا فلم نزل نشغل بها حتى سهل الله علينا بالرجوع . وقد مكثنا جميعنا في بيت واحد دون سنة ، نقرأ معاً في اللغة الفرنسية وفي هذه الفنون المتقدّمة ، ولكن لم يحصل لنا عظيم مزية إلاّ مجرد تعلم النحو الفرنسي . ثم بعد ذلك تفرّقنا في مكاتب متعدّدة ، كل اثنين أو ثلاثة أو واحد منا في مكتب مع أولاد الفرنسية ، أو في بيت مخصوص عند معلم مخصوص ، بقدر معلوم من الدراهم في نظير الأكل والشرب والسكنى والتعليم وتعهد أمورنا من غسل ونحوه ، فكان يأخذ صاحب المكتب أو البيت نحو عشرة أكياس⁽⁸⁵⁾ كل سنة في نظير ذلك ، ولا يلزمنا شيء في المأكل والمشرب . ولما كانت طباع هذه البلاد شدة البرودة ، كان لكل واحد منا في كل سنة بثلاثمائة قرش خشب للتدفّي بها . وغير هذه المصاريف العظيمة ، كان يشتري لنا من طرف الميري أيضاً القمصان والسراويل والنعال وسائر ما يلزم من الآلات

(85) ربما كان هذا خطأ مطبعياً لم أتّين صوابه ، أو أن المقصود مقدار معين من الدراهم لم يوضحه المؤلف .

والأدوات ، مثل الكتب والورق والخبر وأقلام التصوير وغيرها . وما ينبغي ذكره أيضاً ما كان يعطى للحكماء والأجزاء في مداواة من كان يمرض منا ، فإن الحكماء بباريس مع كثرتهم غاية الكثرة يأخذون في زيارتهم للمريض الموسر قدراً له وقع ، على اختلاف مراتبهم في الشهرة وعدمها ، ويتعدّد القدر بتعدّد الزيارة ، وهذا إن لم يكن للحكيم سنوية معلومة . وقد أسلفنا ذلك في باب اعتناء الفرنساوية بالطب وتعهدهم للصحة . فأقل الحكماء يأخذ ، في كل زيارة يمكث فيها نحو نصف ساعة ، ثلاثة فرنكات ؛ والحكيم المتوسط يأخذ في كل زيارة خمسة فرنكات ؛ والحكيم الجليل القدر يأخذ في كل زيارة أبلغ من خمسين فرنكاً . وكلما تعدّدت الزيارة في اليوم الواحد تعدّد القدر ، وأما بالنسبة للمعدم ، فقد لا يأخذون منه شيئاً . ونحن نعدّ هناك من الموسرين ، بل من الأغنياء ، لتجملنا بالملبس الغريب عندهم ولنسبتنا لولي النعم . ولكثرة هذه المصاريف في تعليمنا وغيره من سائر ما ذكرنا ، كان ناظر التعليم أو الضابط علينا يذكرنا به في أغلب الأوقات لنجتهد . وستري بعض ذلك في مراسلات كتبها لي بعد الامتحان العام .

الفصل الثاني

في تدبيرنا في شأن الدخول والخروج

حين اجتماعنا في بيت الأفندية ، كنا لا نخرج منه ليلاً ولا نهاراً ، إلا يوم الأحد الذي هو عيد الإفرنج ، بورقة إذن للبواب من الضابط الذي نظره علينا ولي النعم . ثم بعد تفرّقنا في المكاتب المسماة البنسيونات كنا نخرج أيام البطالة ، وهي يوم الأحد بتمامه ، ويوم الخميس بعد الدروس ، وأيام أعياد الفرنساوية . ومنا من كان يخرج كل ليلة بعد العشاء ، إن لم يكن له درس بعده . ولنذكر لك هنا قانون نامة⁽⁸⁶⁾ الذي صنعه الأفندية بعد دخولنا في البنسيونات ، وعبارته هذه صورة ترتيب الأفندية في البنسيونات .

(86) نامة (فارسية) : كتاب ، والمقصود لائحة القوانين .

المادة الأولى : أن يوم الأحد المقرر لهم الخروج فيه ، يلزم أن يخرجوا من البنسيونات في الساعة التاسعة ، ويأتوا إلى البيت المركز من أول الأمر ، ويقدموا وقت الدخول ورقة معلمهم إلى الأفندي النوبتجي في هذا الشهر ، لأجل أن يعلم ساعة دخولهم في البيت . وبعد ذلك يذهبون إلى المواضع المعدة للفرجة ، بشرط أن يجتمع ثلاثة أو أربعة ثم يرجعون إلى البنسيونات في أيام الصيف في الساعة التاسعة ، وفي أيام الشتاء في الثامنة . وهذا الترتيب لازم ولا بد ، فإن رجع أحد إلى البنسيون قبل ذلك وتعشى هناك فهو أولى وأحسن ، ومن اللوازم أن لا يدور أحد في الأزقة ليلاً . ومتى دخل في البنسيونات يعطي الورقة المذكورة للمعلم .

المادة الثانية : أن من لم يمثل لخصوص ما سبق يمنع الخروج من البنسيون ، بحسب الاقتضاء ، جمعة أو جمعتين .

المادة الثالثة : أن كل من له شكاية من معلمه لا تسمع ولا تقبل حتى يكتبها في ورقة ، ولا تسمع إلا من جهة التعليم ، أو من جهة أخرى يحصل له منها ضرر ، ولكن قبل أن يكتب ورقة الشكاية يعرف عنها معلمه مرة ، ثم يكتبها للنوبتجي في هذا الشهر .

المادة الرابعة : أن جميع الأفندية يمتحنون في آخر كل شهر ، ليعرف ما حصلوه من العلوم في هذا الشهر ، ويسألون عما يحتاجون إليه من الكتب والآلات ، ويكتب في آخر كل شهر كسبهم وتحصيلهم وأفعالهم على الصحيح . ولأجل هذا ينبغي التفكير في هذا بالخصوص ، لأجل تحصيل غرض حضرة ولي النعم .

المادة الخامسة : لو احتاجوا شيئاً من الكتب والآلات في أثناء الشهر ، يطلبونه من معلمهم بورقة يكتبونها له ، ومعلمهم يخبر بذلك مسيو جومار ، فإن رآه مناسباً يعطيهم ذلك بعدما يخبر النوبتجي . فإن اشترى أحد شيئاً من غير إجازة ، يلزمه أن يدفع ثمنه من عنده .

المادة السادسة : أنه بعد الامتحان بما ذكرنا في المادة الرابعة ، إن استحق أحد من الأفندية الهدية بنجابته ، تعطى له كتب وآلات وسكة .

المادة السابعة : في محل التفرّج أو الطريق لا ينبغي لأحد منهم أن يرتكب ما يخل بمروءته ، وهذا الأمر هو أهم الجميع ، ومنوع أشد المنع .

المادة الثامنة : أن كل الأفندية الذين هم في البنسيونات لا يدخلون في البيت المركز ، إلا كل خمسة عشر يوماً مرة ، وهو يوم الأحد .

المادة التاسعة : أن يوم الأحد الذي لا يأتون فيه إلى البيت ، يخرجون فيه مع أولاد الفرنساوية أو مع المعلمين إلى مواضع التفرّج أو الرياضة أو ما ينبغي رؤيته ، وكذلك يوم الخميس أو يوم التعطيل ، إن لم يكن عليهم شغل ، فيذهبون مع من ذكر إلى المواضع المذكورة .

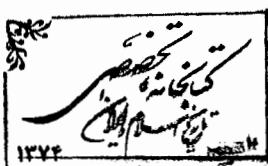
المادة العاشرة : يتبعون قوانين البنسيون ، كأولاد الفرنساوية ، بالتدقيق والاهتمام في غير الأمور المتعلقة بالدين .

المادة الحادية عشر : إذا خالف أحد هذا الترتيب يقابل بقدر مخالفته ، وإذا أظهر عدم الطاعة يحبس بالخشونة . وإن كان أحد يتشبث بأفعال غير لائقة وأطواره غير مرضية ، وجاءت تذكرة من معلمه تشهد عليه بقبح حاله وتبين عصيانه ، فمثل ما ذكر حضرة وليّ النعم أفندينا في القوانين التي أعطاهما لنا لنتشاور مع المحبين لحضرة أفندينا من أهالي هذه المدينة ، ونرسل فاعل القبح والعصيان بنفسه حالاً إلى مصر ، من غير شك ولا شبهة .

المادة الثانية عشر : أن جميع الأفندية يكونون في البنسيونات في هذا الترتيب على حد سواء ، وإن كان في البنسيونات مائدتان ، إحداهما للمعلمين والأخرى للتلامذة ، فأفنديتنا يأكلون مع معلميه .

المادة الثالثة عشر : أن الأفندية المذكورين يلزمهم جميع ما ذكر من القوانين من غير امتياز ، وبسبب ذلك أعطينا كل واحد منهم صورة ذلك .

المادة الرابعة عشر : كل المواد السابقة هي خلاصة أفكارنا ونتيجة أذهاننا وأذهان الأعيان الذين وصاهم علينا حضرة أفندينا ؛ وبناء على ذلك ، كل أحد يلزمه أن يتبعه ، مع التنبيه لأجل تحصيل رضا حضرة أفندينا وليّ النعم . فمن لم يمتثل أو تعلل بشيء ، يجري عليه ما هو مذكور في قانون حضرة أفندينا وليّ النعم ، حفظه الله .





الفصل الثالث

في ترغيب ولي النعم لنا في الشغل والاجتهاد

جرت عادته ، من مدة خروجنا من مصر ، بأنه كان يتفضل علينا ببعثه لنا فرماناً ، كل عدة أشهر ، يحثنا فيه على تحصيل الفنون والصنائع . فمن هذه الفرمانات ما كان من باب ما يسمى عند العثمانية إحياء القلوب ، مثل الفرمان الآتي . ومنها ما كان من باب التوبيخ على ما كان يصله منا ويبلغه عنا من بعض الناس ، حقاً أو غير ذلك ، كفرمان آخر وصلنا قبل رجوعنا إلى مصر القاهرة . ولنذكر لك هنا فرماناً من النوع الأول الذي هو إحياء للقلوب ، وإن كان فيه أيضاً شائبة توبيخ لتعلم كيف كان ، حفظه الله ، يحثنا على التعليم ، وهذه صورة ترجمته :

قدوة الأمثال الكرام الأفندية المقيمين في باريس لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم ، ينهى إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم ، وإن كانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة ، لم يفهم منها ما حصلتموه في هذه المدة ، وما فهمنا منها شيئاً ، وأنتم في مدينة مثل مدينة باريس التي هي منبع العلوم والفنون . فقياساً على قلة شغلكم في هذه المدة ، عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم ، وهذا الأمر غمنا غماً كثيراً . فيا أفندية ما هو مأمولنا منكم ، فكان ينبغي لهذا الوقت أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئاً من أثمار شغله وآثار مهارته ، فإذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة ، وجئتم إلى مصر بعد قراءة بعض كتب فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون ، فإن ظنكم باطل ؛ فعندنا ، ولله الحمد والمن ، رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة ، فكيف تقابلونهم إذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون؟ فينبغي للإنسان أن يتبصر في عاقبة أمره ، وعلى العاقل أن لا يفوت الفرصة وأن يجني ثمره تعبته . فبناء على ذلك ، إنكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة ، وتركتم أنفسكم للسفاهة ، ولم تفكروا في المشقة والعذاب الذي يحصل لكم من ذلك ، ولم تجتهدوا في كسب نظرنا وتوجهنا إليكم ، لتتميزوا بين أمثالكم ، فإن أردتم أن تكتسبوا

رضاءنا ، فكلّ واحد منكم لا يفوّت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون . وبعد ذلك كل واحد منكم ، يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر ويبين ، زيادة على ذلك ، درجته في الهندسة والحساب والرسم وما بقي عليه في خلاص هذه العلوم ، ويكتب في كل شهر ما تعلمه في هذا الشهر ، زيادة على الشهر السابق . وإن قصرتم في الاجتهاد والغيرة فاكتبوا لنا سببه ، وهو إما من عدم اعتنائكم أو من تشويشكم ، وأي تشويش لكم؟ هل هو طبيعي أو عارض؟ وحاصل الكلام أنكم تكتبون حالتكم ، كما هي عليه ، حتى نفهم ما عندكم . وهذا مطلوبنا منكم . فاقروا هذا الأمر في ديوان مصر مجتمعين ، وافهموا مقصود هذه الإرادة . قد كتب هذا الأمر في ديوان مصر ، في مجلسنا في إسكندرية ، بمنه تعالى . فمتى وصلكم أمرنا هذا ، فاعملوا بموجبه ، وتجنبوا وتحاشوا عن خلافه . (خمس في ربيع لأول سنة 1245 خمس وأربعين بعد الألف والمائتين من الهجرة) . انتهت صورة المکتوب .

ومن وقت هذا المکتوب صرنا نكتب كل شهر جميع ما قرأناه وما تعلمناه في ذلك الشهر ، ويكتب تحته المعلمون أسماءهم ويبعثونه إلى وليّ النعم . فلما تساهل بعض منا في ذلك ، كتب مسيو جومار إلينا جميعاً مكاتيب ليأمر من كان مواظباً على كتابة هذه الأوراق في كل شهر أن يدوم على مواظبته ، ويوبخ من تساهل . وهذه صورة ترجمة المکتوب الذي أرسله إليّ في هذا المعنى ، ولنذكره كما هو :

باريس 15 في شهر يونيه 25 في شهر محرّم سنة 1246

إلى محبنا العزيز الشيخ رفاعه ، لا يخفى عليكم الأمر الوارد من وليّ النعم ، المتعلق بالأوراق الشهرية ، المشتملة على الدروس التي قرأتموها ؛ قدم على ما أنت عليه من المواظبة ، وابعث هذه الأوراق في اليوم الثلاثين من كل شهر لمسيو المهردار أفندي ، واطلب منه أوراقاً غير مكتوبة لتكتبها بعد ذلك . ومن المعلوم أن هذه الورقة الشهرية لا تأخذ في كتابتها إلا نصف ساعة ، لأن الغرض منها مجرد ضبط عدد الدروس التي قرأتها ، ومعرفة نوعها ، وليكتب رئيس مدرستك في كل شهر في الورقة الشهرية ، تحت اسمك . ولا يخفى عليّ اجتهادك ، ولا أجهل قدر ثمرة تحصيلك ، فأطلب منك أن تواظب على توفية الحقوق التي كلفت بها ، واعلم وتيقن بمحبتتي لك .

جومار

أحد أرباب ديوان الأتسطينيوت



الفصل الرابع



في بعض مراسلات بيني وبين بعض من كبار علماء الفرنساوية غير مسيو جومار
فمن كاتبني عدّة مرّات مسيو دساسي ، ولنذكر لك بعض مكاتيبه . فمنها ما كتبه
باللغة العربية ، ومنها ما كتبه باللغة الفرنساوية .

صورة مكتوب منه

من الفقير إلى رحمة ربه ، سبحانه وتعالى ، إلى المحب العزيز المكرّم والأخ المعز
المحترم الشيخ الرفيع رفاعة الطهطاوي ، صانه الله عز وجلّ من كل مكروه وشرّ وجعله
من ذوي العافية وأصحاب السعادة والخير .

أما بعد ، فإن القطعة التي أكملت المطالعة فيها ، من كتابك النفيس وحوادث
إقامتك في باريس ، رددتها إليك على يد غلامك ، ويصلك صحبتها حاشية مني
على ما تقوله في باب تصريح الفعل في لغتنا الفرنساوية ، فإذا نظرت فيها تبين لك
صحة ما نستعمله من صيغة الفعل الماضي ، فمن الواجب عليك أن تصنف كتاباً ،
يشتمل على نحو اللغة الفرنساوية المتداولة عند أمم أوروبا كلها وفي ممالكها ، حتى
يهتدي أهل مصر إلى موارد تصانيفنا في فنون العلوم والصناعات ومسالكتها ، فإنه
يعود لك في بلادك أعظم الفخر ، ويجعلك عند القرون الآتية دائم الذكر .

ودمت سالماً .

كتبه المحب

سلوستري دساسي

صورة مكتوب آخر

إلى حبيبنا الشيخ رفاعه الطهطاوي ، حفظه الله وأبقاه .

أما بعد ، فإنه سيصلك مع هذا ما طلبته منا من الشهادة بأننا قرأنا الكتاب المشتمل على حوادث سفرك . وكل ما أمنت فيه النظر ، من أخلاق الفرنساوية وعوايدهم وسياساتهم وقواعد دينهم وعلومهم وآدابهم ، وجدناه مليحاً مفيداً يروق الناظر فيه ويعجب من وقف عليه . ولا بأس أن تعرض خط يدنا على مسيو جومار ، وإن شاء الله ، يحصل لك بمصنفك هذا حظوة عند حضرة سعادة الباشا ، وينعم عليك بما أنت أهله ، ودمت على أحسن حال .

محبك الداعي

سلوستري دساسي الباريزي

وصحبة هذا المكتوب ، أرسل إليّ ورقة باللغة الفرنسية لأطلع عليها مسيو جومار ، وهي بالتقريظ أشبه ، وصورة ترجمتها :

لما أراد مسيو رفاعه أن أطلع على كتاب سفره ، المؤلف باللغة العربية ، قرأت هذا التاريخ إلّا اليسير منه ، فحق لي أن أقول إنه يظهر لي أن صناعة ترتيبه عظيمة ، وأن منه يفهم إخوانه من أهل بلاده فهماً صحيحاً عوايدنا وأمورنا الدينية والسياسية والعلمية ، ولكنه يشتمل على بعض أوهام إسلامية . ومن هذا الكتاب يغرف علم هيئة العالم ، وبه يستدلّ على أن المؤلف جيد النقد ، سليم الفهم ، غير أنه ربما حكم على سائر أهل فرنسا بما لا يحكم به إلّا على أهل باريس والمدن الكبيرة ، ولكن هذه نتيجة متولدة ضرورة من حالته التي هو عليها ، حيث لم يطلع على غير باريس وبعض المدن ، وقد حرص في باب العلوم على ذكر المعلومات توطئة للتوصل إلى المجهولات ، خصوصاً في نبذته المتعلقة بعلم الحساب وبهيئة الدنيا . وعبارة هذا الكتاب في الغالب واضحة ، غير متكلف فيها التعميق كما يليق بمسائل هذا الكتاب ، وليست دائماً صحيحة بالنسبة لقواعد العربية . ولعل سبب ذلك أنه

استعجل في تسويده ، وأنه سيصلحه عند تبويضه . وفي التكلم على علم الشعر ، ذكر استطراداً بعض أشعار عربية ، أجنبية من موضوع هذا الكتاب على ما يظهر لي ، لكنه ربما أعجب ذلك إخوانه من أهل بلاده . وفي الكلام على تفضيل الصورة المدوّرة على غيرها من الأشكال ، ذكر بعض أشياء قليلة الجدوى ، فينبغي له حذفها . وما ذكرت هذه الأشياء ، وبينتها هذا التبيين ، إلا للإعلام بأنني دققت النظر في قراءتي هذا الكتاب . وبالجملة ، فقد بان لي أن مسيو رفاعه أحسن صرف زمنه مدة إقامته في فرنسا ، وأنه اكتسب فيها معارف عظيمة وتمكن منها كل التمكن ، حتى تأهل لأن يكون نافعا في بلاده . وقد شهدت له بذلك عن طيب نفس ، وله عندي منزلة عظيمة ومحبة جسيمة .

البارون سلوستري دساسي

باريس في شهر فبريه سنة 1831 (19 في شعبان سنة 1246)

وصورة ترجمة مكتوب ، كتبه لي قبيل خروجي من مدينة باريس :
بعد إهداء السلام إلى مسيو رفاعه ، يحصل لي حظ عظيم ، إذا جاء عندي يوم الاثنين الآتي والساعة في 3 ، إن أمكنه أن يسرّني برؤيتي له لحظات لطيفة ، ويحصل لي أيضاً غاية الانبساط ، إذا بعث لي أخباره بعد وصوله إلى القاهرة . فإذا لم يتيسر لي رؤيته ، طلبت له طريق السلامة ، ولا أزال أتذكر دائماً آثاره وأستنشق أخباره ، مع انجذاب قلب وانشراح صدر .

البارون سلوستري دساسي

وصورة ما كتبه مسيو كوسين دي برسوال مدرس اللغة العربية المتداولة ، في المحاورات المشهورة باسم الدارجة عند العامة ، بدار كتب خانة السلطانية بباريس . وكنت كتبت له أن يبعث لي رأيه في هذه الرحلة ، فكتب هذا الجواب ، وصورته :
حضرة المحب العزيز الأكرم ، الفصيح اللسان والقلم ، جناب الشيخ رفاعه المحترم حفظه الله أمين .

بعد إهدائككم جزيل السلام ومزيد التحية والإكرام ، فقد ورد علينا عزيز مكتوبكم

البارحة ، فبادرنا بقضاء حاجاتكم ، فواصل لكم طية تحرير تحتوي على رأينا في كتاب حوادث سفركم الذي تفضلتم علينا بإطلاعنا عليه . وبالحقيقة ، قلنا مثل ما هو اعتقادنا ، وشرحنا ما وجدنا فيه من المحاسن . وأما بخصوص المذام ، فما لقينا من حسن ذلك شيئاً . وحيث أنكم عازمون على السفر في آخر هذا الشهر ، فالمأمول من حسن محبتكم أنكم ، بعد وصولكم بالسلامة إلى بلادكم ، لا تخرجونا من خاطركم ، وتواصلونا بالإعلام بصحتكم . ونترجاكم أيضاً ، أنه إذا طبع كتابكم ، (أن) تبعثوا لنا منه نسخة . وبذلك تصيرون ممنونين ولأفضالكم شاكرين ، والله تعالى يحفظكم ، والسلام . محبكم

24 شباط سنة 1831

كوسين دي برسوال

والمراد بطية التحرير ورقة شهادته بأنه اطلع على هذا الكتاب ، وقال رأيه فيه . وصورة ترجمة هذه الطية التي كتبها لمسيو جومار ، باللغة الفرنسية ، ليخبره برأيه في هذه الرحلة :

قرأت بالتأمل مؤلف الشيخ رفاعة الملقب بتخليص الإبريز في تلخيص باريز ، فوجدته يتضمن حكاية صغيرة في سفر المصريين المبعوثين إلى فرنسا ، من طرف وزير مصر الحاج محمد علي باشا ، وتشتمل على تخطيط مدينة باريز ، وعلى نبذات موجزة في جملة فروع من العلوم المطلوبة التعليم من هؤلاء التلامذة . وقد ظهر لي أن هذا التأليف يستحق كثيراً من المدح ، وأنه مصنوع على وجه يكون به نفع عظيم لأهالي بلد المؤلف ، فإنه أهدى لهم نبذات صحيحة من فنون فرنسا ، وعوايدها وأخلاق أهلها ، وسياسة دولتها . ولما رأى أن وطنه أدنى من بلاد أوروبا في العلوم البشرية والفنون النافعة ، أظهر التأسف على ذلك ، وأراد أن يوقظ بكتابه أهل الإسلام ، ويدخل عندهم الرغبة في المعارف المفيدة ، ويولد عندهم محبة تعلم التمدن الإفرنجي ، والترقي في صنائع المعاش . وما تكلم عليه من المباني السلطانية والتعليمات وغيرها ، أراد أن يذكر به لأهالي بلده أنه ينبغي لهم تقليد ذلك . وما نظر فيه ، في بعض العبارات ، يدل في الغالب على سلامة عقله ، وخلوه من التعسف

والتحامل . وعبرة هذا الكتاب بسيطة ، أي غير متكلف فيها الترميق ، ومع ذلك فهي لطيفة . وحين كانت نسخة هذا الكتاب بيدي ، كان الجزء الذي يتعلق بالعلوم والفنون غير تام ، فلما رأيت منه الأنبة في الرياضيات ، وعلم هيئة الدنيا ، ومبادئ أصول الهندسة ، والجغرافيا الطبيعية ، فهذه النبذات وإن كانت موجزة إلا أنها مشبعة ، فيترجى أن المؤلف يدوم على تأليف النبذات الباقية بهذه المثابة . وإذا اجتمعت هذه النبذات في هذا الكتاب ، فإنها تكون كتاب علوم مستقلا ، مفتاحاً لغيره من العلوم ، نافعا لأهل العربية . وإذا فرغ الكتاب بهذه الطريقة فإنه يستدل به على رفعة عقل مؤلفه ، واتساع دائرة معرفته .

كوسين دي برسوال

فإذا قابلت هذا المكتوب مع ما تقدم ، رأيت أن مسيو دساسي ومسيو كوسين اتفقا على حسن هذا الكتاب ، وعلى بساطة عبارته ، أي عدم التألق فيها ، وعلى نفعه لأهل مصر . وإنما مسيو دساسي عابه بثلاثة أشياء : الأول ، اشتماله على بعض مسائل يعتقد أنها من أوهام الإسلام ؛ الثاني ، جعلنا ما ينسب لمدينة باريس وغيرها من المدن عاماً لسائر بلاد فرنسا ؛ الثالث ، ذكرنا بعض أشياء قليلة الجدوى عند تفضيل الشكل المدور على غيره من الأشكال . وأما مسيو كوسين ، فإنه لم يتعرض لما جعله مسيو دساسي من باب الأوهام . ولما تحدثت معه في شأن ذلك أجابني بأنه لم ير ذلك مضراً ، حيث أنني كتبت على ما هو في اعتقادي ، وإلا لو تتبعته ما قاله الإفرنج ووافقت آراءهم للحياء أو غيره لكان ذلك محض موالسة⁽⁸⁷⁾ . وأما قوله كمسيو دساسي إلى عبارة هذا الكتاب بسيطة ، فمعناه أن تراكيبه لم يحاول فيها سلوك طريق البلاغة . يقال عند علماء الفرنساوية عبارة بسيطة في مقابلة العبارة البليغة .

ولنذكر لك هنا رسالة من شخص كان بيني وبينه محبة أكيدة . وصورة اجتماعي بهذا الشخص أنني دخلت مكتبه لقراءة الكازيطات ، أي الوقائع اليومية ، فتعرفت

(87) الموالسة : الخداع والمداينة .

بهذا الشخص الذي هو محاسبجي في وزارة الخزانة المالية ، وأخوه مأمور د برطمانه ، يعني إقليمياً من أقاليم فرنساوية . وهو من بدنة عظيمة تسمى السلاوانية ، نسبة إلى سلاوان يعني صلاح الدين ، يتوهمون أنهم ينتسبون إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي ، قائلين إنه يحتمل أن يكون حين محاربته مع الإفرنج ، تسرى بفرنساوية فحملت منه ، ثم انطلقت إلى بلادها فبقي الاسم في أولادها وذرياتها إلى الآن . ثم إنني كما تعرّفت به تعرّفت بسائر أقاربه ، ولا زلت معهم على الصحبة الأكيدة مدّة إقامتي في باريس . فلما سافرت كان عند أخيه المأمور في إقليم الترك في مدينة يقال لها ألبى ، فأرسل إليّ هذا المكتوب ، وهذه صورة ترجمته ، مع بعض حذف جائز :

«إلى حضرة عزيزنا الشيخ رفاعة ، قد سلمت أمانتك لابن شيخ المأمورية ليعطيها لك ، فانتظرها بعد وصول هذا المكتوب بزمان يسير . وقد وكلني أخي بأن أخبرك بثنائه عليك ، على ما صنّعه معه من الجميل في إعارتك له هذه الأمانة ، وأن أهنئك على بلوغك المأمول . هل عن قريب تفارقنا لتري وطنك العزيز؟ فإن شاء الله تجتمع بما تركته فيه من الأقارب والأحباب ، وتجده بخير . فقد بلغني أن سفرك قد قرب جداً حتى إنني لا أظنّ أن أقابلك في مدينة باريس . ولكن لو سافرت قبل هذا الزمان بيسير لاجتمعنا في مرسيليا ، وودعتك في آخر مدينة من مدن فرنساوية تعبر فيها في سفرك . ولو تأخر سفرك مدّة يسيرة ، لافترقنا في مدينة باريس التي كان بها أوّل اجتماعنا . ولا أدري إن كان التلاقي مقدراً أم لا ، ولكن تقلبات الدهر كثيرة ، خصوصاً للإفرنج ، فلا يمكنني أن أجزم بعدم الاجتماع . وبالجملّة ، فلا شك أنك تركت في فرنسا صديقاً يتذكرك ويتأثر لك ، بما يقع لك من النفع والضرر ، ويسرّ غاية المسرّة إذا بلغه أنك تحظى في بلادك بثمرة فضلك وأوصافك . وليت شعري ، ترجع إلى بلادك بأيّ اعتقاد في طبيعة فرنساوية؟ فقد رأيت هذه الملة في وقت بنبغي أن يكون تاريخاً من غرائب سيرها . وأظنّ أنك تسأل في بلادك مراراً عديدة عن هذه الفتنة العظيمة ونصرة فرنساوية في طلب الحرّية . فإذا وقع اتفاقاً أن سفرك توقف مدّة أيام ، فأملّي أن أراك في مدينة باريس وإلاّ فأرجو منك أن لا تسافر حتى تودّعني . بلسان القلم بمحبتي لك غاية المحبة» . انتهت صورته .

جول سلاوان

وهذه صورة مكتوب ، تفهم منه أيضاً رغبة الفرنساوية في تحصيل الكتب الغربية ، وترغيبهم للمؤلفين أو المترجمين في ترجمة الكتب وتأليفها . وهذه صورة ترجمة هذا المكتوب :

«إلى مسيو الشيخ رفاعة ، قد حملني مسيو دبنغ أن أسأل عن ترجمتك لكتاب العلوم الصغير ، المشتمل على أخلاق الأمم وعوايدهم وآدابهم ، لأن مسيو دبنغ مؤلف هذا الكتاب . فإذا كانت ترجمتك تنطبع في مصر ، هل يتيسر لمؤلف الأصل أن يقيد اسمه لتحصيل عدة نسخ من نسخ هذا الكتاب بالشراء؟ ونعرفك أنك تخبرنا إلى أي محل وصلت في الترجمة من المجلد الأول من جغرافيا ملطبرون ، فإن هذا الجزء الآن يطبع طبعاً آخر مصححاً مشتملاً على زيادات لا توجد في الأول ، فلا بأس أن نحيطك به علماً ، فإنه يكمل طبعه في أثناء هذا الشهر . ومني إليك مزيد التحية» .

محبك الصادق

رنو

بخزانة الكتب السلطانية بباريز .

الفصل الخامس

في ذكر ما قرأته من الكتب في مدينة باريس وفي كيفية الامتحانات وفيما كتبه لي مسيو جومار وفيما كتب من خلاصة الامتحان الأخير في الوقائع العلمية وأذكر هنا ما قرأته مرتباً بهذا الترتيب وإن تكرّر مع ما سبق .

تعليم أصول نحو الفرنساوية

كان خروجنا من الكرنتينة في السابع والعشرين من شهر شوال سنة 41 ، وبعد أيام قليلة في مرسيليا ابتدأنا في التهجي والقراءة ، وبعد نحو أربعين يوماً تعلمنا الحروف الفرنساوية والتهجي . ووصلنا باريس في شهر محرّم ، فرجعنا ثانياً للابتداء في أصول الهجاء ، واشتغلنا بذلك نحو شهر . ثم ابتدأنا جميعاً في قراءة أجرومية

لومند ، في نحو اللغة الفرنسية ، وكان المعلم يضيف إليها من أجرومية أخرى ما يحتاج إليه الحال . فلما خرجت من بيت الأفندية قرأت مع مسيو شواليه أجرومية أخرى ، ومع معلم آخر يسمى لمونري أجروميتين . وفي كل من البيتين ، يعني بيت الأفندية وبيت المعلم ، كنت أشتغل بالإعراب النحوي والإعراب المنطقي ، يعني تطبيق الكلام على قواعد النحو وقواعد المنطق ، وبالإملاء والإنشاء والقراءة . ولا زلت على ذلك ثلاث سنوات .

علم التاريخ

ابتدأنا في بيت الأفندية ، حين كنا معاً ، بكتاب سير فلاسفة اليونان فقرأناه وتمناه . ثم ابتدأنا بعده في كتاب تاريخ عام مختصر ، مشتمل على سير قدماء المصريين والعراقيين وأهل الشام واليونان وقدماء العجم والرومانيين والهنود . وفي آخره نبذة مختصرة في علم الميثولوجيا⁽⁸⁸⁾ ، يعني علم جاهلية اليونان وخرافاتهم . ثم قرأت عند مسيو شواليه كتاباً يسمى لطائف التاريخ ، يتضمن قصصاً وحكايات ونوادر ، ثم بعده قرأت كتاباً يسمى سير أخلاق الأمم وعوايدهم وآدابهم ، ثم تاريخ سبب عظم دولة قياصرة الروم وانقراضها ، ثم كتاب رحلة أنخرسيس الأصغر إلى بلاد اليونان ، ثم قرأت كتاب سيغور في التاريخ العام ، ثم سيرة نابليون ، ثم كتاباً في علم التواريخ والأنساب ، ثم كتاباً يسمى بانورما العالم ، يعني مرآة الدنيا ، ثم رحلة صنفها بعض المسافرين في بلاد الدولة العثمانية ، ثم رحلة في بلاد الجزائر .

علم الحساب والهندسة

قرأت في الحساب كتاب بزوت ، وفي الهندسة المقالات الأربع الأول من كتاب لوجندر .

(88) Mythology : أساطير الأقدمين ، لذلك وصفها المؤلف بـ (الجاهلية) مجازاً .

علم الجغرافيا بأنواعها



قرأت مع مسيو شواليه كتاب جغرافية يشتمل على الجغرافية التاريخية والطبيعية والرياضية والسياسية ، ثم قرأت رسالة أخرى في الجغرافية الطبيعية ، مقدمة لقاموس في الجغرافية ، يعني معجم البلدان . ثم قرأت الكتاب الأول بعينه مع معلم آخر ، غير مسيو شواليه . وقرأت أيضاً مع مسيو شواليه جملاً عظيمة من جغرافية ملطبرون ورسالة ألفها لتعليم بنته في هيئة الدنيا . وقرأت وحدي مؤلفات عديدة في هذا الفن .

فن الترجمة



ترجمت مدة إقامتي في فرنسا اثني عشر كتاباً وشذرة ، يأتي ذكرها في آخر هذا الكتاب ، يعني اثني عشر مترجماً ، بعضها كتب كاملة ، وبعضها نبذات صغيرة الحجم .

كتب في فنون مختلفة



قرأت كتاباً في علم المنطق الفرنسي ، مع مسيو شواليه ومسيو ألونري ، وعدة مواضع مع كتاب ليبرتروايال من جملتها المقولات ، وكتاباً آخر في المنطق يقال له كتاب قندياق⁽⁸⁹⁾ غير فيه منطق أرسطو . وقرأت مع مسيو شواليه كتاباً صغيراً في المعادن وترجمته . وقرأت كثيراً من كتب الأدب : فمنها مجموع نويل ، ومنها عدة مواضع من ديوان ولتير ، وديوان رسين ، وديوان رسو ، خصوصاً مراسلاته الفارسية التي يعرف بها الفرق بين آداب الإفرنج والعجم ، وهي أشبه بميزان بين الآداب المغربية

(89) الفيلسوف Condillac E. صاحب المذهب الحسي .

والمشرقية . وقرأت أيضاً وحدي مراسلات إنكليزية صنفها القونة شسترفيلد لتربية ولده وتعليمه ، وكثيراً من المقامات الفرنسية . وبالجملة ، فقد اطلعت في آداب الفرنسية على كثير من مؤلفاتها الشهيرة . وقرأت في الحقوق الطبيعية مع معلمها كتاب برماكي ، وترجمته وفهمته فهماً جيداً . وهذا الفن عبارة عن التحسين والتقييح العقلين بجعله الإفرنج أساساً لأحكامهم السياسية المسماة عندهم شرعية . وقرأت أيضاً مع مسيو شواليه جزأين من كتاب يسمى روح الشرائع ، مؤلفه شهير بين الفرنسيين يقال له منتسكيو ، وهو أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية ، ومبني على التحسين والتقييح العقلين ، ويلقب عندهم بابن خلدون الإفرنجي ، كما أن ابن خلدون يقال له عندهم أيضاً منتسكيو الشرق الشرق ، أي منتسكيو الإسلام . وقرأت أيضاً في هذا المعنى كتاباً يسمى عقد التأنس والاجتماع الإنساني ، مؤلفه يقال روسو ، وهو عظيم في معناه . وقرأت في الفلسفة تاريخ الفلاسفة المتقدم المشتمل على مذاهبهم وعقائدهم وحكمهم ومواعظهم . وقرأت عدة محال نفيسة في معجم الفلسفة للخواجة ولتير ، وعدة محال في كتب فلسفة قنذلياق . وقرأت في فن الطبيعة رسالة صغيرة مع مسيو شواليه ، من غير تعرض للعمليات . وقرأت في فن العسكرية من كتاب يسمى عمليات ضابطان⁽⁹⁰⁾ عظام مع مسيو شواليه مائة صحيفة وترجمتها . وقرأت كثيراً في كازيطات العلوم اليومية والشهرية ، وفي كازيطات السياسات اليومية التي تذكر كل يوم ما يصل خبره من الأخبار الداخلية والخارجية المسماة البوليتيكية . وكنت متولعاً بها غاية التولع ، وبها استعنت على فهم اللغة الفرنسية ، وربما كنت أترجم منها مسائل علمية وسياسية ، خصوصاً وقت (حراصة)⁽⁹¹⁾ الدولة العثمانية مع الدولة الموسقوبية . ولنذكر لك هنا ترجمتنا رسالة فرضية من فرنساوي متطوع بالخدمة في معسكر الموسقو ، حررها من مدينة شمالا القريبة من جبل بلقان إلى بعض أمراء الألوية بمدينة باريس ، اثنان وعشرون من يولية الإفرنجي سنة 1828 من الميلاد . اعلم يا محبنا أن هذه أول مرة التحم فيها صفنا مع

(90) هكذا وردت مرتين في النص ، ويبدو أنها مأخوذة من التركية بمعنى ضباط .

(91) هكذا وردت في النص ، والصحيح : حرب أو محاربة ، وقد تكررت فتركتها بين قوسين .

الصفوف الإسلامية ، منذ وصولنا إلى العساكر الموسقوبية . ثم إن سائر ما رأيته مما يذهل العقول ويحير الألباب ، تقصر عنه العبارة . كيف؟ وهو أمر غريب بالنسبة إلى مثلي . فلو كنت مثل جنابكم من العسكر المتمرن على الحروب ، سافرت في غزوة مصر ، ورأيت واقعة أبي قير ، وحصار مدينة عكا ، لما حارلبي حين رأيت شيئاً جديداً لم أكن أعانيته قبل ذلك مما يكل عنه الوصف . ولكن تأمل يا أخي في أمري ، حيث إنني قد كنت في خفر ملكنا وخرجت من مكتب سنسير ، ولم أحضر من الوقائع إلا واقعة الأندلس ، فلم أشعر إلا أن وجدت نفسي قدام جبل بلقان ، بعد أن جبت البراري والقفار وعانيت المشاق بتهديد أهلها لنا وتخلصهم منا وإدهاشهم لجيوشنا . وانظر في استعجابي وذهاب صوابي ، حين خرجت الفوارس التركية متصافة صفوفاً عجيبة للحروب الإسلامية بأعلى شملاً ، وقد وصل إلى شريف علمكم من دفتر علم الموسقو تفصيل هذه الواقعة وشرح أحوال الجمل الغفير من عساكرنا ، والخبر بأنها صارت ضائعة . وقد شاهدت بعيني رأسي سوء ميتة الميرالاي ياردي الموسقوبي بحالة رديئة ، حيث انقسم نصفين بضربة مدفع تركية . ومن الآن فقط ظهرت صعوبة هذه (الحرابة) وطول مدتها لا يعد من الغرابة . وإن كان بعساكرنا شجاعة وصلابة في الحروب ، فعساكر الإسلام لها مصادمة قوية بمعزل عن الهروب . وهذه المصادمة هي التي تستسهل الخطر وتخترق المانع لبلوغ الوطر ، ينتج منها ثمرتان : الأولى أنها تلقي الحيرة في عقول الرجال ، والثانية أن عاقبتها دائماً تفرغ الفزع في قلوب الأعداء ، ولو كانوا من الأبطال . ولو شاهدت عينك ما شاهدته من أن الفرسان العثمانية تروع الإنسان بمجرد منظرها المرعب ، وبسرعة اقتحامها المدهش المعجب ، ومشيتها على صوت الألحان الوحشية ، وصهيل الخيول الكردية ، ونزولها كالصواعق على المشاة الموسقوبية ، لحكمت مثلي بأن هذه (الحرابة) تطول ، وأن اضطرام نارها قل أن يزول . أو ليس أن للدولة العثمانية فرساناً عظيمة مرتبة بترتيب عجيب وهمة عليّة بنظام غريب؟ أو هل ينكر أحد أن رجالهم متمرنون على ركوب الخيل وأن خيولهم على أصل خلقتهم الوحشية طائفة لسيدها في الإقدام والإحجام يبلغ عليها في (الحرابة) المقصود والمرام؟ فيا ويح العساكر القرابة التي يلتحم صفها بصف هذه الخيول المركوبة لهؤلاء الفحول الذين لهم زيادة عن قوتهم الجهادية دعامة

غيرتهم الإسلامية والوطنية ، وهذه مزية لا توجد يقيناً في عساكر الموسقو . ثم ازدحام الخلائق في أوقات الحروب له تدبير صحيح . ولكن في هذه الواقعة لا يجهل إنسان ، ولو كان من القزاق ، أن الفخر لعساكر الإسلام . وهذا الخبر ربما ظهر لك أنه عجيب من مثلي ، وخصوصاً وأنا قد جئت متطوعاً في عسكر الموسقو لأشاركهم في اقتحام الأخطار ، وأقتسم معهم الفخار ، ولكن لما وصلت إلى هنا ظهر لي أن الظن قد خاب ، وأني قد حدثت عن الصواب ، ورأيت أعداءنا الذين كنا نتهمهم بحقارة الرتبة والرداءة هم الليوث الضراغم ، ليس لهم شيء من الدناءة ، بل هم أقرب إلى قبول التأديب والظرافة من الإفرنج . واعلم يا أخي ، أن غيرتي على خلاص الأروام من يد العثمانية لم تنقص شيئاً ، ولكن أقول ليت شعري هل تلزم الغارة على إسلامبول في خلاصهم؟ أو ليس مما يتحسر عليه أن ما خسرناه في أخذ مدينة أبرائل من العساكر كان يكفي وحده في فك أسر الأروام وتحرير رقابهم ، وتقليل سفك دمائنا بعساكر الإسلام؟ وقد أسرنا عن قريب أحد ضباط العساكر العثمانية ، وكان شاباً بديع الصورة كثير الجروح ، فعفا عساكرنا عن قتله ولم يكن ذلك لغيره ، ورقوا لملاحته وجراحته ، فخاطبته باللغة الإيطالية ففهم مقالي وأجاب سؤالي ، وأخبرني بأن أباه له من العمر الآن ثمانون سنة ، وله أخوان في خدمة حسين باشا ، لا يشك في نصرة الدولة العثمانية ، بل يقول إن الترك يصلون إلى موسقو . واعلم يا أخي ، أن في شملا نحو مائتي ألف محارب ويتجدد عليها كل يوم ، وسلطانهم بطل عظيم عن يقين . وها أنا الآن أطوي لك كتابي لأضع قدمي في ركابي ، فالآن عساكر الأعداء تحارب في طليعة جيشنا ، وأنا بين دويّ ألحان الترك وعجيج أصوات الروس غريق ، وهذه (حراة) مهولة إن نظرت بعين التحقيق .



الفصل السادس

في الامتحانات التي صنعت معي في مدينة باريس،
خصوصاً في الامتحان الأخير الذي أعقبه رجوعي إلى مصر

اعلم أن من عادة الفرنساوية أن لا يكتفوا في العلم بمجرد شهوة الإنسان بالفهم أو الاجتهاد أو بمدح المعلم في المتعلم ، بل لا بدّ عندهم من أدلة واضحة محسوسة تفيد الحاضرين في الامتحان قوة الإنسان ، والفرق بينه وبين أمثاله . وهذا إنما يكون بالامتحانات العامة ، يحضرها العام والخاص بدعوة مثل دعوة الولايم عادة . وهناك امتحانات خاصة ، وهي أن يمتحن المعلم تلامذته كل أسبوع أو شهر ، ليعلم قوة زيادتهم في ذلك الأسبوع أو الشهر ، وليكتب مفاد ذلك إلى آبائهم . فكنا في البنسيونات بهذه المثابة ، وكل سنة يصنع معنا الامتحان العام بحضور أعيان الفرنساوية . فأول بحث صنع معنا كان أغلبه ومداره على اللغة الفرنساوية . وقد جرت العادة عندهم بأنهم يعطون هدية امتحان للبارعين في الجواب ، المتميزين عن غيرهم . ففي أول امتحان عام بعث لي مسيو جومار كتاباً يسمى رحلة أنخرسيس في بلاد اليونان سبعة مجلدات جيدة التجليد بموهة بالذهب يصحبها هذا المكتوب الذي صورته مترجماً :

أول يوم من شهر أغسطس سنة 1827 من الميلاد .

قد صرت مستحقاً لهدية اللغة الفرنساوية بالتقدّم الذي حصلته فيها ، وبالثمرة التي نلتها في الامتحان العام الأخير . ولقد حق لي أن أهني نفسي بإرسالي لك هذه الهدية من طرف الأفندية النظار ، دليلاً على التفاتك في التعليم . ولا شك أن وليّ النعمة يسرّ متى أخبر أن اجتهادك وثمره تعلمك يكافئان المصاريف العظيمة التي يصرفها عليك في تربيتك وتعليمك . وعليك مني السلام ، مصحوباً بالموّدة .

وقوله في الامتحان الأخير المراد أنه آخر ، بالنسبة لما قبله من الامتحانات الخصوصية . وهدية الامتحان تشبه أن تكون جائزة ، مثل جائزة الشعراء ، وهي كقصب السبق . وفي الامتحان العام الثاني ، بعث لي كتاب الأنيس المفيد للطلاب

المستفيد وجامع الشذور من منظوم ومنثور تأليف مسيو دساسي ، وصحبته هذا المكتوب ، وصورته مترجماً :

باريس 15 شهر مارث سنة 1828 من الميلاد .

قد صرت مستحقاً لهدية النحو الفرنساوي بالتقدم الذي حصلته في هذه اللغة ، وبالثمرة التي نلتها في الامتحان العام الأخير . ولقد سرّني أنك صرت مستحقاً أن أبعث لك علامة السرور منك تشويقاً لك . وها أنا باعث جدول امتحانك لوليّ النعم باجتهادك وفلاحك ، ولا شك أنه يسرّ بأنك تشتغل مع ثمرة ، وأنك أهل لرعايته لك واعتنائه بتربيتك وتعليمك ، وعليك مني السلام .

وفي هذين الامتحانين أخذت هدية الامتحان . وأما صورة الامتحان الأخير الذي به رجعت إلى مصر ، فإن مسيو جومار جمع مجلساً فيه عدّة أناس مشاهير ، ومن جملتهم وزير التعليمات الموسقوبي ، رئيس الامتحان . وكان القصد بهذا المجلس معرفة قوّة الفقير في صناعة الترجمة التي اشتغلت بها مدّة مكثي في فرنسا ، وصورة ما تحصل من الامتحان وكتبه الفرنساوية في وقائع العلوم ما نصه ، وصورة التلميذ رفاعه ، أنه قرئ في المجلس دفتران : الدفتر الأوّل يشتمل على تحديد اثنتي عشرة ترجمة من اللغة الفرنساوية إلى العربية ترجمها المذكور ، منذ سنة وهذه أسماؤها : الأوّل نبذة في تاريخ إسكندر الأكبر مأخوذة من تاريخ القدماء ؛ الثاني كتاب أصول المعادن ؛ الثالث رزنامة سنة 1244 من الهجرة ألفه مسيو جومار لاستعمال مصر والشام ، متضمناً لشذرات علمية وتدبيرية ؛ الرابع كتاب دائرة العلوم في أخلاق الأمم وعوايدهم ؛ الخامس مقدّمة جغرافية طبيعية مصححة على مسيو هنياض ؛ السادس قطعة من كتاب ملطبرون في الجغرافية ؛ السابع ثلاث مقالات من كتاب لجندر في علم الهندسة ؛ الثامن نبذة في علم هيئة الدنيا ؛ التاسع قطعة من عمليات (ضابطان) عظام ؛ العاشر أصول الحقوق الطبيعية التي تعتبرها الإفرنج أصلاً لأحكامهم ؛ الحادي عشر نبذة في الميثولوجيا ، يعني جاهلية اليونان وخرافاتهم ؛ الثاني عشر نبذة في علم سياسات الصحة . الدفتر الثاني يشتمل على رحلته وذكر سفره ، ثم أحضر له عدة تأليف مطبوعة في بولاق ، فترجم منها مواضع بسرعة إلى اللغة الفرنساوية . ثم قرأ بالفرنساو مواضع ، منها ما هو صغير ومنها ما هو كبير ، في كازيطة مصر المطبوعة في

بولاق . ثم بحث معه في ترجمة العمليات العسكرية المترجمة له ، فكان بعض الحاضرين بيده الأصل الفرنسي ، والشيخ بيده الترجمة ، ثم إنه يترجم العربية بالسرعة إلى الفرنسية ، قراءة لا كتابة ، ليقابل عبارة الترجمة مع عبارة الأصل . وقد تخلص على وجه حسن من هذا الامتحان ، فأدّى العبارات حقها من غير تغيير في معنى الأصل المترجم . ولكن ربما أحوجه إلى اصطلاح اللغة العربية ، أن يضع مجازاً بدل مجاز آخر من غير خلل في المعنى المراد . مثلاً ، في تشبيه أصل علم العسكرية بمعدن مشيع يستخرج منه كذا ، غير العبارة بقوله العسكرية بحر عظيم تستخرج منه الدرر . وقد اعترض عليه في الامتحان بأنه ، بعض الأحيان ، قد لا يكون في ترجمته مطابقة تامة بين المترجم والمترجم عنه ، وأنه ربما كرّر ، وربما ترجم الجملة بجملة ، والكلمة بكلمة ، ولكن من غير أن يقع في الخلط ، بل هو دائماً محافظ على روح المعنى الأصلي . وقد عرف الشيخ الآن أنه إذا أراد أن يترجم كتب علوم ، فلا بدّ له أن يترك التقطيع ، وعليه أن يخترع عند الحاجة تغييراً مناسباً للمقصود . وقد امتحن في كتاب آخر ، وهو مقدّمة القاموس العام ، المتعلقة بالجغرافية الطبيعية ، وهذا الكتاب ترجمه هو إلى العربية . ولما كان وقت ترجمة هذا الكتاب لم يصل إلى درجته الآن في اللغة الفرنسية ، كانت ترجمته دون ترجمة الكتاب الذي بحث معه فيه قبله ، وكان عيبه أنه لم يحافظ على تأدية عبارة الأصل بجميع أطرافها . وعلى كل حال ، فلم يغير في المعنى شيئاً ، بل طريقتة في الترجمة كانت مناسبة . فتفرّق أهل المجلس جازمين بتقدّم التلميذ المذكور ، ومجمعين على أنه يمكنه أن ينفع في دولته ، بأن يترجم الكتب المهمة المحتاج إليها في نشر العلوم ، والمرغوب في تكثيرها في البلاد المتمدّنة . ولا شك أن بعض هذه الكتب قد يحتوي على أشكال ، وأحمد أفندي العطار من أهل بلاده يشتغل بالطباعة على الأحجار لأجل ذلك ، وقد كان حاضراً في المجلس فقدم لأهل المجلس عدّة عينات مطبوعة بيده على الحجر من تصوير وكتابة عربية وفرنساوية . وقد ابتدأ في معرفة تسيير الشوكة للنقش ، والقلم للكتابة ، وقلم الشعر لكتابة التصوير . وفي تصويراته توجد حيوانات وأمور عمارات وغير ذلك من الأمور المصنوعة بالخطوط من غير ظل ، ولكنه جاء في فرنسا كبير السنّ ، فلم يمكنه أن يصوّر تصويراً صحيحاً خالياً عن جميع العيوب ،

ولكن يمكنه أن يعرف معرفة تامة عن طريق الطباعة على الحجر ، علماً وعملاً ،
وينسخ عينات التصوير التي تعطى له ، ويطبعها بنفسه عند الحاجة ، ويمكنه أن يتأهل
لفتح دار لطباعة الحجر ونظارتها . وقد ترجم مختصراً في صناعة الطباعة بالحجر ،
وكتبها على الحجر وطبعها بيده ، وكانت نسخة منها موضوعة على باش تختة مسيو
جومار . (انتهى كلام كازيطة دائرة العلوم .)

وكتب لي مکتوب تهنئة برجوعي إلى مصر بعد تحصيل المرام ، غير أن هذا
المکتوب قد ضاع مني وكان لا بأس بذكره هنا .

وصورة ترجمة ما كتبه لي مسيو شواليه ، وهو أشبه بإجازة وشهادة لي :

وزارة الحرب

يقول الواضع اسمه فيه ، شواليه ، تلميذ قديم من تلامذة مدرسة العلوم المسماة
بلوتكنيكا ، الضابط المهندس المکتوب في وزارة الحرب ، الوكيل من طرف مسيو جومار
والأفندية النظار بالإرشاد إلى تعليم مسيو الشيخ رفاعه ، أشهد أنني مدة نحو الثلاث
ونصف التي مكثها التلميذ المذكور عندي ، لم أر منه إلا أسباب الرضا ، سواء في
تعليمه أو في سلوكه المملوء من الحكمة والاحتراس وحسن خلقه ولين عريكته . وقد
قرأ معي في السنة الأولى اللغة الفرنسية والقسمغرافيا ، وفيما بعدها الجغرافيا
والتاريخ والحساب وغير ذلك . ولما كان خالياً عن الاستعداد والخفة اللازمين لتعلم
الرسم مع ثمرة ، لم يشتغل به إلا مرة في كل أسبوع ، لمجرد امتثال أوامر وليّ النعم .
ولكن صرف جهده مع غاية الغيرة في الترجمة التي هي صنعته المختارة له ، وأشغاله
فيها مبيته في إعلاماتي الشهرية ، خصوصاً في الجرنالات الأولى التي أعطيتها لمسيو
جومار ؛ وحسب هذا التلميذ ما في هذه الإعلامات والجرنالات . وما ينبغي التنبيه
عليه أن غيرة مسيو الشيخ رفاعه تناهت به إلى أن أدته إلى أن شغله مدة طويلة في
الليل ، تسبب عنه ضعف في عينه اليسار حتى احتاج إلى الحكيم الذي نهاه عن
مطالعة الليل ، ولكن لم يمتثل لخوف تعويق تقدّمه . ولما رأى أن الأحسن في إسراع
تعليمه أن يشتري الكتب اللازمة له غير ما سمح به الميري ، وأن يأخذ معلماً آخر غير
معلم الميري ، أنفق جزءاً عظيماً من ماهيته المعدة له في شراء كتب ، وفي معلم
مكث معه أكثر من سنة ، وكان يعطيه الدرس في الحصة التي لا يقرأ معي فيها . وقد

ظننت أنه يجب عليّ وقت سفره أن أعطيه هذا الإعلام الموافق لما في الواقع ونفس الأمر ، وأن أضيف إلى ذلك الإفصاح عما في ضميري من كمال اعتقاد فضله ومحبته .

مسيو شواليه

28 في شهر فبريه 1831

المقالة الخامسة

في ذكر ما وقع من الفتنة في فرنسا وعزل الملك قبل رجوعنا إلى مصر ، وإنما ذكرنا هذه المقالة لأنها تعدّ عند الفرنسيّة من أطيب أزمانهم وأشهرها بل ربما كانت عندهم تاريخاً يؤرخ منه .

الفصل الأول

في ذكر مقدّمة يتوقف عليها إدراك علة خروج فرنساوية عن طاعة ملكهم

اعلم أن هذه الطائفة متفرقة في الرأي فرقتين أصليتين ، وهما الملكية والحرية . والمراد بالملكية أتباع الملك القائلون بأنه ينبغي تسليم الأمر لوليّ الأمر ، من غير أن يعارض فيه من طرف الرعية بشيء ، والأخرى تميل إلى الحرية ، بمعنى أنهم يقولون لا ينبغي النظر إلاّ إلى القوانين فقط ، والملك إنما هو منفذ للأحكام على طبق ما في القوانين ، فكأنه عبارة عن آلة . ولا شك أن الرأيين متباينان ، فلذلك كان لا اتحاد بين أهل فرنسا ، لفقد الاتفاق في الرأي . والملكية أكثرهم من القسوس وأتباعهم ، وأكثر الحرّيين من الفلاسفة والعلماء والحكماء وأغلب الرعية . فالفرقة الأولى تحاول إعانة الملك ، والأخرى ضعفه وإعانة الرعية . ومن الفرقة الثانية طائفة عظيمة تريد أن يكون الحكم بالكلية للرعية ، ولا حاجة إلى ملك أصلاً . ولكن لما كانت الرعية لا تصلح أن تكون حاكمة ومحكومة ، وجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم ، وهذا هو حكم الجمهورية ، ويقال للكبار مشايخ وجمهور . وشرعية الإسلام التي عليها مدار الحكومة الإسلامية مشوبة بالأنواع الثلاثة المذكورة ، لمن تأملها وعرف مصادرها ومواردها ، فعلم من هذا أن بعض فرنساوية يريد المملكة المطلقة ، وبعضهم يريد

المملكة المقيدة بالعمل بما في القوانين ، وبعضهم يريد الجمهورية . وقد سبق للفرنساوية أنهم قاموا سنة 1790 من الميلاد وحكموا على ملكهم وزوجته بالقتل ، ثم صنعوا جمهورية وأخرجوا العائلة السلطانية المسماة البربون من مدينة باريس ، وأشهرهم مثل الأعداء ، ولا زالت الفتنة باقية إلى سنة 1810 ميلادية . ثم تسلطن بونابارته المسمى نابليون وتلقب بسلطان سلاطين . ثم لما كثرت محارباته وكثر أخذه للمالك ، وخيف بأسه وبطشه ، تعاهد عليه ملوك الإفرنج ليخرجوه من المملكة ، فأخرجوه منها مع محبة فرنساوية له ، وأعادوا البربون إلى محلهم رغماً عن ألف الملة فرنساوية . فكان أول من تسلطن منهم لويز الثامن عشر ، ولأجل ترغيب الناس في حكمه وتمكين ملكه صنع قانوناً بينه وبين فرنساوية بمشورتهم ورضائهم ، وألزم نفسه أن يتبعه ولا يخرج عنه ، وهو الشرطة . وقد ذكرناها مترجمة في باب سياسة فرنساوية . ولا شك أن وعد الكريم ألزم من دين الغريم ، وقد جعل هذا القانون له ولن بعده من ورثة مملكة فرنساوية ، وأنه لا يزداد فيه ولا ينقص إلا إذا اتفق عليه الملك وديوان البير وديوان وكلاء الرعية ، فلا بدّ من الديوانين والملك . ويقال إنه صنع ذلك على غير مراد أهله وأقاربه ، وهم يحبون التصرف المطلق في الرعية . ويقال إنهم تعصبوا عليه وكان رئيس العصاة أخاه كرلوس العاشر ، حتى إنه اطلع على ما أخفاه له فأبطله ، ويقال إن كرلوس العاشر أراد في كبر لويز الثامن عشر أن ينقص ذلك القانون ويرجع إلى طريق إطلاق التصرف ، فلم يمكنه ذلك . ثم بعد موت أخيه ، أظهر كرلوس الحيلة وأبطل ما كان نواه ، وأظهر أنه لا يريد شيئاً من ذلك ، وجوّز لكل إنسان أن يبدي في الكازيطات رأيه بالكتابة ، من غير أن ينظر فيه قبل طبعه وإظهاره . فصدّق الناس كلامه ، واعتقدوا أنه لا يخلف وعده ، بل فرحت سائر الرعية بتدبيره ومشيه على القوانين . ثم إنه انتهى أمره إلى أن هتك القوانين التي هي شرائع فرنساوية وخالفها ، وقبل هتكه للشرعية بانت منه إمارات ذلك ، بمجرد تقليده الوزارة للوزير بولتيق ، وهو معلوم المذهب والتدبير ، يعني أنه يميل إلى كون الأمر لا يكون إلا للملك . ويقال إن هذا الوزير هو ابن زنا ، زنت أمه بهذا الملك فولدته منه فهو في الحقيقة أبوه وشهير بالظلم والجور ، ومن الحكم التي في غاية الشيعوخ أن ظلم الأتباع مضاف إلى المتبوع . وفي الحديث من سل سيف الجور سل عليه سيف الغلبة

ولازمه الهم . وقال الشاعر :

من أنصف الناس ولم ينتصف
بفضله منهم فذاك الأمير
ومن يرد إنصافه مثل ما
أنصف أضحى ما له من نظير
ومن يرد إنصافه وهو لا
ينصفهم فهو الدنيء الحقير

ولما كان هذا الوزير سابقاً إيلجياً ببلاد الإنكليز من طرف فرنساوية ، يعني رسولاً للمصالح بين الدولتين ، كانت فرنساوية تنسب إليه كل ما خالف مذهب الحرية . وكلما شاع عنه أنه راجع إلى فرنسا ، يظنّ جميع الناس أنه لا يأتي إلا ليتقلد منصب الوزارة ، وبغير القوانين ؛ فلذلك كان يبغضه سائر أرباب الحرية وأغلب الرعية . وقد عرف فرنساوية من قبل أن اختياره للوزارة كان مقصوداً لمهمّ ، وقد حصل بعد توليته بنحو سنة . وقد قلنا فيما سبق أن ديوان رسل العمالات ، الذين هم وكلاء الرعية ، يجتمعون كل سنة للمشورة العمومية . فلما اجتمع هذا الديوان ، عرضوا على الملك أن يعزل هذا الوزير ومن معه من الوزراء الستة ، فلم يصنع لكلامهم أصلاً . وقد جرت العادة أن ديوان المشورة يعمل فيه جميع الأشياء بمقالة أكثر أربابه . وكان المجتمع في هذا الديوان للمشورة في قضية الوزراء أربعمئة وثلاثون يحبون إبقاءهم ، فكان العدد الأكثر عليهم والعدد الأقلّ لهم ، فتيقنوا عزلهم . وكان الملك يحب إبقاءهم لاستعانتهم بهم على تنفيذ ما أضمره في نفسه فأبقاهم ، ثم خرم القانون بعدة أوامر ملكية ، فكانت عاقبتها خروجهم وإخراجهم له من بلادهم ، فهو كما قال الشاعر :

لم يدر ما يجني عليه القول
ولا لماذا أمـره يؤول
يلقي الكلام كيف ما ألقاه
لم يحسن الفكرة في عقباه
وهكذا التهوير في المقال
وصحبة الأشرار والجهال

يخفضك الجاهل أنى رفعك
يردك وهو زاعم أن ينفعك

الفصل الثاني

في ذكر التغيرات التي حصلت وما ترتب عليها من الفتنة

قد سبق لنا من القوانين السالفة الكلام على حقوق الفرنساوية في المادة الثامنة ، أنه لا يمنع إنسان في فرنسا أن يظهر رأيه ويكتبه ويطبعه بشرط أن لا يضر ما في القوانين ، فإن أضر به أزيل . فلما كانت سنة 1830 وإذا بالملك قد أظهر عدة أوامر ، منها النهي عن أن يظهر الإنسان رأيه ، وأن يكتبه أو يطبعه بشروط معينة ، خصوصاً للكازيطات اليومية ، فإنه لا بد في طبعها من أن يطالع عليه أحد من طرف الدولة ، فلا يظهر منها إلا ما يريد إظهاره ، مع أن ذلك ليس حق الملك وحده ، فكان لا يمكنه عمله إلا بقانون ، والقانون لا يصنع إلا باجتماع آراء ثلاثة : رأي الملك ، ورأي أهل ديواني المشورة ، يعني ديوان البير ، وديوان رسل العمالات ، فصنع وحده ما لا ينفذ إلا إذا كان صنعه مع غيره . وغير أيضاً في هذه الأوامر شيئاً في مجمع اختيار رسل العمالات قبل أن يجتمع ، مع أنه كان حقه أن لا يفتحه إلا بعد اجتماعهم كما فعله في المرة السابقة ، وهذا كله على خلاف القوانين . ثم إن الملك ، لما أظهر هذه الأوامر ، كأنه أحس في نفسه بحصول مخالفة ، فأعطى المناصب العسكرية لعدة رؤساء مشهورين بأنهم أعداء للحرية التي هي مقصد رعية الفرنساوية . وقد ظهرت هذه الأوامر بغتة حتى ظهر أن الفرنساوية كانوا غير مستعدين لها . وبمجرد حصول هذه الأوامر ، قال غالب العارفين بالسياسيات إنه يحصل في المدينة محنة عظيمة يترتب عليها ما يترتب ، كما قال الشاعر :

أرى بين الرماد وميض جمر
ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعيدان تذكو
وإن الحرب أولها الكلام

ففي مساء اليوم الذي ظهرت فيه هذه الأوامر في الكازيطات ، أخذ الناس في الحركة بقرب المحل المسمى بالروايال ، يعني السراية السلطانية التي سكنها عائلة أقارب الملك ، المسماة عائلة أورليان التي منها الملك الآن . وهذا الوقت ظهر الغم على وجوه الناس ، وكان هذا يوم السادس والعشرين في شهر يولييه . وفي يوم السابع والعشرين منه لم يظهر غالب الكازيطات الحرّية ، لعدم رضائها بالشروط . فلذلك بلغت الأوامر جميع الناس ، وحصلت حركة عظيمة بعدم ظهور الكازيطات التي من عاداتها أنها لا تفتّر عن الظهور إلّا لهم عظيم . فأغلقت الورشات والمعامل والفبريقات والمدارس ، فظهر بعض كازيطات الحرّية أمرة بعصيان الملك والخروج عن طاعته ومعدّة لمساوئه ، وفرّقت على الناس من غير مقابل . وبهذه الديار ، بل وفي غيرها ، قد يبلغ الكلام حيث تقصر السهام ، خصوصاً مائة الخطابات فإنها قوية ، وخصوصاً بلاغة الإنشاء فلها مدخلية عظيمة ، كما قيل إن نزل الوحي على قوم بعد الأنبياء نزل على بلغاء الكتاب ، خصوصاً إذا كان ما يذكر في تلك اليوميات مقبولاً عند العامة ، ومقصوداً عند الخاصة ، فإن هذا هو عين البلاغة الصحيحة ، إذ هي ما فهمته العامة ورضيت به الخاصة . فلما سمع بذلك ولاية الحسبة ، حضروا في المحال العامة ومنعوا الناس من قراءة هذه الكازيطات ، وحاصروا مطابعها وهموا بكسر آلات الطباعة وكسروا بعضها ، وحبسوا من اتهموه من الطباعين ، وبهدلوا كثيراً ممن أظهر شيئاً مخالفاً لترتيب الملك من الرعية . وهذا أيضاً مما قوى غضب الفرنسيّة فكتب أرباب هذه الكازيطات ، يعني رؤساء الفرنسيّة الذين هم يكتبون فيها آراءهم ، ورقة إنكار وأشهروها وعدّدوا نسخها ولصقوها بجدران المدينة ، وأمروا فيها الرعية بالحرب وعينوا محله ، وكان الميعاد في درب سراية باليروال . فازدحم فيه كثير من الأمم وفيما حوله من الحارات ، فكانت العساكر تحاول تفريق هذا الازدحام ، فعظم دوي الرعية وكثرت أصواتهم وظهر غضبهم في سائر الدروب والحارات ، فهجم العسكر على الرعية والتحم القتال بين الفريقين ، فكانت الرعية تقاتل أولاً بالأحجار والعساكر بالسيوف وآلات الحرب ، فكثرت القتال وعظمت المطاردة من الجانبين . ثم بحث الرعية عن آلات الحرب وظهر صوت البارود من الجانبين في مدينة باريس ، فكأنما لسان حال الفرنسيّة الذي هو أصدق من لسان مقالهم ، جعل يقول إن بني عمك فيهم رماح . فعظم القتال وكان

أكثر المقتول والمجروح من الرعية ، كما قال الشاعر :

فالحرب تنكح والنفوس مهورها

ما بين أبكار تزف وعون

وترى الدماء على الجراح طوافيا

وكأنها رمد بنجل عيون

فاشتد غضبهم وعرضوا القتلى في المحال العامة لتحريض الناس على القتال وإظهار عيوب العساكر ، وقامت أنفس الناس على ملكهم لاعتقادهم أنه أمر بالقتال ، فما مررت بهذا الوقت بحارة إلا وسمعت فيها السلاح ، أدام الله الشرطة وقطع دابر الملك . فمن هذا الوقت كثر سفك الدماء ، وأخذت الرعية الأسلحة من السيوفية بشراء أو غضب ، وأغلب العملة والصنائعية ، خصوصاً الطباعين ، هجموا على القرقولات وخانات العساكر ، وأخذوا منها السلاح والبارود وقتلوا من فيها من العساكر ، وخلع الناس شعار الملك من الخوانيت والمحال العامة . وشعار ملك الفرنسيين هي صورة زهر الزنبق ، كما أن شعار ملك الإسلام صورة هلال ، وملك الموسقوبية صورة عقاب . وكسروا قناديل الحارات ، وقلعوا بلاط المدينة وجمعوه في السكك المطروقة ، حتى يتعذر مشي الفرسان عليه ، ونهبوا جبخانات البارود السلطانية . فلما اشتد الأمر وعلم الملك بذلك وهو خارج ، أمر بجعل المدينة محاصرة حكماً ، وجعل قائد العسكر أميراً من أعداء فرنساوية ، مشهوراً عندهم بالخيانة لمذهب الحرية ، مع أن هذا خلاف الكياسة والسياسة والرياسة ، فقد دلهم هذا على أن الملك ليس جليل الرأي ، فإنه لو كان كذلك لأظهر إمارات العفو والسماح ، فإن عفو الملك أبقى للملك ، ولما ولى على عساكره إلا جماعة عقلاء ، أحباباً له وللرعية غير مبغوضين ولا أعداء ، ولكن أراد هلاك رعاياه حيث نزلهم بمنزلة أعدائه ، مع أن استصلاح العدو أحزم من استهلاكه . ويحسن قول بعضهم :

عليك بالحلم وبالحياء

والرفق بالمذنب والإغضاء

إن لم تقل عشرة من يقال

يوشك أن يصيبك الجهال

فعاد عليه ما فعله بنقيض مراده ، وبنظير ما نواه لأضداده . فلو أنعم في إعطاء الحرية لأمة بهذه الصفة حرية ، لما وقع في مثل هذه الحيرة ، ونزل عن كرسيه في هذه المحنة الأخيرة ، لا سيما وقد عهد فرنساوية بصفة الحرية وألفوها واعتادوا عليها وصارت عندهم من الصفات النفسية . وما أحسن قول الشاعر :

وللناس عادات وقد ألفوا بها
لها سنن يرعونها وفروض
فمن لم يعاشرهم على العرف بينهم
فذاك ثقل عندهم وبغيض

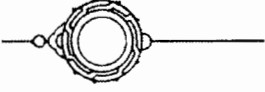
وفي اليوم الثامن والعشرين أخذت الرعية من يد العساكر محلاً يسمى دار المدينة الذي هو محل شيخ مدينة باريس ، فعند ذلك ظهر الخفر الأهلي ، يعني الرديف ، وهم عساكر كانت سابقاً تخفر الأهالي . كما أن للملك عساكر ورديان تخفرون ، وقد كان أبطلهم الملك شرل أو كرلوس العاشر ، فلما وقعت الفتنة ظهوراً ليமானعوا عن الرعية ، فشهرروا أسلحتهم للقتال وطرّدوا سائر العساكر من محلهم ، وأحرقوا كثيراً منها . وفي هذه الأوقات ارتفعت المحاكم وصار الحاكم هو الرعية ، ولم يمكن للدولة عمل شيء فقد بذلت ما عندها من القوة لإخماد ذلك وتسكينه فلم تقدر عليه ، فكانت جميع المحافظين متحركين ، والطبجية معينة لاثني عشر ألف من الورديان السلطاني ، وستة آلاف من عساكر الصف ، فكانت جملة العساكر السلطانية ثمانية عشر ألف نفس غير الطبجية والمحافظين . وكان من يحمل السلاح من الرعية أقل من هذا العدد ، ولكن من لا يحمل السلاح يحارب بالأحجار أو يعين المتسلح . وبعد أخذ دار المدينة وسلب مدفع من العساكر الحربية ، ظهر انهزام سائر العساكر السلطانية بالبلدة ، ثم ذهبوا إلى الديوان المسمى لوور وإلى قصر طوليريا ، وهو سراية الملك ووقع الحرب فيهما بين العساكر وأهل البلد . وبينما هم في الحرب بهذا المحل ، إذ انتشر البيرق المثلث الألوان الذي هو علامة الحرية على الكنائس والهياكل العامة ، ودقت نواقيس الخطر لإعلام سائر الناس داخل وخارج باريس من أهل المدينة وغيرها بطلب حمل السلاح منهم للاستعانة على العساكر . فلما رأت العساكر أن النصر للرعية ، وأن ضرب السلاح على أهل بلادهم وأقاربهم عار عليهم ، امتنع أغلبهم

وعزل كثير من رؤسائهم نفسه من منصبه . وفي اليوم التاسع والعشرين ، في الصباح ، ملك أهل البلد ثلاثة أرباع المدينة ، ووقع أيضاً في أيديهم قصر طويليريا ولوور فملكوهما ونشروا عليهما بريق الحرية . فلما سمع بذلك سر عسكر المأمور بإدخال أهل باريس في طاعة السلطان رجع ، فكان هذا تمام نصرة أهل البلد ، حتى أن العساكر دخلت تحت بريق الرعية . ومن هذا الوقت ترتب حكم وقتي ، وديوان مؤقت لنظم البلاد ، حتى ينحط الرأي على تولية حاكم دائم . وكان رئيس هذا الحكم المؤقت سر عسكر المسمى لافييته ، وهو الذي قاتل في الفتنة الأولى للحرية أيضاً . وهذا الرجل شهير بأنه يحب الحرية ويحامي عنها ، ويعظم مثل الملوك بسبب اتصافه بهذا الوصف ، وكونه على حالة واحدة ومذهب واحد في البوليتيكة ، وليس صاحب قريحة مستخرجاً للعلوم من حيز العدم ، كغالب رجال فرنساوية ومشاهيرهم ، خصوصاً في العلوم العسكرية ، ولكن أعظم الناس مقاماً لا قريحة وفهماً . وليس المراد القدح في معرفته ، بل في انتهاء الرئاسة إليه . وما يشاهد في سائر بلاد الدنيا أن التصدر ليس دائماً على قدر المعرفة ، وإن كانت المعرفة موجبة له بالشرع والطبع . ومن الغريب أن مثل هذا الأمر يقع أيضاً في البلاد الحسنة التمدن . وأظن أن هذا كله مصداق الحديث الشريف الذي هو ذكاء المرء محسوب عليه من رزقه . وكما قال الشاعر :

إذا أبصرت ذا فضل فقيراً
فلا تعجب لفقر في يديه
فقد قال النبي مقال صدق
ذكاء المرء محسوب عليه

وما أحسن قول الشاعر :

ولو أن السحاب همى بعقل
لما أروى مع النخل القتاذا
ولو أعطى على قدر المعالي
سقى الهضبات واجتنب الوهادا



الفصل الثالث

كيف كان يصنع الملك في هذه المدّة وفيما جرى بعد ذلك
من رضائه بالصلح بعد فوات أوانه وفي خلعه المملكة على ابنه

اعلم أن أوامر الملك برزت منه ، وهو في بلدة سنكلو على القرب من باريس .
فالفتنه حصلت في باريس والملك لم يكن بها . ثم إن أهل المدينة بعثوا له أن يغير
وزرائه ، وأن يستردّ أوامره ويسترجعها ، يعني أن يكتب أمراً بأنه أعاد إليه ما كان أمر
به فلم يرض بذلك . وأرسلوا إليه في ذلك عدّة وكلاء ليستعطفوه ويترجوه في هذا
المعنى ، فلم يفد كلامهم بل كان أضيع من دمع على طلل . وأخبروه أن الرعية لا
تريد ذلك أبداً ، وأنه ربما ترتب عليه فساد أعظم من ذلك . فأجاب بأن كلامه غير
قابل للتغيير والتبديل . فلما تحقق عنده أن دولته قد أشرفت على الزوال بسبب عدم
قبوله للمصالحة ، أرسل يطلب منهم ذلك بنفسه فأجابوه بأنه لم يبق محلاً للصلح ،
وأنّ أوان الصلح قد فات ، وأنه لم يتبصر في العواقب . ومن لم يتبصر في العواقب
لقي النوائب . وأنه لم يدقق النظر ، وإلا لما حصل له ذلك . وفي اليوم الثلاثين من
شهر يولية ، اتفق رأي أهل مشورة رسل العمالات على أن يبعثوا ليترجوا الدوق
درليان ، قريب السلطان من بدنة ثانية ، بأن يكون قائم مقام المملكة حتى تقع مشورة
أخرى على من يتولى مملكتهم . وكان خارج باريس ، فبمجرّد ما وصله ما اقتضاه نظر
هذه المشورة ، وصل إلى باريس في الحادي والثلاثين ونزل في دار المدينة ، وأجاب
برضائه في السبب الحامل له على الرضاء بذلك . وملخصها أنه قد حصل لي غاية
التحسر على الأمر الذي جعل باريس في هذه الحالة المسببة عن خرم القوانين أو
تفسيرها بمعنى بشع تحتمله عباراتها ، ولقد امتثلت وجئت بينكم لأخلص البلاد من
الفسل ، ولا بدّ أن ألبس معكم علامة الثلاثة ألوان التي قد لبستها كثيراً في أوّل
عمري . ثم ختم عبارته بقوله : والشرطة تصير من هذا الوقت حقاً ، يعني أنه يعمل
بقوانين المملكة ، وتصير متبعة لا يحاد عنها لكونها حقاً . ولقد صارت هذه الجملة
عند الفرنساوية مثلاً من الأمثال ، وألفاظها بالفرنساوية في غاية الحماسة . ثم إن

شارل العاشر ظنّ أنه يمكنه التخلص من زوال مملكته بخلع المملكة على ابنه ونزوله عنها له .

شعر :

يودّ لو أن أيام الحمى رجعت

وقلّ أن ردّ شيء بعدما ذهباً

فما كان ذات يوم في سنكلو إلا وخرج ابنه الدوفين في ساحة ، وجمع فيها العساكر وأعلمهم بأن أباه ولاء ملكاً ، فتلقت العساكر هذا الخبر باستخفاف وبغير اعتناء . ثم إن الملك ، لما ولى ابنه ، سافر مع ديوانه وجلسائه في ليلة التاسع والعشرين من شهر يوليه ، وبقي الدوفين وحده ينتظر عاقبة توليته ، فأحضر جميع من معه من العساكر ، وسيرها قدّامه ليرى كيفيتها . فلما علم أنها لا ترضى بالحاربة معه ، نوى السفر وخرج من سنكلو . فبعد عدّة ساعات من خروجه انتشر على قصر سنكلو البريق المثلث . وهذا القصر هو سراية السلطان في هذه البلدة ، فوصل السلطان وأتباعه في رتبوليا في غرة شهر أغسطس . وفي اليوم الثاني من هذا الشهر ، بعث شارل العاشر وابنه الدوفين ورقة للدوق درليان قريبهما ، يذكران فيها أنهما خلعا المملكة على الدوق دبردو ، حفيد الملك وابن أخي الدوفين ، وأنهما جعللا الدوق درليان وكيله ووليه حتى يبلغ رشده ، وطلبا منه في هذه الورقة أن يبعث لهما جماعة ليؤمنوهما في خروجهما من فرنسا . فعرض الدوق درليان ذلك على مشورة رسل العمالات ، فلم يرضوا بخلع المملكة ورضوا بأن يبعثوا له عدّة وكلاء من الكبار ليؤمنوه في خروجه من فرنسا . ثم إنه جاء الخبر في باريس أن الملك لم يرض الخروج حالاً ، فوجهوا إليه جملة من العساكر ليكرهوه حالاً على الخروج . فبمجرّد سماعه بذلك أجاب بالخروج ، متوجّهاً إلى بلاد الإنكليز .

شعر :

والدهر طوراً بعزّز

يقضى وطوراً بهون

وهكذا حال الدنيا . وأحسن ما قيل في التسلية والصبر على مكارهها ، قول

بعضهم :

سلا بنفسي عن الدنيا وبهجتها
إنني أرى فانياً منها تلا فاني
والصبر أحمد ما أوليت من قلق
ما كنت في شدة إلا تلافاني

وفي هذا الوقت كان ابن عمه قائم مقام المملكة بباريس ، فكان الأمر والنهي له ولدواوين المشورة . فأول ما صنعه تقرير بقاء الثلاثة ألوان التي هي علامة على حرية الملة الفرنسية ، ثم فتح ديوان مشورة العمالات وديوان مشورة البيير . وقد جرت العادة أنه عند فتح ديوان مشورة العمالات ، يحضر الملك ويخطب على منبر بكلام فصيح ، يذكر فيه ما صنعه من التحسين في بلاده ، وما هو عازم على فعله في سنته . ولما كان هذا الدوق قائماً في هذا الوقت مقام الملك صعد على المنبر يقول كلاماً وجيزاً ، مضمونه أنه يتحسر على الخطر الذي حصل لمدينة باريس عقب هتك قوانين المملكة . ثم بعد فراغه سلم لديوان المشورة الورقة التي بعثها له كرلوس العاشر وابنه الدوفين ، المتضمنة لخلعهما المملكة على الدوق دبردو وأنهما يسميان هنري الخامس ، لأنه تقدّم في فرنسا أربعة ملوك ، كل منهم يسمى هنري . ثم خرج قائم مقام المملكة من المشورة ، وصار ديوان المشورة يفتح كل يوم للتدبير .

الفصل الرابع

فيما انحط عليه رأي أهل المشورة وفيما ترتب
على هذه الفتنة من تولية الدوق درليان ملك الفرنسية

اعلم أن المشورة كانت تدبر حالة فرنسا المستقبلية . وقد أسلفنا أن آراء الفرنسية مختلفة حتى إنهم في المشورة مختلفون في الموضع ، فمنهم الملكية يجلسون في الجهة اليمنى ، والحرّيون في الجهة اليسرى ، والتابعون لآراء الوزراء في الجهة الوسطى . وكل منهم يقول رأيه من غير معارض له ، لأن العبرة بكثرة الأصوات . ولا زال هذا الأمر معمولاً به إلى الآن ، ولم تغير الفتنة شيئاً من ذلك . فكان أصحاب الآراء فرقتين ، فرقة تريد المملكة ، وفرقة تريد الجمهورية . والفرقة الأولى منها من كان يريد تمليك

الدوق دبردو ، حفيد الملك القديم ، ومنهم من كان يريد تولية ابن نابليون الذي هو بونا برته ، ومنهم من كان يريد تملك الدوق درليان ، قائم مقام المملكة . وعائلة درليان هي العائلة الثانية الوارثة للمملكة بعد انقراض العائلة الأولى البكرية ، وهي عائلة البريون . ثم إنه ظهرت ورقة مطبوعة وألصقت في الحارات والمشارع العامة ، مضمونها قد صح بالتجربة أن الجمهورية لا تناسب بلاد فرنساوية . وأما الدوق دبردو ، فتوليته تجعل فرنساوية تحت حكم البريون ، فتقع فرنساوية فيما فرّت منه . وأما ابن نابليون فهو تربية قسيسين وهم أعداء الحرية ، فتعين الدوق درليان . وقد دبرت المشورة عدة مواد انحط عليها الرأي :

المادة الأولى : أن الكرسي فارغ حساً ومعنى ، ولا حق لأحد فيه ، فلا بدّ من شغله بأحد .

الثانية : من أغراض فرنساوية ومن مصالحهم أن تحذف العبارات الدالة على الاستعلاء من الشرطة التي هي كتاب قوانين المملكة ، لأن بقاءها بهذه الكيفية يحط بمقام الرعاية فرنساوية ، ولا بدّ أن يحذف من الشرطة بعض المواد الغير اللائقة ، وتبدّل بغيرها حتى تكون مصلحة على ما تقتضيه الحال الراهنة . ثم بعد تمام ذلك يطلب ديوان مشورة وكلاء الرعاية أن المصلحة العامة اللازمة حالاً لجميع فرنساوية ، أن يترجى حضرة سعادة الدوق درليان لويز فيليب قائم مقام المملكة لأن يكون ملكاً ، وتكون مملكته وراثته بعده لأولاده الذكور ، ثم بعده لأكبر أولاده ، وهكذا ؛ يعني أن الملك ، إذا مات ، انتقلت المملكة لأكبر أولاده ، فإذا مات أو حصل له عذر ، كانت لابنه الأكبر ، وهكذا ؛ وأن يقبل المملكة ويرضى بالشروط ، وبصيغة المبايعات التي يعينها له أهل المشورة ، وأن يلقب بملك فرنساوية لا بملك فرنسا . والفرق بينهما أن ملك فرنساوية معناه كبير على نفس الأشخاص بجعلهم له ملكاً ، بخلاف ملك فرنسا ، فإن معناه أن أرض فرنسا ما دامت باقية سيدها وملكها ، ولا منازع له من أهل بلاده فيها . وسبب ذلك أن الملوك السالفين كانوا يلقبون ملوك فرنسا . وكان إذا كتب الواحد منهم يقول ما صورته : أنا فلان بفضل الله تعالى ملك فرنسا ، ونوار على كل من يرى هذه الأوامر الحاضرة ، سلام . قد أمرنا ونأمر بما سيأتي لنا ، وقوله ملك فرنسا ظاهر ، وأما قوله ملك نوار فإن هذا لقب اصطلاحى له مجرد الشرف .

وسبب ذلك أن أسلاف ملك فرنسا كانوا يحكمون على مملكة نوار ، ثم انتقلت منهم إلى ملوك إسبانيا فصارت حصّة منها ، وبقي اللقب لملك فرنسا . وأما ملك الفرنساوية فإنه يقول في كتابته : «أنا فلان ملك الفرنساوية ، مني السلام على من حضر في الحال والاستقبال ، قد أمرنا ونأمر» . ففرق بين عبارة الأوّل والثاني ، فإن الأوّل جعل نفسه ملك مجموع فرنسا ونوار ، بأنعام الله سبحانه وتعالى عليه ، والثاني جعل نفسه ملك الفرنسيين ، ولم يقل «بفضل الله» . ولقد تحاشى عن أن يقول ذلك ، لإرضاء الفرنساوية ، فإنهم يقولون إنه ملك الفرنسيين بإرادة ملته وبتمليكهم له ، لا أن هذه خصوصية خص الله سبحانه وتعالى بها عائلته ، من غير أن يكون لرعيته مدخلية . فظهر من هذا أن قوله «بفضل الله» معناه عندهم باستحقاقه لذلك بولادته ونسبه ، كما أن قوله «ملك فرنسا» معناه صاحب الأرض والسلطنة عليها . وإلا ، فلو كان عندنا لاستوت العبارتان ، فإن كون الملك ملكاً باختيار رعيته له ، لا ينافي كون هذا صدر من الله تعالى على سبيل التفضل والإحسان ، ولا فرق عندنا مثلاً بين ملك العجم وملك أرض العجم . ثم بعد تمام المشورة ، بعث إليه أهلها عدّة رسل ، فقرأ عليه رئيس الرسل ما اتفق عليه أهل ديوان المشورة ، فأجاب حالاً بقوله : «قد سمعت ، والقلب في اضطراب ، ما عرضتموه عليّ من خلاصة مجلس المشورة من انتخابي للمملكة ، ولقد صح عندي أن عبارتك المصادرة عنكم هي أيضاً عبارة لسان حال الرعية بتمامها ، وظهر لي أن ما صنعتهموه في القوانين يناسب ما ذهبت إليه في السياسات التي مارستها مدّة حياتي . ولكن حصل لي من ذلك انفعال عظيم ، لأنني لست أنسى مدّة حياتي ما قاسيته سابقاً من الأهوال ، حتى إنني كنت عزمت على أن لا أطمع أبداً في قضية السلطنة ، ونويت على أن أعيش خاملاً مرتاحاً بين عيالي . ولكن حبي لعمار بلادتي غلب ذلك فهو جدير بأن أوثره عليه ، حيث قد أيقنت أن الضرورة دعت إليه . ثم إنه عين اليوم الذي يتوّج فيه في ديوان رسل العمالات . فلما جاء اليوم الموعد ، جاء في الساعة المتفق عليها بموكب عظيم ، من غير خفر سلطانيّ ، ومن غير جلساء . وقد جرت عادة ملوكهم بأن زينة الموكب ، إنما هي بذلك ، وكل ما مشى خطوة حياه جميع الناس من الجوانب ، بقولهم : حفظ الله الدوق درليان ، حفظ الله الملك . فلما دخل الديوان ، ركب مصطبة بقرب الكرسيّ

وسلم على أهل المجلس ثلاث مرّات ، ثم جلس على دكة أمام الكرسي ، وابنه الأكبر عن يمينه والثاني عن يساره ، وخلفه أربعة وزراء في العسكرية يلقبون بالمارشالات (جمع مارشال) وهو أعلى مراتب العسكرية عند الدولة الفرنسية ، وهو دائماً مضاف إلى فرنسا ، فيقال «مارشال فرنسا» ، وبالفرنساوية : «مارشال دفرنسا» ، والدال علامة على الإضافة بين المضاف والمضاف إليه ، مثل اللام المقدّرة في الإضافة عندنا . فعلاصة الإضافة ظاهرة عند الفرنسيين . ثم بعد جلوسه ، عزم على أهل ديوان البير ، وديوان رسل العملات بالجلوس ، ثم طلب من رئيس الديوان أن يقرأ عليه الخلاصة التي عزم عليه أهل الديوانين فيها بالملكة . فلما فرغ الرئيس من قراءتها ، أجاب الدوق المذكور بقوله : «يا ساداتنا ، قد سمعت مع التأمل خلاصة الديوانين ، وقد وزنت عبارتهما وأمعنت فيها النظر ، وأقول : رضيت ، من غير شرط ولا تعليق ، بجميع الشروط المذكورة في الخلاصة ، وتلقيني ملك الفرنسيين الذي أعطيتموه لي ، وها أنا حاضر مستعدّ للحلف والمبايعة ، على أنني أحفظ ذلك .» ثم قام الملك مكشوف الرأس ، ورفع يده اليمنى وشرع يقول هذه الصيغة الآتية ، بترتيب وترتيل وبصوت ثابت من غير لجلجة .

وهذه الصيغة مترجمة :

«أشهد الله سبحانه وتعالى على أنني أحفظ مع الأمانة الشرطة المتضمنة لقوانين المملكة ، مع ما اشتملت عليه من الإصلاح الجديد المذكور في الخلاصة ، وعلى أنني لا أحكم إلا بالقوانين المسطورة وعلى طريقها ، وأن أعطي كل ذي حق حقه بما هو ثابت في القوانين ، وأن أعمل دائماً على حسب ما تقتضيه مصلحة الرعية الفرنسية وسعادتها وفخرها . ثم صعد على كرسي المملكة وشرع يقول : يا ساداتنا ، قد حلفت في هذا الوقت يمينا عظيماً ، وما جهلت بالواجبات المرتبة به عليّ مع عظمتها واتساعها ، لما أن نفسي تحدّثني أنني أوفي بها ، وما قبلت المبايعة إلا عن رضى . وقد كنت عزم على أن لا أركب أبداً الكرسي الذي أعطته لي الملة الفرنسية ، ولكن لما رأيت أن فرنسا قد جرححت حرّيتها وتكدّرت الراحة العامة بأرضها ، وبهتك قوانين المملكة قد أشرفت على الفساد ، وجب نصب القوانين . وكان ذلك من وظيفة ديوان البير وديوان رسل العملات ، وقد وفيتهم بذلك . فما صنعناه

من إصلاح الشرطة يستلزم الأمن في المستقبل ، فمأمولي أن فرنسا تصير مرتاحة في داخلها ، ومحترمة في خارجها ، والصلح في بلاد أوروبا يزيد ثباتاً .
فلما فرغ من كلامه ، صاحت الأصوات «حفظ الله الملك لويز فيليب الأول» ، ثم سلم الملك على المجلس ، وخرج مصافحاً من رآه من أهل المجلس وغيرهم ، وركب حصانه ومشى ، وصار يصافح الناس عن يمينه وعن يساره . وربما عانق كثيراً من الناس ، وكان موكبه مؤلفاً من أهل البلد ، ومن خفر الملة المسمى الخفر الأهلي ، يعني الرديف . ولما دخل الليل نورت باريس بوقدة عظيمة ، وكان تملكه في السابع من شهر أغسطس سنة 1830 من الميلاد .

الفصل الخامس

فيما حصل للوزراء الذين وضعوا خطوط أيديهم على الأوامر السلطانية التي كان السبب في زوال مملكة الملك الأول الذي فعل فعلته وفي العواقب لم ينظر وطمع بما لم يظفر كما قال الشاعر :

إن النفوس على اختلاف طبائعها
طمعت من الدنيا بما لم تظفر

اعلم أن الفرنسيين ، بعد هذه الفتنة ، اهتموا غاية الاهتمام بالتفتيش على الوزراء الذين كانوا السبب في ذلك . وأيضاً ، فإنه بمقتضى القوانين ، إن الوزراء يضمنون ما يقع في المملكة من الخلل ، فهم المحاسبون دون الملك ، وليس على الملك شيء أصلاً ، فحملهم ثقل ووظيفتهم شاقة التحمل ، فعليهم الوزر في كل ما يحدث . قال الشاعر :

يتداول الناس الرياسة بينهم
وأريد حفظهم فلا أسطيع
وأكلف العبء الثقيل وإنما
تبلى به الأتباع لا المتبوع

فعليلهم الأثقال يرمى حملها

وعلى الرئيس الختم والتوقيع

فبرزت الأوامر في جميع طرق البلاد أن يوقفوهم إذا مروا عليهم ، وقد قلنا إن رئيس الوزراء كان بولنياق ، فمسك من الوزراء أربعة ، منهم هذا الأمير المذكور . وصورة القبض عليه أنهم وجدوه خارجاً من بلاد فرنسا في صورة خادم لامرأة عظيمة ، فعرفوه وأوقفوه ، وخفروه الخفر الموجود في الطريق خوفاً من الرعية ، ثم أعلموا بذلك الديوان في باريس ، فكتب هو مكتوباً إلى ديوان مشورة البير ، وقد كان من رجال المشورة ، يقول فيه : إنه لا معنى للقبض عليه حيث أنه من أهل هذا الديوان ، واحتج بالمادة الرابعة والثلاثين من الشرطة : لا يمكن أن يحبس أحد من أهل ديوان البير إلا بأمر أهل ذلك الديوان ، ولا يمكن أن يحكم عليه وحبسه حتى يحكموا عليه . فجيء به إلى بلدة ونسينه بقرب باريس ، وحبس في قلعتها ثم قبض على الثلاثة الآخر ، وحبسوا معاً من غير أن يحصل لأحد منهم شيء من الترهيل أبداً مدة حبسه . ثم إنه مدة حبسهم ، بنوا لهم محلاً عظيماً في ديوان مشورة البير ، لتسمع دعواهم فيه ، وجعلوه بناء متيناً وثيقاً على صورة عظيمة ، حتى لا يمكن للرعية الهجوم عليهم لأذيتهم ، ولا لأحبابهم أن يخلصوهم من الحبس . وكلفوا ذلك أموالاً لها وقع عظيم ، ثم جاءوا بهم إلى هذا المكان وحبسوهم في محل منه ، وصاروا يأتون بهم كل يوم . وكانت دعوتهم من أعظم ما يتعلق غرض الإنسان بسماعه ، ومن أجل ما يدل دلالة قطعية على تمدن فرنساوية وعدل دولتها . ولنذكر لك بعض شيء منها فنقول :

اعلم أن ملك الفرنسيين الجديد لما تولى ، تعلقت إرادته بعزل سبعين رجلاً من أهل مشورة البير الذين كان ولاهم شارل العاشر ، الملك السابق . ثم سمى منهم تسمية جديدة من كان على غرضه ، فلو كان هؤلاء السبعون فضلوا من أهل الديوان لكانوا يحامون عن الوزراء ، فكان غالب أهل ديوان مشورة البير أعداء لهم . إلا أن التمسك بالقوانين ، وطيب نفوسهم في الجملة ، وعدم ميلهم بالطبيعة إلى الظلم ، كان سبباً في نجاة الوزراء المذكورين . وما يتعجب منه أن الوزير بولنياق ، حين القبض عليه ، أراد أن يختار واحداً يحامي عنه من العارفين بالأحكام فلم يختار إلا مرتنياق ،

أحد الوزراء المعزولين قبله ، ليس بينه وبينه وصلة ولا محبة . وأعجب من ذلك أن الآخر ، الذي هو مرتنيانق ، وفى بذلك مع غاية الأمانة التامة ، وبذل ما عنده من المعارف لدفع الإيرادات عن موكله . وكذلك كل واحد من الوزراء المقبوض عليهم وكل محامياً له . ثم لما فتحوا الدعوى ، أرسلوا لكل واحد من الوزراء المحبوسين يطلبونه بخصوصه ، مع غاية الرفق واللين ، وكيفية أول ما يسأل به : ما اسمك؟ ما وصفك؟ ما منصبك؟ ما رتبك؟ فيجيب بأجوبة هذه الأسئلة ، ولو كانوا يعرفون ما ذكر . ثم قالوا لكل واحد منهم : أتقر بأنك وضعت خط يدك تحت أوامر الملك؟ قال نعم . ولأي شيء فعلت ذلك؟ فيجيب بأن الملك أراده . ولأي شيء أراد الملك فعل ذلك؟ وهل عزم عليه من قديم الزمان أو الآن فقط؟ وقد كان كل منهم يجيب في مثل هذه الأسئلة بقوله : لا أفشي سرّ ديوان حضرة الملك أصلاً ، مع غاية التعظيم في المجلس لملكهم المعزول ، ولم يتفوه أحد منهم بشيء من أسرار الديوان أبداً ، ولم يكرههم أحد على ذلك . ثم بعد سؤالهم وانتهائه وكتب خلاصته ، جاء المحامون عنهم ومكثوا أيضاً عدة أيام ، ليظهروا أن الوزراء بريئون من الذنوب ، وأن مقصدهم كان حسناً وهكذا . فبعد ذلك امتحنت المشورة جميع الدعوى ، ثم قضت بما هذه صورته ، من حيث أن الوزراء وضعوا خط أيديهم تحت الأوامر المخالفة لقوانين المملكة ، ومن حيث أنهم هتكوا حرمة القوانين ومخالفتها ، حكمت المشورة عليهم بالحبس الدائم وتجريدتهم من أوصاف الشرف وألقابه . وحكمت على بولنيانق زيادة على ذلك بالموت الحكمي ، وهو تقريباً نظير مسألة من انقطع خبره ، وحكم بموته القاضي باجتهاده ، بعد مضي مدة لا يعيش فوقها غالباً . والموت الحكمي عند الفرنساوية ، ويقال له الموت المدني ، هو أن يكون حكم الحيّ عندهم كحكم الميت في كثير من الأحوال ، وهو أن المحكوم عليه بذلك يزول عنه جميع ما يملكه ليدخل تحت يد ورثته ، مثل ما إذا مات حقيقة ، ولا يصح أن يرث غيره بعد ذلك ، ولا أن يورث هو غيره الأموال التي ملكها بعد ذلك ، ولا يمكنه أن يتصرف في أمواله جميعاً أو بعضها بهبة أو وصية ، ولا يجوز إهداؤه ولا الوصية له إلا بالقوت ، ولا يجوز أن يكون ولياً ولا وصياً ولا شاهداً في شهادة شرعية ، ولا تقبل دعواه ولا ينعقد نكاحه بل ينفسخ نكاحه الأول ، بالنظر للأحكام المترتبة عليه ، ولزوجته وأولاده أن يصنعوا في أمواله أو في أنفسهم كما لو مات هو

حقيقة . وبالجملة ، فهو حيّ ملحق بالموتى . ولكن لما كان هذا الوزير وأمثاله ممن يحكم عليهم بذلك من أعيان الناس ، وكانت ذريته حسنة التربية ، كان المحكوم عليه بذلك يبقى في العادة على ما كان عليه قبل الحكم ، لكون عائلته تعتقد أن هذا من باب التعديّ المحض ، وأنه ناج بينه وبين مولاه ، ولا تفارقه زوجته أصلاً لاعتقادها أنها في عصمته باطناً ، ولو ولدت منه بعد ذلك ولدًا ورثته الأخوة معهم ، وإن كان هذا خلاف الأحكام المترتبة على الموت الحكمي . ولما سمعت الرعية بذلك قاموا وقالوا لا بدّ من الحكم عليهم بالموت الحقيقيّ ، فأخبرهم أهل الدولة أن هذا يناقض ما تطلبونه من الحرية والعدل والإنصاف ، وإنّ كتاب القوانين لم يعين نوع عقوبة الوزراء إذا حصلت منهم خيانة ، وإنما حكمت المشورة بالاجتهاد عقوبة لهم وزجراً لأمثالهم ، ويصلح في حقهم قول الشاعر :

فهم من المجد في حضيض
وهم من الجـدّ في الروابي
وهم إذا فتشوا وعدّوا
أعز من عودة الشباب

ثم ليلة أن حكم عليهم بذلك قبل أن يطلعوهم على خلاصة المشورة ، أخرجوهم من هذا الحبس الذي كان بني لأجلهم ، وخفروهم إلى قلعة ونسينه فحبسوهم بها ، ومنها نقلوهم إلى قلعة أخرى ، وهم محبوسون بها إلى الآن . والحكم عليهم بهذه الكيفية ، مما يدلّ على حسن أخلاق الدولة الفرنسية .

الفصل السادس

فيما كان بعد الفتنة في سخرية الفرنسية على شارل العاشر
وفي عدم اكتفاء الفرنسية بذلك

اعلم أنه جاء إلى الفرنسية خبر وقوع بلاد الجزائر في أيديهم ، قبل حصول هذه الفتنة بزمان يسير ، فتلقوا هذا الخبر من غير حماسة ، وإن أظهروا الفرح والسرور . فبمجرد ما وصل هذا الخبر إلى رئيس الوزراء بولنياق ، أمر بتسييب مدافع الفرح

والسرور . ولقد صدق من قال :

وكم سرور طيه أحزان

لأجل هذا خلق الزمان

وصار يتماشى في المدينة كأنه يظهر العجب بنفسه ، حيث أن مراده نفذ وانتصرت الفرنساوية في زمن وزارته على بلاد الجزائر ، فما كانت أيام قلائل إلا وانتصرت الفرنساوية عليه وعلى ملكه نصرة أعظم من تلك ، حتى أن مادة الجزائر نسيت بالكلية ، وصار الناس لا يتحدثون إلا بالنصرة الأخيرة . على أن حاكم الجزائر خرج منها بشروط وأخذ منها ما يملكه ، وملك الفرنسيين خرج من مملكته يتندّم على ما وقع منه . وللزمان صروف تدول ، وأحوال تجول . وكان هذا هو عاقبته على غارته على بلاد الجزائر بأسباب واهية لا تقتضي ذلك ، بل بمجرد إرضاء هوى النفس ، وإذا نصر الهوى بطل الرأي . وما وقع أن المطران الكبير لما سمع بأخذ الجزائر ، ودخل الملك القديم الكنيسة يشكر الله ، سبحانه وتعالى ، على ذلك جاء إليه ذلك المطران ليهنيه على هذه النصرة . فمن جملة كلامه ما معناه أنه «يحمد الله ، سبحانه وتعالى ، على كون الملة المسيحية انتصرت نصرة عظيمة على الملة الإسلامية ، ولا زالت كذلك .» مع أن الحرب الفرنساوية وأهالي الجزائر إنما هو مجرد أمور سياسية ومشاحنات تجارات ومعاملات ومشاجرات ومجادلات ، منشأها التكبر والتعاضم . ومن الأمثال الحكمية : لو كانت المشاجرة شجراً لم تثمر إلا ضجراً . فلما وقعت الفتنة كسر الفرنساوية بيت المطران بعد هروبه ، وخربوه وأفسدوا جميع ما فيه ، حتى إنه تخفى ولم يعلم له أثر ، ثم ظهر واختفى ثانياً ، وهجم على بيته ثانياً ، ولا زال مذموماً مخذولاً . قال الشاعر :

لا تعجبن رويداً إنها دول

دنيا تنقل من قوم إلى قوم

ثم إن الفرنساوية لما رأوا أن شارل العاشر أخرج باشا الجزائر من مملكته أيضاً ، صاروا يهزؤون بشارل العاشر ويصورونه هو وباشا الجزائر في الطرق ، ويكتبون في وقائع النوادر تلميحات غريبة ونكات ظريفة . فمن جملة ذلك أنهم صوروه هو والباشا المذكور ، وكتبوا تحت صورة باشا الجزائر : «وأنت أيضاً جاءت نوبتك؟» كأن الباشا يقول للملك استفهماً ليهزؤوا به : وأنت أيضاً عزلت كما عزلتني .

شعر:

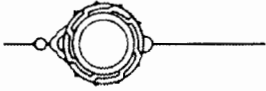
فقل للشامتين بنا رويدا
أمامكم المصائب والخطوب

وقال آخر:

الدهر يفترس الرجال فلا تكن
ممن تطيشه المناصب والرتب
كم نعمة زالت بأدنى زلة
ولكل شيء في قلبه سبب

وكتبوا أيضاً في وقائع النوادر ما نصه أن الباشا المذكور يقول لشارل العاشر: «قم بنا نلعب لعب كذا... على قدر معلوم، وإن لم يكن معك شيء، جمعنا لك شيئاً على سبيل الصدقة من الناس.» يشيرون بذلك إلى أن باشا الجزائر خرج من بلاده غنياً، وشارل العاشر خرج من بلاده فقيراً. وصوّروا أيضاً الملك المذكور في صورة أعمى يتكفف الناس، ويقول في سؤاله: «أعطوا بعض شيء للفقير الأعمى.» يشيرون إلى أنه لم يتبصر في عواقب الأمور. وصوّروه أيضاً، هو ووزير بولنياق، خارجين من كنيسة إشارة إلى أنهما لا يفلحان إلا في هذه العبادة الباطلة، وأنهما قسوس لا أمراء. وكانوا يزعمون أن الملك كان يلبس في بعض الأحيان لبس القسيسين، ويقدّس بالناس كالقسيس في كنيسة التي في سرايته. وكانوا يصيحون في البلدة بعد هذه الفتنة بورقات مطبوعة، فيها عشق هذا الملك وفساده في صغر سنه وفسق المطران الكبير، وهكذا فإن ابن ابنه ليس هو ابناً حقيقياً، وإنما هو ابن مزور. والعجيب أنهم كانوا يصيحون بهذه الأوراق ليبيعوها في ساحة بيت الملك الجديد، الذي هو من أقارب الملك. وأعجب من ذلك أنهم يكتبون في هذه الورقة أن الملك الجديد هو الذي كتب ذلك سابقاً في جرنالات الإنكليز، بعد ولادة حفيد الملك القديم، ويصيحون بذلك ولا أحد ينكر عليهم، لما أن حرية الرأي قولاً وكتابة تقتضي بذلك. وبعد تولية هذا الملك ظهرت عدّة تعصبات عظيمة، منها من يريد عزله ونصب الجمهورية لعدم اكتفائه بالحرية وطلبه أزيد من ذلك، ومنهم من تعصب لنصب الحكم القديم وتولية حفيد الملك السابق. ولا زالت هذه الفتنة باقية الآثار إلى

الآن ، وربما تعدّت آثارها إلى غيرها من البلاد . فمن ذلك ، الفتنة التي ترتب عليها انعزال إقليم البلجيكي من مملكة الفلمنك . وقد كان جزءاً منها ، ومن آثارها أيضاً ، طلب بلاد له الحرية والخروج من حكم الموسقوبية ، ومنها الفتن التي وقعت في بلاد إيطاليا .



الفصل السابع

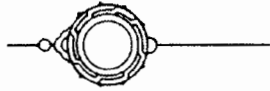
فيما كان من دول الإفرنج بعد سماعهم بانعزال الملك الأول وتقليد المملكة للملك الثاني وفي رضائهم بذلك

لا يخفى أن العائلة السلطانية القديمة قد رجعت بعد تعاهد الدول الإفرنجية على السلطان نابليون ، وإخراجه ونفيه إلى جزيرة سنت هليانة ، وترجيع هذه العائلة إلى البلاد ، بعد أن كانت في البلاد الغربية . فتملك هذه العائلة ، إنما هو بمعاهدة ملوك الدول الإفرنجية ، فهي في الحقيقة مملكة على فرنسا رغماً عن أنف غالب فرنساوية . فلما وقعت الفتنة خشي فرنساوية من أن الملوك المذكورين يأتون بجيوش إلى بلادهم وينصبون كرسي هذه العائلة ، فتخلصوا من ذلك بتملك العائلة الأخرى التي هي عائلة أرييان . ولكنهم لم يعلموا ، هل ترضى الملوك بذلك أولاً ، وعزموا على أنهم إذا لم يرضوا بذلك وجاءوا لمحاربتهم حاربهم ولو حصل ما حصل ، وجهزوا ما يدل على ذلك . ولندكر لك هنا نسبة ملوك الإفرنج بالنظر لهذه المادة ، فنقول : اعلم أن ملك إسبانيا يوافق سياسته وسلوكه سياسة ملك فرنسا القديم ، وهو أيضاً من أقاربه ، لأن العائلة التي تحكم ببلاد إسبانيا من العائلة التي تحكم ببلاد فرنسا ، فهي تميل إليها ظاهراً وباطناً ، ومثلها في ذلك الميل بلاد البرتغال . فهاتان المملكتان لا يحصل منهما شيء يخاف به على العائلة القديمة . وأما بلاد إيطاليا ، فإن دولة نابلي ودولة رومة ودولة النمسا ودولة البروسه والإنكليز ، فإنها متعاهدة على تولية عائلة البربون القديمة المملكة ، فهي أيضاً تأثرت بذلك نوع تأثر ، وخصوصاً الدولة المسقوبية . وأما الدول الصغيرة ببلاد الإفرنج فإنها تابعة للدول الكبيرة ، فلم يبق مع دولة فرنساوية الجديدة إلا بعض أقاليم صغيرة تريد الحرية . غير أن أهل دولة

الإنكليز أظهرت الرضى بما وقع ، فلذلك ملكهم كان أول من اعترف بأول مملكة لملك فرنساوية الجديد . وقد جرت العادة أن الملك إذا تولى ، لا بدّ من أن يعترف له الملوك بالتملك ويقرّوه على ذلك ، وهو من الرسوم غالباً . يقال إن حضرة مولانا السلطان الأعظم ، لما سمع بذلك وأخبره الإيلجي ، أجاب بأنه لا يصنع شيئاً حتى يرى ما تصنعه ملوك الإفرنج ، فإن أقرّوه على ذلك أقرّه أيضاً . ومدخلية الدولة العلية في ميدان دوائر الدول الإفرنجية قليل . ومن توقف في الإقرار مدّة طويلة ملك الموسقو ، ثم بعد ذلك أقرّه بشرط أن لا يتغير شيء في ميزان بلاد الإفرنج ، يعني أن بلاد الإفرنج تبقى على ما هي عليه ، من غير أن يحصل بها راجحية أو مرجوحية في السياسة ، بمعنى أن مملكة فرنسا مثلاً لا تزيد عما كانت عليه قبل الفتنة . والظاهر أن أكثر الملوك التي أقرّت ملك فرنساوية تحس بذلك وتجهر به ، كأنها لا تثق بذلك الصلح الذي تراه كأنه هدنة وتعليق . ولما خرجت من فرنسا ، كان جميع الناس يتوقع فيها إشهار الحرب وظهوره بين النمساوية والفرنساوية أو الموسقوبية أو الإسبانية أو البروسية ، والله سبحانه وتعالى أعلم بما كان وبما يكون . وللفرنساوية الآن التثام مع الإنكليز ، لم يسبق مثله أبداً . وأما الكلام على الرجوع ، فراجعته في خاتمة الرحلة .

المقالة السادسة

في ذكر نبذات من العلوم والفنون المسرودة
في الباب الثاني من المقدمة وهي تشتمل على عدة كتب



الفصل الأول⁽⁹²⁾

في تقسيم العلوم والفنون من حيث هي
وفي ذكر الفنون والعلوم العامة لجميع التلامذة

اعلم أن الإفرنج قسموا المعارف البشرية إلى قسمين : علوم وفنون . فالعلم هو الإدراكات المحققة المذكورة بطريق البراهين ، وأما الفن فهو معرفة صناعة الشيء على حسب قواعد مخصوصة . ثم إن العلوم تنقسم إلى رياضية وغيرها . وغير الرياضية تنقسم إلى طبيعيات وإلهيات . والعلوم الرياضية هي الحساب والهندسة والجبر والمقابلة ، والعلوم الطبيعية هي تاريخ الطبيعيات ، علم الحشايش والأعشاب ، وعلم المعادن والأحجار ، وعلم الحيوانات . وهذه الفروع الثلاثة تسمى مراتب التولدات : مرتبة النباتات ، ومرتبة المعادن ، ومرتبة الحيوانات . وأما الإلهيات فتسمى أيضاً علم ما وراء الطبيعيات أو ما فوق الطبيعيات . وأما الفنون فإنها تنقسم إلى فنون عقلية ، وإلى فنون عملية . فالفنون العقلية ما يكثر قربها من العلوم ، مثل علم الفصاحة

(92) كرر المؤلف مضمون هذا الفصل كما يلي : الفصل الأول في تقسيم العلوم والفنون على طريق

والبلاغة ، وعلم النحو والمنطق والشعر والرسم والنحاتة والموسيقى ؛ فإن هذه فنون عقلية لأنها تحتاج إلى قواعد علمية . وأما الفنون العملية ، فهي الحرف . هذا هو تقسيم حكماء الإفرنج ، وإلا فعندنا أن العلوم والفنون في الغالب شيء واحد ، وإنما يفرق بين كون الفن علماً مستقلاً بنفسه ، وآلة لغيره . ثم إن العلوم المطلوبة من عموم التلامذة هي الحساب والهندسة والجغرافيا والتاريخ والرسم . ومعرفة هذه كلها تكون بعد معرفة اللغة الفرنسية وما يتعلق بها ، فلذلك وجب علينا هنا أن نذكر نبذة منها .

الفصل الثاني

في تقسيم اللغات من حيث هي وفي ذكر اصطلاح اللغة الفرنسية

اعلم أن اللغة ، لما كانت ضرورية في إفهام السامع معنى يحسن سكوت المتكلم عليه ، وكانت لازمة في التفهيم والتفهم وفي المخاطبات والمحاورات ، وجب عند جميع الأمم على المتعلم أن يتدبّر بها ويجعلها وسيلة لما عداها . واللغة من حيث هي الألفاظ المخصوصة الدالة على المعاني المخصوصة ، وطريقها الكلام والكتابة المختلفة باختلاف الأمم ، وهي قسمان لغات مستعملة ولغات مهجورة . فالأول ما يتكلم بها الآن كلغة العرب والفرس والترك والهند والفرنسيس والاطليانية والإنكليز والإسبانيول والنمسا والموسقو . والثاني ما انقرض أهله واندثر أربابه ، ولم يبق إلا في الكتب مثل اللغة القبطية والاطينية واليونانية القديمة المسماة بالإغريقية . ومعرفة هذه اللغات المهجورة في المخاطبات نافعة لمن أراد الاطلاع على كتب المتقدمين . في بلاد الإفرنج توجد مدارس مخصصة معدة لتعلم هذه الألسن ، لما يعلمون من نفعها . وكل لغة من اللغات لا بد لها من قواعد لتضبطها كتابة وقراءة . وتسمى هذه القواعد باللغة الطليانية أغرماتيقا ، وباللغة الفرنسية أغرمير ، ومعناها تركيب الكلام ، يعني علم ضبط اللغة بنحوها . فلا مانع من أن يراد بالنحو قواعد اللغة من حيث هي ، وهو مرادنا هنا . فهو علم به يعرف تصحيح الكلام والكتابة على اصطلاح اللغة المرادة الاستعمال . والكلام ما قصد به إفادة السامع معنى يحسن عليه السكوت ، وهو

يتركب من الكلمة . وأقسامها عند أهل اللغة العربية ثلاثة : الاسم والفعل والحرف .
والاسم إما مظهر نحو زيد أو مضمّر نحو هو أو مبهم نحو هذا ، والفعل إما ماض كـ
«ضرب» أو مضارع كـ «يضرب» أو أمر كـ «اضرب» ، والحرف إما مختص بواحد من
قسيميّه كـ «من» و«قد» أو مشترك بينهما كـ «هل» و«بل» . وإنما قسمنا هذا التقسيم
هنا لأنه سيأتي لنا أن الفرنسية عندهم الضمير واسم الإشارة قسيما للاسم ، ولا
يعدّان منه بوجه من الوجوه ، فإنهم جعلوا أجزاء الكلمة عشرة ، كل واحد منها قسم
مستقل له علامة ، وهي : الاسم ، والضمير ، وحرف التعريف ، والنعت ، والمشارك
(وهو أسماء المفعول والفاعل) والفعل ، والظرف ، ويسمى عندهم مكيف الفعل ،
وحروف الجرّ ، وحروف الربط ، وحروف النداء والتعجب ، ونحوه . فيقولون في تعريف
الاسم : هو كلمة تدل على شخص أو شيء ، أي على العالم وغير العالم ، مثل زيد
وفرس وحجر . وفي تعريف الضمير هو ما يقوم مقام الاسم . وحرف التعريف هو أيضاً
عندهم لام التعريف كما عندنا ، إلا أنه يختلف باختلاف الاسم الداخل عليه ، فإنه
للمذكر ل (بالضم) وفي المؤنث ل (بالفتح) ولجمعيهما لس (ولكن السين لا ينطق
بها) . ويقولون في تعريف النعت هو ما يدل على الاتصاف بوصف من الأوصاف
كحسن وجميل ، فهو نظير الصفة المشبهة . وأما اسم الفاعل واسم المفعول فإنهما نحو
ضارب ومضروب . والظرف عندهم مثله في لغة العرب . وحروف الجرّ مثل الظروف
وحروف الجرّ في اللغة العربية ، فإذا قال الإنسان باللغة الفرنسية : جئت قبل زيد
وبعده ، فإن قبل وبعد من حروف الجرّ عندهم . وإذا قال جاء زيد أولاً أو قبل أو نحو
ذلك ، فإنه ظرف . وأما الحروف الروابط ، فإنهم يعرفونها بأنها ما تتوسط بين كلمتين
أو جملتين نحو (واو العطف) في قولك : جاء زيد وعمر ، ونحو (أن) في قولك أوّمل
أن أعيش زمناً طويلاً . ومن هذا القسم (إذن) و(حينئذ) من نحو قولك : أنت عاقل
فإذن أنت قابل للتعلّم أو أنت فحينئذ قابل . وحروف النداء والتعجب ونحوها
معلومة . وقواعد لغتهم يلزمها هذا التقسيم ، ويظهر أن قول بعضهم أقسام الكلمة أو
الكلام ثلاثة في سائر اللغات ، وأن الحصر عقلي لعله استقلالها بالمفهومية وعدمه ،
ودلالة ما استقل بالمفهومية على زمان وعدمها فيه بعض شيء . ورأيت في كتب
الفرنساوية من قسمها أولاً إلى هذه الأقسام الثلاثة ، ثم قسمها تقسيماً ثانوياً ،

فالحصر حينئذ عقلي على حاله . ثم إن كل إنسان يعبر عن مقصوده بالكتابة يسمى نفساً ومسطرة وقلماً ، فقد يكون قلم الإنسان أفصح من عبارته ، فإنه قد يكون الإنسان ألكن ويكون قلمه فصيحاً . ثم إنه إذا أفصح وأغرب غرابة مقبولة كانت عبارته عالية ، وإن كانت عبارته مؤذية للمقصود من غير ركافة فهي مناسبة ، وإن كان بها بعض شيء يمجح السماع فهي ركيكة أو رديئة . وعلى كل ، فالعبارة إما بها إطناب أو اختصار على الأصل . ثم إن الكاتب إما أن يفصح عن مراده بنظم أو نثر . وعلى كل ، فإما أن يكون كلامه أو تأليفه باللغة المستعملة في المحاورات المسماة الدارجة أو باللغة الموافقة . فقواعد النثر هو الأصل في الكلام والتأليف ، ولا يحتاج إلى وزن وتقفية إلا في السجع ، وهو لسان العلوم والتاريخ والمعاملات والمراسلات والخطابات ونحو ذلك . ولاتساع اللغة العربية كان بها كثير من كتب العلوم منظوماً ، وأما لغة الفرنسيين فلا ينظم فيها كتب العلوم أصلاً . والنظم هو أن يفصح الإنسان عن مقصوده بكلام موزون مقفى ، وهو يحتاج زيادة عن الوزن إلى رقة العبارات ، وقوة الأسباب الداعية لنظمه . ويعجبني قول بعضهم مورياً :

صوغ القريض على اختلاف رجاله

ما بين حصبا لا تعدّ وجوهر

وإذا أردت بأن تفــــوز بدره

نظماً فخذ من صحاح الجوهري

ولبعضهم :

يا من يقول الشعر غير مهذب

ويسومني التكليف في تهذيبه

لو كان كل الخلق فيك مساعدي

لعجبت من تهذيب ما تهذوبه

وقال بعضهم في فقد الأسباب :

قالوا تركت الشعر قلت ضرورة

باب الدواعي والبواعث مغلق

خلت الديار فلا كريم يرتجى
منه النوال ولا مليح يعشق

وقال آخر :

الشعر لا يخفى عليكم حاله
قد بار وأسفاه بعد نفاق
وارحمتا لبني القريض فإنهم
ماتوا وهم أحياء من الإملاق

ونظم الشعر غير خاص بلغة العرب ، فإن كل لغة يمكن النظم فيها بمقتضى علم
شعرها . نعم فن العروض على الكيفية الخاصة به المدون عليها في لغة العرب
وحصره في البحور الستة عشر المستعملة هو لخصوص اللغة العربية ، وليس في اللغة
الفرنساوية تقفية النثر ، ومعرفة فن النظم لا تكفي في نظم الشعر ، بل لا بد أن يكون
الشاعر به سجية النظم سليقة وطبيعة ، وإلا كان نفسه بارداً وشعره غير مقبول .

إلى العربي مل في نظم شعر
فذاك لسان أرباب الكمال
فشعر الفرس أسكرنا بجمام
وشعر الترك طرّز بالخيال

ولنذكر هنا خلاصة صغيرة من الأشعار ، ملخصة من أحسن القصائد والمقطعات ،
فنقول قد اشتهر أن أرق بيت قالته العرب في الغزل قول جرير :

إن العيون التي في طرفها حور
قتلنا ثم لم .. حين قتلنا
يسلبن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله إنسانا

ولنذكر هنا حكاية لطيفة ، وهي أنه دخل أعرابي على ثعلب فقال له : تزعم أنك
أعلم الناس بالأدب ، فقال : كذا يزعمون ، فقال : أنشدني أرق بيت قالته العرب
وأسلسه ، فقال قول جرير : إن العيون إلى آخره ، فقال : هذا الشعر غث رث قد لا كه
السفلة بألسنتها ، هات غيره ، فقال ثعلب : أفدنا من عندك يا أعرابي ، فقال قول

مسلم بن الوليد ، صريع الغواني :

نبارز أبطال الوغى فنبيدهم
ويقتلنا في السلم لحظ الكواعب
وليست سهام الحرب تفني نفوسنا
ولكن سهام فوقت في الحواجب
فقال ثعلب لأصحابه : اكتبوها على الخناجر ولو بالخناجر ، فشرع مسلم ابن الوليد
أقوى حماساً من قول جرير . وأقول إن نسبة القوة بينهما كنسبتها بين قول بعضهم :
خطرات النسيم تجرح خديّه - ولمس الحرير يدمي بنانه
وقول ابن سهل الإسرائيلي :

إني له عن دمي المسفوك معتذر
أقول حملته في سفكه تعباً
وما يمكن نظمه في سلك قول مسلم ابن الوليد قول بعضهم :
نعدّ العذارى من دواهي زماننا
وأقتلها أحداقها والمحاجر
ونشكو إليها دائرات صروفه
وأعظمها أطواقها والأساور
ويعجبني قول أمين أفندي الزللي في همزيتة :
واقرن صبوحك بالغبوق ولا تدع
فرص السرور بغدوة ومساء
واعقد بينت الحان واجعل مهرها
عقلي وأشهد سائر الندماء
واستحلها بكرةً تقلد جيدها
بعقود درّ بل نجوم سماء

إلى أن قال :

واعدل عن العيدان وارشفها على
رقص الغصون ونغمة الورقاء

إلى أن قال :

من كف ساق في لماه ولحظه
وحديثه نوع من الصهباء
وبخده ورد حماه بأسهم
عن قطفه باللحظ والإيماء

يحسن هنا ذكر قول الشهاب الحجازي :

لا وغصن راق للطرف ورق
وعليه حلل الظرف ورق
وشموس لم تغب عن ناظري
والشعور الليل والخذ الشفق
وعيون حرمت نومي وما
حللت غير دموعي والأرق
ما امرار الراح إلا خجل
من رضاب سكرت منه الخدق
والذي قد حسبه حبيباً
فوق خدّ الكأس قطرات العرق

ويعجبني قول بعضهم :

لولا شفاعة شعرها في صبيها
ما واصلت وأزالت الأسقاما
لكن تنازل في الشفاعة عندها
وغداً على أقدامها يترامى
وينتظم في سلكه قول بعضهم :
سل سيفاً من لحظه ثم أرخى
وفرة وفرت عليه الجميلة

إن شكا الخصر طولها غير بدع
لنحيل يشكو الليالي الطويلة

ومما يفوق قول الوأواء الدمشقي أو يساويه :

قالت متى الظعن يا هذا فقلت لها
إما غداً زعموا أولاً فبعد غد
فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت
ورداً وعضت على العناب بالبرد

وقول بعضهم :

بنفسي بيضاء العوارض أقبلت
بوجه كأن الشرق من حسنه غرب
وبين الإزار الملتوي حقف رملة
وبين الوشاح الملتوي غصن رطب
وتحت لثام الخنز أنفاسها لظى
وفوق الرواء السكب أدمعها سكب
تبدت مع الأتراب تدعو على النوى
وإن لم يكن في الغانيات لها ترب
تسيل على الخدّ الأسيل دموعها
وصب دموع العين يروى به الصب
وقد وكلت إحدى يديها بلبها
مخافة أن يرفض من صدرها القلب
فلما أجزن الجسر قمن وراءه
كسرب من الغزلان ليس له سرب
وعضت بدر الشجر فضة معصم
يكاد يثنيه من الذهب القلب

وكادت تحط الرحل لولا عزيمتي
قسيّ جفون العين أسهمها الهدب
وما يعدّ من الأشعار الرقيقة قول الشاعر :

يصفرّ وجهي إذا تأملته
طرفي فيحمرّ خدّه خجلاً
حتى كأن الذي بوجنته
من دم جسمي إليه قد نقل
وما ينسب للخليفة هارون الرشيد :

وإذا نظرت إلى محاسنها
فكل موضع نظرة نبيل
وتنال منك بحدّ مقلتها
ما لا ينال بحدّه النصل
شغلتك وهي لكل ذي بصر
لاقي محاسن وجهها شغل
فلقلبها حلم يباعدها
عن ذي الهوى ولطرفها جهل
ولو وجهها من وجهها قمر
ولعينها من عينها كحل
ومن أرق ما قيل أيضاً قول الشاعر :

لاموا على صب الدموع كأنهم
لا يعرفون صبابتي وولوعي
فأجبتهم وعد الخيال بزورة
أفلا أُرشّ طريقه بدموعي
وما يعجب في الرثا قول أبي الطيب في أبي شجاع فاتك :
يا من يبذل كل يوم حلة
أنى رضيت بحلة لا تنزع

ما زلت تخلعها على من شاءها
حتى لبست اليوم ما لا يخلع
ما زلت تدفع كل أمر فادح
حتى أتى الأمر الذي لا يدفع
فظللت تنظر لا رماحك شرع
بين الأنام ولا سيوفك قطع
بأبي الوحيد وجيشه متكاثر
يبكي ومن شر السلاح الأدمع
وإذا حصلت من السلاح على البكا
فحشاك رعت به وخذك تقرر

إلى أن قال :

من للمحافل والجحافل والسرى
فقدت بفقدك نيراً لا يطلع
ومن اتخذت على الضيوف خليفة
ضاعوا ومثلك لا يكاد يضيع
وقوله أيضاً في فاتك المذكور :

لا فاتك آخر في مصر نقصده
ولا له خلف في الناس كلهم
من لا تشابهه الأحياء في شيم
أضحى تشابهه الأموات في الرمم
عدمته وكأنني سرت أطلبه
فما تزيدني الدنيا على العدم

إلى أن قال :

الدهر يعجب من حملي نوائبه
وحمل جسمي على أحداثه الحطم

وقت يضيع وعمر ليت مدته
في غير أمته من سالف الأمم
أتى الزمان بنوه في شبابه
فسرهم وأتيناه على الهرم

وبالجملة والتفصيل ، فأحسن وأظرف سائر ما قيل :
سلوت عن الأحبة والمدام
وملت عن التهتك والهيام
وسلمت الأمور إلى إلهي
وودعت الغواية بالسلام
وملت إلى اكتساب ثواب ربي
وقدماً طال عزمي بالغرام
وما أنا بعده معط عنان الـ
هوى لكن ترى بيدي زمامي
أبعد الشيب وهو أخو سكون
يليق بأن أميل إلى غرام
فشرب الراح نقص بعد هذا
ولو من راحتي بدر التمام
فكم أجريت في ميدان لهو
خيول هوى وكم ضربت خيامي
وكم قبلت ورداً من خدود
وكم عانقت غصناً من قوام
سأوتي الكأس تعبياً وصدأً
وإن جاءت تقابل بابتسام
عزمت على الرجوع عن المناهي
ومثلي من يدوم على اعتزام



الفصل الثالث

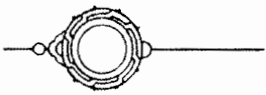
في فن الكتابة

هو فن يعرف به التعبير عن المقصود بنقوش مخصوصة تسمى حروف الهجاء أو حروف المعجم ، وأغلب الحروف الهجائية متفقة في سائر اللغات ، ومبدوءة بحرف الألف إلا عند الحبشة فإن حرف الألف هو الثالث عشر . وصناعة الكتابة شديدة النفع عند سائر الأمم ، وهي روح المعاملات ، وإحضار الماضي ، وترتيب المستقبل ، ووصول المراد ، ونصف المشاهدة . ثم إن العرب والعبرانيين والسريانيين يكتبون من اليمين إلى الشمال ، والصينيون يكتبون من أعلى إلى أسفل ، وتكتب الإفرنج من الشمال إلى اليمين ، وهو الأوفق طبعاً . الكتابة من اليمين إلى الشمال كما تكتب العرب وغيرهم ممن ذكر معهم أو العكس كما تكتب الإفرنج ، مما يدل على الأول ترتيب الأعداد فإنها مرتبة طبعاً . وهي تبتدأ من اليمين إلى اليسار ، فالأحاد هي أجزاء العشرات تكون على يمين العشرات ، والعشرات كذلك بالنسبة للمئات ، وهي كذلك بالنسبة للألوف . وإذا كانت الأعداد أصولاً لغيرها ، يعني أشياء أولية اتفقت فيها الطبائع على اختلاف أصحابها ، دل ذلك على أن مخالفتها للأصل وثبت نقيضه ، وهو المراد . وحاول الإفرنج فحملوا القراءة في الكتابة على قراءة الأعداد وكتابتها فقط ، ليبرهنوا بهذا على أوفقية طريقتهم للطبع . فمن باب أولى يقال إن الكتابة من أعلى إلى أسفل مخالفة لمقتضى الطبع ، ويقال إن العرب كانت تعرف الكتابة في زمن سيدنا أيوب عليه السلام . وقد وقع اختلاف في أن الحروف الهجائية ، هل هي من الأوضاع الإلهية أو من الأوضاع البشرية . وعلى الثاني فقد وقع الاختلاف في أنها من أوضاع أي ملة⁽⁹³⁾ ، فقال بعضهم إنها من أوضاع السريانيين إلى اليونان ، بدليل أن الحروف اليونانية هي عين السريانية إلا أنها انقلبت

(93) أكدت الاكتشافات الأثرية الحديثة أن أبجدية أوغاريت هي الأولى ، واللوح موجود في متحف

من الشمال إلى اليمين ، ومن أهل اليونان أخذ الرومانيون حروفهم . وجودة الخط لا تدل على الفضل ، وعدم تأدية الكتابة حقها دليل على الجهل . وقد تنازع الشعراء في التفضيل بين السيف والقلم ، ثم بين قلم الإنشاء والحساب ، وأشار أبو تمام إلى تفضيل السيف في قوله :

السيف أصدق إنباءً من الكتب
في حدة الحدّ بين الحدّ واللعب
بيض الصفائح لا سود الصفائح في
متونهن جلاء الشك والريب
وأشار السيوطي في كتاب الأوائل إلى تفضيل القلم على السيف ، حيث قال :
الكتب عقل شوارد الكلم
والخط خيط فرائد الحكم
الخط نظم كل منتثر
منها وفصل كل منتظم
والسيف وهو بحيث تعرفه
فرض عليه عبادة القلم
وتمام رفع المنازعة في تاريخ الدول لابن الكردبوسي في قوله : قوام الملك شيثان ،
السيف والقلم ، والثاني مقدّم على الأول ؛ وبرهن على ذلك . والظاهر أن يقال في
ذلك ما قيل في الكتّاب من أن صناعة الإنشاء أرفع وصناعة الحساب أنفع ، فيقال
إن السيف أرفع من القلم والقلم أنفع منه .



الفصل الرابع

في علم البلاغة المشتمل على البيان والمعاني والبديع

وهو علم تحسين العبارة أو علم تطبيق العبارة على مقتضيات الأحوال ، والمقصود منه على العموم توصل الإنسان إلى الإفصاح عما في ضميره بفصيح الكلام وبليغه . وهذا العلم بهذه الحيثية ليس من خواص اللغة العربية ، بل قد يكون في أي لغة

كانت من اللغات ، فإنه يعبر عن هذا العلم في اللغات الإفرنجية بعلم الرينوريقي . نعم ، هذا العلم في اللغة العربية أتم وأكمل منه في غيرها ، خصوصاً علم البديع ، فإنه أشبه أن يكون من خواص اللغة العربية لضعفه في اللغات الإفرنجية . وبلاغة أسلوب القرآن الذي نزل إعجازاً للبشر ، من خصوصيات اللغة العربية . ثم إنه قد يكون الشيء بليغاً في لغة ، غير بليغ في أخرى أو قبيحاً فيها ، وقد تتفق بلاغة الشيء في لغتين أو لغات ، كما إذا أردت أن تعبر عن رجل شجاع بأنه أسد فتقول : زيد أسد ، فإن هذا مقبول في غير اللغة العربية ، كما هو مقبول فيها . وإذا أردت أن تعبر عن شخص حسن بأنه بديع الجمال فتقول : هو شمس ، أو عن حمرة خده فتقول حدوده تتلظى . فإن هذا التشبيه حسن في اللغة العربية غير مقبول أصلاً في اللغة الإفرنجية . وكذلك ما يقال في الريق ونحوه ، مثل قول الشاعر⁽⁹⁴⁾ :

خليلي إن قالت بثينة ما له
أتانا بلا وعد فقولاً لها لها
سها وهو مشغول بعظم الذي به
ومن بات طول الليل يرعى السها سها
بثينة تزري بالغزالة في الضحى
إذا برزت لم يبق يوماً بها بها
لها مقلة نجلاء كحلاء خلقة
كأن أباهما الظبي أو أمها مها
دهتني بودّ قاتلي وهو متلفي
وكم قتلت بالود من ودّها دها
وماست بأعطاف لطاف تهزها
فعاينت غصن البان من هزها زها

(94) تنسب هذه الأبيات لجميل بثينة ، ولكن الصنعة واضحة فيها ، فليست من شعره بل من عصر

وقالت وقد سارعت في السير دونها
وقاطعت طرقاً دونها ومها مها
سلافة ريق عتقت ثم روقت
فمن لم يمت بالسكر من صفوها وهي
وفي الشفة اللعسا دوا كل مدنف
فإن كنت مشتاقاً إلى رشفها فها

فأغلب التشبيهات الموجودة في هذه الأبيات غير مقبولة عندهم ، لأنهم يقولون إن الطبع لا يألف الريق مثلاً لكونه آيلاً إلى البصاق . وإذا شبهت بضع العذراء قبل افتضاضها بالوردة التي لم تفتح ، ثم بعده بالوردة المفتوحة كان ذلك عظيمًا عند الفرنسيين ، فمبنى البلاغة عندهم على ما يقبله الطبع . ويقال نسبة علم البلاغة للبلاغة كنسبة العروض للشعر ، فحينئذ توجد البلاغة عند من لا يحسن عملها ، كما أنه قد يحسنه غير البليغ . وأغلب نفع البلاغة يكون في الشعر ، والخطابات ونحوها ، من كتب الآداب والتواريخ . وأعظم نفع ذلك العلم التوصل إلى معرفة أسرار التنزيل وإعجازه ، وذلك لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - بعث في زمن شعر ونظم وكهانة ، فأيده الله - سبحانه وتعالى - بالقرآن الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . فظهر لأرباب العقول الصائبة بأنه كلام قادر يقدر ، ولا يقدر عليه ، وأنه لا يشبه كلام المخلوقين فأمنوا به واتبعوه ، إلا من حق عليه العذاب . ونزل القرآن الشريف على مقتضيات الأحوال ، وكانت سائر عباراته مناسبة للأحوال لفظاً ومعنى . وإذا أردت توضيح العلوم الثلاثة ومعرفة قواعدها ، فعليك بكتب المعاني والبيان والبديع .

الفصل الخامس

في المنطق

هو علم يبحث فيه عن المعلومات التصورية والتصديقية من حيث توصيلها إلى غيرها ، والمشهور أن واضعه أرسطو الحكيم المسمى أيضاً أرسطاطاليس . وفي كتب

الفرنساوية أن أرسطاطاليس هو الذي قد كمل هذا الفن ، وأن أفلاطون أيضاً هذبه ، وأن زنون وضعه . ونسبة هذا العلم للجنان كنسبة النحو للسان ، والعروض للنظم ، ونحو ذلك . ولهذا العلم مباد ومقاصد ، فمباده التصوّرات والتصديقات ، ومقاصده التعريفات والأقيسة ، والتصوّر إدراك غير الحكم وعكسه التصديق . فإذا تصوّرنا حقيقة الرجل من غير أن نحكم عليه بإثبات ونفي ، كان ذلك تصوّراً . وإذا حكم عليه بأنه عالم ، مثلاً ، فإنه يكون تصديقاً . والتصوّر قسمان : بسيط ومركب ، فالتصوّر البسيط إدراك الشيء مجرداً عن صفاته ، والمركب إدراك الشيء مع بعض صفاته . مثال الأوّل ما إذا تصوّرت الإنسان ولم يخطر ببالك أنه متحرّك ، ومثال الثاني ما إذا تصوّرتّه وميزته من الجماد بتحرّكه . فالتصور لا يكون إلّا في المفردات ، كما أن التصديق لا يكون إلّا في القضايا . والقضية هي حكم يحصل بإثبات تصوّر إلى آخر أو نفيه عنه . فالتصوّر المسند إليه الإثبات أو النفي يسمى الموضوع ، والتصوّر المسند إلى الموضوع مما تقدّم يسمى المحمول . والموضوع والحمول يسميان جزأَي القضية ، وهذان الجزءان يجمعهما جزء ثالث يسمى رابطة . مثال ذلك ما إذا قلت زيد فصيح ، فإن زيدا هو الموضوع وفصيح هو المحمول والرابطة مقدّرة ، والتقدير زيد هو الفصيح أو زيد يكون فصيحاً . وأما إذا قلت زيد هو الفصيح ، فإن الرابطة ظاهرة . ثم إن القضية ، إما كلية يعني مستغرقة لسائر الأفراد ، كما إذا قلت كل إنسان صنعه الله تعالى ، وإما جزئية كما في قولك بعض الحيوان إنسان ، وكل من القضية الكلية أو الجزئية مسور ، وإما شخصية وإما مهمة ، فالأولى كزيد قائم والثانية كالإنسان كاتب ، بقطع النظر عن الكلية والجزئية ، وإما طبعية كما في قولك الظلم رديء . والقضية أيضاً إما بسيطة أو مركبة ، فالقضية البسيطة ما كانت غير متعدّدة الموضوع والحمول ، كما في قولك الفضيلة حميدة والرذيلة ذميمة ، وبخلافها المركبة فهي ما تعدّد فيها الموضوع فقط أو المحمول فقط أو هما معاً ، كما إذا قلت الفضيلة والرذيلة ضدّان أو الفضيلة محبوبة مطلوبة أو الفضيلة والرذيلة ضدّان لا يجتمعان ، ونحو ذلك . وإذا كانت القضية المركبة مصنوعة من عدّة قضايا بسيطة ، فإنه يكفي في كذبها كذب بعض أجزائها . وأما التعريفات التي هي مقاصد التصوّرات ومصححات القضايا ، فإنها تنقسم إلى تعريف بالحدّ ، وتعريف بالرسم ، وتعريف لفظي . فمثال

التعريف بالحدّ قولك الإنسان حيوان ناطق . ومثال التعريف بالرسم قولك الإنسان حيوان كاتب . ومثال التعريف اللفظي قولك الإنسان هو الآدمي ، إذا فرضنا أن لفظ الآدمي أشهر وأعرف من لفظ الإنسان . ويمكن أن يجعل هذا القسم الثالث سائر تفسير الألفاظ المترجمة من لسان إلى آخر . مثال ذلك إذا قدرنا أن أعجمياً لا يعرف معنى كلمة الله ، فإنك تعرفها له تعريفاً لفظياً بقولك له الله هو (خداي) . وكل من الحدّ والرسم ينقسم إلى تام وإلى ناقص ، على حسب كونه بالجنس أو الفصل القريب أو البعيد أو بالخاصة أو بالعرض العام كل منها منفرداً أو مجتمعاً ، وهذا كله موضح في كتب المنطق . وأما القياس ، وهو المقصود الأصلي من علم المنطق ، فهو ما يلزمه لذاته تصديق آخر . مثال ذلك ما إذا قلنا إن الله سبحانه وتعالى حكم عدل ، وكل من كان كذلك فإنه يقتض للمظلوم من الظالم ، فمتى سلمنا القضيتين الأوليتين فلا بدّ أن نسلم القضية الثالثة . والقضيتان الأولى تسميان مقدّمتين ، وإحدهما تسمى صغرى والأخرى كبرى ، وروح القياس هو النتيجة . والقياس يكون صحيحاً إذ كان صحيح المادّة والصورة ، وفاسداً إذا فسدت إحدهما . والمراد بصحة المادّة أن سائر قضاياها تكون صحيحة . والمراد بصحة الصورة أن يكون منظوماً على كيفية يكون إنتاجها ضرورياً . والقياس الصحيح هو المسمى بالحجة والبرهان ، وأما القياس الفاسد أو البرهان الفاسد فيسمى سفسطة ، وهو ما يشبه الصحيح وليس صحيحاً لعدم ملازمته نتيجته الظاهرية للمقدّمات الصحيحة . وفي كتب الفرنسيين أن القاعدة التي ينبني عليها القياس الصحيح ويمتاز من السفسطة هي إثبات أصلين ، أحدهما مبنيّ الصحة والآخر مبنيّ الفساد ؛ وهما أن المستلزم لشيء مستلزم لذلك الشيء ، والمنافي لشيء ناف لشيء آخر هو ناف لذلك الآخر ، أو ناف للاثنين معاً . وكيفية تطبيق هذا على القياس أنك إذا سئلت عن الغضب : هل هو مذموم؟ فأردت أن تستدل على أنه مذموم ، فإنك تبحث عن طرف القضية الذي هو الموضوع ، فإنك ترى من جملة تعريف الغضب أنه عيب ، فحينئذ كلمة غضب متضمن لمعنى عيب ، فتركب مقدّمة هكذا : الغضب عيب ، ثم تقابل العيب مع الذم الذي هو محمول القضية ، فإنك تجد أن العيب يستلزم الذم فنقول العيب ذميم . فإذا لما رأيت أن الغضب يستلزم العيب والعيب يستلزم الذم ، فإنك تستنتج منه أن الغضب ذميم .

فكل قياس لا يمكن أن تطبقه على هذا الأصل فإنه يكون سفسطة ، مثال ذلك أرسطو فيلسوف ، وبعض الفلاسفة صالح ، إن أرسطو صالح . وبعض أجزاء القياس قد يحذف للعلم به ، كما في قولك الفضيلة حميدة فينبغي كسبها . والقياس إما حملي أو شرطي ، فكل ما تقدّم مثال للحملي . ومثال الشرطي لو كانت الشمس طالعة لكان النهار موجودا ، لكن الشمس ليست بطالعة تخرج النتيجة قائلة فالنهار ليس بموجود . ومحل ذلك كتب المنطق . ثم إن الإفرنج ، كما يطلقون الكلمات على قواعد اللغة الفرنسية ويسمون ذلك إعراباً نحوياً يطبقونها على قواعد المنطق ويسمون ذلك منطقياً . فإذا أراد إنسان إعراب «زيد فاضل» إعراباً نحوياً ، فإنه يقول مثلاً : زيد مبتدأ وفاضل خبره أو نحو ذلك مما يليق بقواعد نحوهم . وإذا أراد أن يعرب إعراباً منطقياً ، فإنه يقول : زيد موضوع ، وفاضل محمول ، وهذه القضية قضية شخصية . ويفعلون ذلك في سائر الجمل .

الفصل السادس

في المقولات العشر المنسوبة إلى أرسطو

من المعلوم أن أرسطاطاليس حصر الأشياء المتعلقة في عشر مراتب تسمى مقولات . فجعل الموادّ داخلّة تحت الأولى ، وجعل سائر الأغراض داخلّة تحت التسع الأخرى . المقولة الأولى مقولة الجوهر ، وهو جسماني وروحاني . الثانية الكم ، وهو إما منفصل إذا كانت الأجزاء متفرقة مثل العدد ، أو متصل إذا كانت الأجزاء مجتمعة . وهو إما متتابع مثل حركة الفلك أو قار ، وهو المسمى العظم أو الامتداد للجسم من الطول والعرض والعمق . فمن الطول وحده تتعقل الخطوط ، ومن الطول والعرض تتعقل السطوح ، ومنهما مع العمق يحصل الجسم التعليمي . الثالثة الكيف ، وقسمه أرسطو إلى أربعة أقسام : فالأول هو الاستعدادات ، يعني تهيئات العقل أو الجسم المكسوبة بالأعمال المتكررة ، مثل العلوم والفضائل والرذائل ، والقدرة على الكتابة والرسم والرقص ؛ والثاني القوى الطبيعية ، مثل قوّة النفس والبدن كالإدراك والإرادة ، وقوّة الحفظ والحواس الخمسة ، والقدرة على المشي ؛ والثالث القوى المشاهدة ، مثل

الصلابة والرخاوة والكثافة والبرد والحرّ والألوان والأصوات والروائح والأذواق ؛ والرابع الصور والأشكال التي ينتهي بها الكم ، مثل الاستدارة والتربيع والكروية والتكعيبية .

الرابعة مقولة الإضافة ، وهي النسبة بين شيئين مثل الأب والابن ، والمخدوم والخادم ، والملك والرعية ؛ وكنسبة القدرة والإرادة لمتعلقيهما ، والبصر للمبصر بالقوّة ؛ وكنسبة التي تقتضي المشاركة كالشبيه والمساوي والمباين ، والأصغر والأكبر . الخامسة مقولة الفعل ، سواء كان قائماً بالفاعل مثل المشي والقيام والرقص والمعرفة والعشق ، أو واقعاً منه على غيره مثل الضرب أو القتل إلى آخره . السادسة مقولة الانفعال ، مثل الانكسار والانحراف . السابعة مقولة الأين ، جواب السؤال الذي يتعلق بالمكان مثل قولك : في مصر الحريم في الفراش . الثامنة مقولة متى ، وهو جواب السؤال الذي يتعلق بالزمان كما إذا قلت : متى كان موجوداً فلان؟ فقليل منذ مائة سنة ، أو متى وقع هذا؟ فقليل البارحة . التاسعة مقولة الوضع ، كحالة الجلوس والوقوف ، وكونه قبل أو بعد أو أمام ، على اليمين أو على اليسار . العاشرة مقولة الملك ، وهو وجود شيء مع الإنسان منسوب إليه كاللباس والزينة والسلاح ، فتعلق ذلك به وحوزه له هو هذه المقولة . فهذه المقولات العشر التي ذكرها أرسطو وعدّت من الأمور الخفية ، والإفرنج يقولون إنه ليس في معرفة هذه المقولات كبير فائدة ، بل معرفتها مضرة لشيئين : الأول أن الإنسان يظن أنها مبنية على حكم عقلي ومحصورة بحصر استدلاليّ ، مع أنها ليست إلا اصطلاحية جعلية ، حصرها بعض الناس في هذه الأقسام ليظهر بها الرياسة على غيره ، مع أنه يوجد في ذلك الغير من يمكنه أن يحصرها حصراً آخر جديداً ، كما فعل ذلك بعض الناس من أنه حصر المقولات في سبعة ، وسماها المواد العقلية : المادّة الأولى العقل أو الجوهر ، الثانية الجسم أو الجوهر ذو الامتداد ، الثالثة القدر أو صغر كل جزء من أجزاء الهيولات ، الرابعة وضع الهيولات على التناسب بين أجزائها ، الخامسة صورة الأشياء ، السادسة الحركة ، السابعة السكون . الشيء الثاني أن متعلمها يكتفي بمجرد ألفاظ وهمية ويظن أنه على شيء ، لم يعرف بها شيئاً له في الواقع معنى واضح محقق .



الفصل السابع

في علم الحساب المسمى باللغة الإفرنجية الأرتيماطيقي

اعلم أن الأرتيماطيقي هو أحد العلوم الرياضية الخالصة ، وذلك لأن حكماء الإفرنج قسموا الرياضيات إلى خالصة وغير خالصة أو مختلطة . فالرياضيات الخالصة هي علم الحساب الغباري والهوائي ، وعلم الجبر والمقابلة ، وعلم الهندسة ، ونحو ذلك . وأما الرياضيات المختلطة فهي علوم الحيل ، وفن تحريك الأثقال ، ونحوها . والرياضيات الخالصة هي ما تبحث عن الكميات والأشياء القابلة للزيادة والنقصان . والرياضيات المختلطة هي ما بداخلها أشياء خارجية من علم الطبيعة وغيره . والحساب أهم العلوم الرياضية . وقد دلت كتب التواريخ على أن واضع هذا العلم أهل برور الشام ، يعني الصوريين وقدماء أهل مصر ، يعني أن هاتين الأمتين هما أول من جمع الأعداد والحساب ونظماهما في عقد الرتيب ، حتى إن فيثاغورس الحكيم رحل من بلاد اليونان إلى مصر فتلقى فيها هذا العلم . وما اشتهر بين السلف أن علم الحساب من مخترعات الصوريين ، ويقال إنهم أيضاً أول من استعمل القوائم والدفاتر . والظاهر أن الأصابع هي أول الطرق التي استعملها الإنسان في الحساب ، وأن ذلك هو السبب في كون أول عقد في العدد هو عقد العشرات ، والثاني عقد عشرات العشرات التي هي المئات ، والعقد الثالث عقد عشرات المئات أو الألوف ، وهكذا لأن الأصابع عشرة ، فكان الانتقال من عقد إلى آخر من عشرة إلى عشرة . ولما كانت الأصابع لا تكفي إلا في تمييز عشرة عشرة ، احتاج الأمر إلى طريقة أخرى وعلامات أخرى ، فأخذوا صغار الحصى وحبوب الرمل والقمح ونحوها واستعملوها لضبط المعدودات ، كما هو الآن عند بعض همل أمريكة وبعض همل غيرها من أقسام الأرض ، حتى إن بعض قدماء الأمم الماضين لا يوجد في لغاتهم ما يمكن التعبير به عما فوق العشرات ، فإنهم كانوا يعبرون عن مائة وسبعة وعشرين مثلاً بقولهم سبعة وعشرون وعشرة عشرات ، وذلك لأن الأقدمين كانوا يذكرون العدد الأصغر قبل الأكبر ، فيبتدئون بالأحاد ثم بالعشرات ثم بالمئات وهكذا ، كما قال بعضهم إنه يوجد في كتب

العبرانيين واليونانيين ما يدل على ذلك ، وهو أيضاً أسلوب اللغة العربية فيما دون المائة . وأما الآن فقد تبحر الأمم في علم الحساب وتنوعوا وتفننوا فيه حتى وصلوا إلى كماله وحدّ علم الحساب علم يبحث فيه عن الأعداد من حيث ما يعتريها من الأعمال . والعدد اجتماع الأحاد ، وهو قسمان صحيح وكسر وزاد بعضهم ثالثاً ، وهو ما تركب منهما وسماه عدداً مشتملاً على الكسور . ويتعلق بهذه الأعداد أعمال أربعة ، هي الجمع والطرح والضرب والقسمة ، وهي معلومة في كتب هذا الفن . وأما علم الهندسة فموضوعه قياس الامتدادات الثلاثة التي هي الطول والعرض والعمق ، كما أشرنا إليه في منظومتنا في علم الهندسة بقولنا :

موضوعه قياس الامتداد

فسره بالثلاثة الأبعاد

الطول والعرض كذا والعمق

وشرح هذي غير مستحق

وأما الجغرافيا فقد تقدّم منها نبذة في مقدّمة الكتاب ، وإنما ينبغي لنا هنا أن نذكر أقسامها فنقول إنه تارة ينظر إلى الأرض من جهة شكلها وسكونها وتحركها ونسبتها لما عداها من الأجرام الفلكية ، فتسمى الجغرافية الرياضية وعلم هيئة الدنيا ؛ وتارة تلاحظ من جهة مادّتها الترابية أو المائية وما يتعلق بذلك بما يظهر على سطحها مثل الجبال ، فتسمى بالجغرافيا الطبيعية أي المتعلقة بطبيعة الأرض ؛ وتارة ينظر إليها من جهة اختلاف أهلها في الدين والملة ، فتسمى الجغرافية الدينية ؛ وتارة ينظر إليها من جهة اختلاف أهلها في التدبير والسياسة والرسوم والقوانين ، فيسمى ذلك بالجغرافيا السياسية أو التدبيرية ؛ وتارة تعتبر من جهة التغيرات أو التقلبات الحاصلة طول الأزمان المختلفة في الأرض وفي أجزائها بالنسبة للدين والسياسة ونحو ذلك ، ويسمى ذلك الجغرافيا التاريخية . وهذه هي الأصول ، وإلاّ فالقسمة غير حاصرة . ومن أراد الكلام على ذلك فعليه برسالتنا المسماة بالتعريفات الشافية بمريد الجغرافية ، فإنه موضح فيها غاية التوضيح ، غير أنه ينبغي لنا هنا الكلام على مسألة من مسائل علم الجغرافيا الرياضية التي هي علم الهيئة ، فنقول : الإفرنج قسموا الكواكب الفلكية إلى ثوابت وإلى سيارة ، وإلى سيارة السيارة ، وإلى ذوات المذنب ؛ وعدّوا الشمس من

الثوابت ، والأرض من السيارة ، والقمر من سيارة السيارة ، أي التابعة في السير للكواكب السيارة . وهذا المذهب يسمى عند هم مذهب كبرنيق النمساوي . وقد كشف المتأخرون منهم عدة كواكب سيارة لم يظفر بها المتقدمون لفقد الآلات عندهم ووجودها لهؤلاء الإفرنج ، فبذلك بلغت السيارات المعروفة عندهم أحد عشر ، غير الشمس والقمر ، فإن الأولى من الثوابت على رأيهم والثاني من سيارة السيارة . ولنذكرها لك هنا على حسب قربها من الشمس فنقول : هي عطارد والزهرة والأرض والمريخ ووسته (بكسر الواو وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة) أي المجرة السيارة ، ويونون (يضم الياء والنون بعدها واو) وتسمى زوجة المشتري ، ويقال لها بنت زحل ، وسريس (بكسر السين والراء بعدها ياء مسكنة) ويقال لها قريس أي « السنبلة السيارة » وبلاس (بفتح الباء وتشديد اللام) ومعناه أبو الفلق ، والمشتري وزحل وأورانوس (يضم الهمزة وراء بعدها ألف ثم نون مضمومة) ومعناه الفلك الأعلى . وهذه الكواكب الجديدة لا يمكن رصد دورانها على نفسها إلا بصعوبة لصغر بعضها ، في رأي العين ، وبعد البعض الآخر ، بل لا يمكن رصد ما عدا أورانوس إلا بالنظارات الفلكية . ولهذا سميت عند الإفرنج بالسيارات النظارية ، ويؤمل الإفرنج كشف غيرها من السيارات . وأما التاريخ فهو أيضاً مما ينبغي للإنسان الاطلاع عليه ، لا سيما أرباب الدول . ولنذكر لك هنا نبذة لطيفة ذكرها هنا بعض المؤلفين من الإفرنج ، فنقول :

التاريخ مدرسة عامة يقصدها من أراد من الأمم أن يفوز بالتعلم ، وهو أيضاً تجريبيات حوادث الأعصر التي تساعد الحال الراهنة . ومن جهة اشتماله على عبر محفوظة ، يعين المرء على التفكير في ظاهر الآتي . فمنه يعتبر من اعتبر من جميع الناس ، أي ما كان مقامهم ، لما أنه يظهر على رؤوس الأشهاد الآثار الرديئة المترتبة على تشاجرهم واختلافهم . ومثل هذه الصورة المهولة تحملهم على التحلق بالأخلاق الحميدة ، مثل الحلم والعدل . ومن التاريخ يفهم الملوك أنه ، في زمن سلطنة ملك حسن التدبير ، ينبغي أن تكون شوكة الملك وكرسيه ظلاً ووقاية . قال بسوه : لو فرض أن التاريخ لا ينفع غير الأمراء فإنه يجب قراءته للأمراء ، ولكن إنما يفتح التاريخ للعاقل كنوزه ليفهم منها خفياته ورموزه ، فيشغل فكره مدة قراءته عن تغيرات معيشة الإنسان الباطلة . ثم ينتقل من ذلك إلى مادة أهم من ذلك ، فتتكشف له سلاسل

الزمن العديدة التي تمس حلقتها الأخيرة خلق العالم . أو ليس أن هذه السلاسل كميدان عظيم ، يطلع الإنسان فيه دفعة واحدة على جميع الأمم والدول و كل الأزمان⁽⁹⁵⁾ . فانظر إلى هذا المحفل العظيم المحتوي على أرباب سعود ونحوس ، فكم فيه من مدائن دمرت ، ومن دول انقرضت ، ومن ممالك ذهبت واندثرت ، ومن محال خربت ، ومن مقابر عمرت ، فكان كل شيء يؤول إلى القبور وهي تعلو وحدها على ميدان الأرض . فكم تظهر زينة الحياة الدنيا هينة حقيرة ، إذا نظر الإنسان من سماء التاريخ وكم يظهر أن الجمعية التي في زماننا يسيرة هينة ، بجانب جمعيات أهالي القرون والأعصار . فشتان بين ملوك عصرنا الذين يمكن للنظر أن يقيس عظمها المحسوس ، وملوك تلك الأزمنة التي يظهر للأعين كأنهم جبال مرفوعة على دائرة أفق الأعصر السالفة . وانظر ما تكون حروبنا الوقتية ، وحبنا للعلو والشرف الموقتين ، عجائب منازعة السلف من مبدأ العالم على مكان من الأمكنة أو على شبر من أرض . فمن نظر حق النظر في عجائب التاريخ ، فإنه يكتسي بثياب الجدّ ويتجرد من ملابس الهزل ، ويصعد على ذروات النظر فيرى تحت رجليه أن العالم بأسره أشبه ببحر محيط تسبح فيه سفن آمال الخلق وأمانيتهم من غير دفعة ، عرضة للرياح الشديدة ، وينتهي أمرها إلى الانكسار على ما يصادمها من الشعوب ، ولا تجد من المراسي ما ترسي عليه غير فرضات القدم . فإذا نظرت من هذا المحل ترى ، بعين مجردة عن الطمع ، حطام الدنيا الفانية والمدح الباطل المقصودين المرغوبين لكثير من الناس كلا شيء . أو ليس أن للدهر نكبات وتغيرات في جميع ما وهبه وأعطاه؟ فأيّ مملكة أمنا على كرسيها من السقوط؟ وأي دولة أيسنا على تختها من الارتفاع؟ أو ما رأينا أن الهيكل الواحد يتداول على محرابه عدّة أديان متباينة؟ وكم ارتكبت الرذائل حيث كانت الفضائل قاطنة؟ وكم من قواعد فخر وغنى آل أمرها إلى أن أعقبها الفقر والحقارة؟ وكم شوهد أن الخشونة والتمدّن يشيان بهرولة على سطح الكرة ، ويتبادلان على أجزائها من غير تخلخل واسطة بينهما؟ وكيف قد آل أمرك ، أيتها المدائن التي كنت عامرة ببلاد آسيا ، وقد كنت تحكمين على جميع الأمم ، يا مدن نينوى⁽⁹⁶⁾ يونس

(95) وردت في النص : وأزمان كل .

(96) الصحيح : نينوى ، وهي عاصمة الآشوريين .

وبابل السحر أو يا أصطخر⁽⁹⁷⁾ فارس وتدمر سليمان⁽⁹⁸⁾ كيف صارت الآن محالك خراباً؟ وقد كنت كراسي دول العلوم ، فلم يبق لك من فخارك القديم وبهائك الجسيم غير الاسم وبعض رسم من حجر . ومع ذلك ، فلم يحل ببلد من بلاد الدنيا من النكبات العجيبة والبلايا الغريبة مثل ما حل بمصر المباركة ، المصابة بالشقاء ، التي كانت خيولها تسبق سالفاً خيول سائر الممالك في الركض في ميادين الفخار والعلم والحكمة ، فكأن الدهر أراد أن يصب على هذه البلاد دفعة واحدة ، إما نعيم الإنعام أو عذاب الانتقام ، مع أنه لم يكن من الأمم مثل قدماء مصر في كونهم بذلوا جهدهم في الجلوس على مباني هياكلهم المشيدة ، وأرادوا بذلك أن يكونوا مؤبدين ، فبادوا جميعاً وانقرضوا حتى إن أهل مصر الموجودين الآن ليسوا جنساً من أجناس الأمم ، بل هم طائفة متجمعة من مواد غير متجانسة ، ومنسوبون إلى عدة جنوس مختلفة من بلاد آسيا وأفريقية ، فهم مثل خليط من غير قياس مشترك ، وتقاطيع شكل صورهم لا تتقوّم منها صورة متحدة ، بها يعرف كون الإنسان مصرياً من سحنه ، فكأنما سائر بلاد الدنيا اشتركت في تأهيل برّ النيل .

(انتهى مترجماً من مقدّمة الخواجا أكوب : في تاريخ مصر . وفي آخرها يمدح وليّ النعم ، محيي بلاد مصر من العدم . وقد مدحه أيضاً في قصيدة فرنساوية سماها نظم العقود في كسر العود . وقد ترجمتها ، وذكرت بعضاً منها في الفصل الثاني من المقالة الثالثة .)

وعلم التاريخ واسع ، وإن شاء الله تعالى بأنفس وليّ النعم يصير التاريخ على اختلافه منقولاً من الفرنسية إلى لغتنا . وبالجملة ، فقد تكلفنا بترجمة علمي التاريخ والجغرافية بمصر السعيدة ، بمشيئته تعالى ، وبهمة صاحب السعادة محب العلوم والفنون ، حتى تعدّ دولته من الأزمنة التي تؤرخ بها العلوم والمعارف المتجدّدة في مصر ، مثل تجددها في زمن خلفاء بغداد .

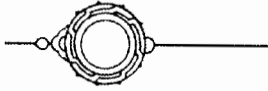
(97) أصطخر : عاصمة الساسانيين ، تقع في الجنوب الغربي من إيران .

(98) لا علاقة لتدمر بسليمان ، إلا إذا كانت الإشارة إلى الأساطير التي تزعم أن الجن بنوها .

وقد ورد ذكر الجن (بينون تدمر) في معلقة النابغة الذبياني .

السحوكة

فبراير 1830



في رجوعنا من باريس إلى مصر وفي عدة أمور مختلفة

من المعلوم أن نفس القارئ لهذه الرحلة تتطلع إلى معرفة نتيجة هذا السفر الذي صرف عليه ولي النعمة مصاريف لم تسبق لأحد من الملوك ولا سمع بها في التواريخ عند سائر الأمم وإنما تسطيرها في تاريخ دولة الخديوي مما يدل على أن حضرته العلوية ، صاحب الهمة العلوية ، قد تبصرت في عواقب الأمور ، وأصاب المرمى في جميع ما شرعت فيه مما يبقى به الذكر على ممر الدهور . ولا شك أن ذلك تقصر عنه همة قيصر ، وتكل عن نيل مثله قوة إسكندر الأكبر ، ولا يمكن لمثل نابليون أن يفوق فيه نباله ، ولا لمثل أفريدريقوس أن يوجه إليه باله ، أو يميل إليه آماله . فكيف ، وإرسال ولي النعمة للأفندية إلى باريس قد نجح غاية النجاح وأثمر ، حيث إن جلهم قد اكتسب رضا صاحب السعادة ، وسارع في المطلوب وعن ساعد الجد والاجتهاد شمر . فقد أرضع ، حفظه الله تعالى ، في تلك الديار بأثناء العلوم أطفالاً حتى صاروا بكمال العلوم رجالاً ، بل منهم من وصل إلى رتبة أساطين الإفرنج . فهم ما بين مدبر للأمور الملكية ، حائز كمال الرتبة في السياسات المدنية ، كحضرة صاحب البراعة واليراعة ، رب الطالع السعيد ، وذو النجابة والرأي السديد ، عبيد أفندي ، وما بين

متمكن في معرفة إدارة الأمور العسكرية ، راق فيها إلى درجة عليّة ، وما بين رباني بسائر الأمور البحرية ، أو خبير بالطب أو بالكيميا الصحيحة المرضية ، وبصير بالطبيعيّات ، وما هو في علم الزراعة والنباتات ، ومنهم فائق الأقران في الفنون والصنائع ، وحرّي بفتح فبريقيّات تشتهر ببراعته بغير منازع . ولولا خوف الإطالة لذكرت جميع من ظفر بقصده من الأفندية ، على حسب حوزة للمراتب العلية . ولعمري لا أستطيع عدم التعرّض لعدّة أشخاص قد بلغ فضلهم الغاية في الامتياز ، غير أنني أسلك في ذكرهم غاية الإيجاز . كيف لا أقول أن حضرة مصطفى مختار بك أفندي قد بلغ درجة كبار الفرنساوية في علم إدارة المهمات العسكرية ، وقد حاز مرتبة سامية من العلوم ، وتمكّن من المنطوق منها والمفهوم . ولا شك أنه ممتاز بالعلوم التدبيرية ، وجامع لمعارف الديار الإفرنجية ، وسع الله به دائرة المعارف بمالك مصر والشام ، وجعله مقبولا لدى وليّ النعم الأكبر وسرّ عسكر نجله الضرغام . وليس كل من اكتسب المعارف يصدر عنه عمل اللطائف ، قال الشاعر :

وعادة السيف أن يزهر بجوهره

وليس يعمل إلا في يدي بطل

وأما حضرة حسن بيك أفندي ، وكذا الأفندية البحرّيون ، ففضلهم وكمال علومهم ثابت بالبرهان ، يدل عليه امتيازهم بين الأقران . وشهرة أسطفان أفندي غنية أيضاً عن البيان ، فقد حاز من العلوم ما حاز ، وفاز من الفنون بما فاز . ولا ينكر فهم أطين أفندي في جميع أنواع العرفان ، ولا خليل أفندي محمود . وتعلم أحمد أفندي يوسف مشهود ، غير مجحود . وبالجملة ، فالجل من الأفندية حصل المرام ، ورجع لنشر هذا بديار الإسلام . ولنذكر هنا رجوع العبد الفقير إلى مصر ليتم غرض هذه الرحلة ، فنقول : خرجنا من باريس في شهر رمضان سنة 1246 ، وسرنا نقصد مرسيليا لنركب البحر ونرجع إلى الإسكندرية ، فمررنا على مدينة فنتنبلو بقرب باريس ، بها قصر سلطاني ، وهذا القصر شهير بأن نابليون نزل فيه عن سلطنة فرنسا ، وخلعها عنه سنة 1815 من الميلاد . ويشاهد به عمود على شكل الهرم مبني من الحجارة ، والقصد منه أنه تبقى آثاره لتذكر رجوع البربون في فرنسا ، فتجد مرسوماً عليه أسماءهم وتاريخ ولادتهم وغير ذلك . وفي هذه الفتنة الأخيرة محا الخلق هذه الأسامي ، فلا يشاهد

منها إلا الآثار . وهكذا عادة الزمان في تلونه بجميع الألوان ، وغدره وفتكه يقوم وإقباله على آخرين قبل تمام يوم ، قال الشاعر :

قتلت صناديد الرجال فلم أدع
عدواً ولم أمهل على جيشه خلقا
وأخليت دار الملك بعد ملوكهم
فشردتهم غرباً وبددتهم شرقا
فلما بلغت النجم عزاً ورفعة
وصارت رقاب القوم أجمع لي رقا
رماني الردى سهماً فأحمد جمرتي
فها أنا ذا في حفرتي عاطلاً ملقى

وكتابة تلك الرسوم من عادة الإفرنج تأسياً بالسلف من أهالي مصر وغيرهم ، فانظر إلى بناء أهل مصر للبرابي⁽¹⁾ وأهرام الجيزة فإنما بنوها لتكون آثاراً ينظر بعدهم إليها من رآها . ولنذكر لك آراء الإفرنج فيها ، وما ظهر لهم بعد البحث التام حتى تقابله بما ذكره المؤرخون فيها من الأوهام ، فنقول : ملخص كلام الإفرنج أن الذي بناها هو ملوك مصر ، وأنه اختلف في زمن بنائها ، فبعضهم زعم أنها بنيت منذ ثلاثة آلاف سنة ، الباني لها ملك يقال له قوف . وبعضهم قال إن الباني لها ملك يقال له خميس أو خيوس ، والأظهر أن أحجارها منحوتة من صعيد مصر ، لا من البحيرة . وقال بعضهم إن مدة بنائها لم تكن أزيد من ثلاث وعشرين سنة ، وأن العملة الذين بنوها كانوا ثلاثمائة وستين ألف نفس ، ولكن بمصاريف عظيمة حتى إن ما صرف على البصل والكرات للعملة يبلغ ، على ما قاله بلنياس ، نحو عشرين مليوناً من القروش المصرية . ثم إن هذه الأهرام تنسب إلى أحد ملوك الفراعنة ، وأنه أعد الهرم الأكبر ليضم جثته ، والآخرين لدفن زوجته وبنته ، فلم يدفن هو في الأول بل بقي هذا الهرم الآن مفتوحاً . وأما الهرمان الآخران فدفنت فيهما بنته وزوجته ، وسداً سداً محكماً . هذا ما حكاه الإفرنج في شأن الأهرام ، وما قيل في عظم بناء الهرمين

(1) البرابي : المسلات (كما سيأتي شرحها في النص)

العظيمين .

خليلي ما تحت السماء بنية
يشابه بניהا بنا هرمي مصر
بناء يخاف الدهر منه وكلما
على الأرض يخشى دائماً سطوة الدهر

قال بعضهم في الأهرام مضمناً عجز بيت من معلقة طرفة :
لقد بت بالأهرام حول أحبة
جفوني ببرد يابس وتجلد
يقول بها صحي لبرد جليدها
وهجري لا تهلك أسي وتجلد

قال السيوطي في منتهى العقول إنه يتعجب من قول العلماء إن أعجب ما في مصر الأهرام مع أن البرابي بالصعيد أعجب منها (والبرابي هي المشهورة عند العامة بالمسلات) ولغرابتها نقل إليها الإفرنج اثنتين إلى بلادهم ، إحداهما نقلت إلى روما في الزمن القديم ، والأخرى نقلت إلى باريس في هذا العهد ، من فائض معروف ولي النعم . وأقول حيث إن مصر أخذت الآن في أسباب التمدن والتعلم على منوال بلاد أوروبا ، فهي أولى وأحق بما تركه لها سلفها من أنواع الزينة والصناعة ، وسلبه عنها شيئاً بعد شيء يعدّ عند أرباب العقول من اختلاس حلي الغير للتحلي به فهو أشبه بالغصب ، وإثبات هذا لا يحتاج إلى برهان لما أنه واضح البيان . وقد صنع نابليون في باريس عموداً مفرغاً من المدافع التي سلبها من الموسقو والنمسا . وقد حاول الموسقو إسقاطه حين حلولهم بباريس فما ظهر إلاّ عجزهم عن ذلك . ثم بعد أن جزنا فنتنبلو ، شاهدنا مدينة نيمور بعد سير أربع ساعات من فنتنبلور ، وهي على عشرين ساعة من باريس . ثم بعدها مررنا على مدينة كونه على شط نهر لوار ، وهي مدينة تصنع فيها الهالليب للمراكب السلطانية ، ثم على مدينة مولن ، وبها كثير من أولاد العرب الذين صحبوا الفرنسية من مصر إلى فرنسا . ثم سرنا حتى وصلنا مدينة روانه ، وهي على سبعة وتسعين فرسخاً فرنسائياً ، وأهلها تسعة آلاف نفس ، وبها

ديوان مشورة للفبريات ومشورة للزراعة وكتبخانة ومخزن آلات طبيعية وهندسة ، وبها قنطرة ظريفة على نهر لوار ورصيف مشهور ، وهي ساحل لمركز تجارات ليون وغيرها من سائر أنواع البضائع ، وبأراضيها مقاطع الرخام . ونهر لوار يمكن المسير فيه بقرب هذه المدينة . وهذه المدينة غير مدينة روان البعيدة عن باريس جهة الشمال بثلاثين فرسخا ، والتي يمر بها نهر السين والتي هي من إقليم نورمنديا . ثم وصلنا إلى مدينة ليون ، وقد تقدّم الكلام عليها . ثم وصلنا إلى مدينة أورغون التي على جنوب باريس بمائة وثمانية وسبعين فرسخاً فرنسائياً ، وهي في سفح جبل ، شهيرة بكون نابليون حال عبوره بها تخفى خوفاً من أهلها . ولا زلنا نمرّ ببلاد حتى وصلنا إلى مرسليليا . وقد تقدّم الكلام عليها مستوفياً . ومنها نزلنا في سفينة تجارية وسرنا قاصدين الإسكندرية . ولا حاجة أيضاً إلى ذكر ما شاهدناه لأنه عين ما سبق في المقصد . غاية ما نقول أن كل من يعرفني من الفرنسية طلب مني أنني ، بمجرد دخولي إسكندرية ، أذكر ما يقرع فكري مما أستغربه لبعده عهدي من مصر ، ولرؤيتي خلافه في بلاد الإفرنج ، وتعودي على مشاهدة غيره يظهر لي غرابة ما أراه أول وهلة حين وصولي ، فوعدت ووفيت . هذا حاصل ما كان لخصت حسب الإمكان ، فلم يبق علينا حينئذ إلا ذكر خلاصة هذه الرحلة وما دقت فيه النظر وأمعنت فيه الفكر ، فأقول : ظهر لي ، بعد التأمل في آداب الفرنسية وأحوالهم السياسية ، أنهم أقرب شبيهاً بالعرب منهم للترك ولغيرهم من الأجناس ، وأقوى مظنة القرب بأمور كالعرض والحرية والافتخار ، ويسمون العرض شرفاً ويقسمون به عند المهمات . وإذا عاهدوا عاهدوا عليه ووفوا بعهودهم . ولا شك أن العرض عند العرب العرباء أهم صفات الإنسان ، كما تدل على ذلك أشعارهم وتبرهن عليه آثارهم . قال الشاعر :

وإني لخلو للصديق وإنني
لمرّ لذي الأضغان أبدي له بغضي
وإني لأستغني فما أبطر الغنى
وأبذل ميسوراً لمن يبتغي قرضي
وأعسر أحياناً فتنفد عسرتي
وأدرك ميسور الغنى ومعني عرضي

وهتك العرض هو ما يعبر به عندهم بالسبة والعار ، قال الشاعر⁽²⁾ :

تعيّرنا أنا قليل عدادنا
فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرّنا أنا قليل وجارنا
عزيز وجار الأكثرين ذليل
يقرب حب الموت أجالنا لنا
وتكرهه أجالهم فتطول
وإنا لقوم ما نرى القتل سبة
إذا ما رأته عامر وسلول
إذا سيد منا خلا قام سيد
قوول لما قال الكرام فعول
سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم
فليس سواء عالم وجهول

ولا نظن بهم أنهم ، لعدم غيرتهم على نسائهم ، لا عرض لهم في ذلك حيث أن العرض يظهر في هذا المعنى أكثر من غيره ، لأنهم وإن فقدوا الغيرة لكنهم إن علموا عليهن شيئاً كانوا أشد الناس عليهن ، وعلى أنفسهم ، وعلى من خانهم في نسائهم . غاية الأمر أنهم يخطئون في تسليم القياد للنساء ، وإن كانت المحصنات لا يخشى عليهن شيء ، كما قال الشاعر⁽³⁾ :

إذا غاب عنها البعل لم تفش سره وترضي إياب البعل حين يؤوب
قال الزمخشري عند قوله تعالى حكاية عن قول العزيز ﴿واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾⁽⁴⁾ ما كان العزيز إلاّ حليماً ، وقيل إنه كان قليل الغيرة . قال الشيخ أثير الدين أبو حيان في تفسير هذه الآية الكريمة : «وتربة مصر اقتضت هذا ،

(2) السموأل بن عاديا .

(3) علقمة الفحل (؟ - 603م) شاعر جاهلي من بني تميم ، عاصر امرأ القيس .

(4) سورة يوسف : 29 .

يعني قلة الغيرة ، وأين هذا مما جرى لبعض ملوك بلادنا ، وهو أنه كان مع ندمائه
الخصيصين به في مجلس أنس ، وجارية تغني وراء الستارة ، فاستعاد بعض جلسائه
بيتين من الجارية وكانت قد غنت بهما ، فما لبثت أن جيء برأس الجارية مقطوعاً في
طشت ، وقال له الملك : «استعد البيتين من هذا الرأس» فسقط مغشياً عليه ، ومرض
مدّة حياة ذلك الملك . أقول : وأين غيرة هذا الملك من غيرة عبد المحسن الصوري على
محبوبه ، حيث قال :

تعلقه سكران من خمرة الصبا
به غفلة عن لوعتي ونحيبي
وشاركني في حبه كل ماجد
يشاركني في مهجتي بنصيب
فلا تلزموني غيرة ما ألفتها
فإن حبيبي من أحبّ حبيبي
انتهى سكردان ابن حجلة صاحب ديوان الصبابة . وبالجملّة ، فسائر الأم تشكّي
من النساء ، ولو العرب . قال الشاعر :

لقـد باليت مظعن أم أوفى
ولكن أم أوفى لا تبـالي
وقال آخر⁽⁵⁾ :

فإن تسألوني بالنساء فإنني
بصير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله
فليس له في ودّهـن نصيب
يردن ثراء المال حين علمنه
وشرخ الشباب عندهن عجيب
وحيث أن كثيراً ما يقع السؤال من جميع الناس على حالة النساء عند الإفرج ،

(5) علقمة الفحل (هامش 132)

كشفنا عن حالهن الغطاء . وملخص ذلك أيضاً أن وقوع (الخبطة) بالنسبة لعفة النساء لا يأتي من كشفهن أو سترهن ، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة ، والتعود على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك في المحبة ، والالتئام بين الزوجين . وقد جرب في بلاد فرنسا أن العفة تستولي على قلوب النساء المنسوبات إلى الرتبة الوسطى من الناس ، دون نساء الأعيان والرعاع ، فنساء هاتين المرتبتين يقع عندهم الشبهة كثيراً ويتهمون في الغالب . فكثيراً ما كانت تتهم الفرنسية نساء العائلة الملكية المسماة البربون على أن مما يقوئ كلامهم ما وقع لزوجة ابن ملك فرنسا المعزول ، التي هي أم الدوك دوبردو الذي خلع عليه جدّه المملكة بعد عزله ، ولم يقبله الفرنسية وقالوا إن هذا الولد ابن زنا ، فإن أمه ولدت ولداً آخر من الزنا وأدّعت أنها تزوّجت سرّاً ، فانكسر بذلك ناموسها . وبعد أن كانت تطلب ملكة فرنسا لابنها الأول ، وكانت آخذة في أسباب توليته ، وكان يخشى منها وقوع شيء في المملكة ، سقطت من الأعين . وبعد أن وقعت في يد الفرنسية وكان يظن هلاكها ، تركا سبيلها قائلين إنها صارت مهملة ، ورجعت إلى أهلها بولدها الأخير . ومن أغرب ما وقع ببلاد الإفرنج في هذا الأمر أن ملك الإنكليز جرجس الرابع اتهم زوجته بالفاحشة ، بعد أن عهد منها ذلك المار العديدة واشتهرت بذلك عند الخاص والعام ، لكونها كانت تسافر ببلاد الإفرنج مع من تريد ، ولها في كل محل عشاق ، فلما رفع أمرها عند شرعهم وأقيمت الدعوى كما ينبغي ، وقصد بإثبات زناها طلاقها ليتزوّج غيرها ، فلم تثبت أمور كافية في الطلاق ، فحكم القاضي بإبقائها على عصمته قهراً عنه ، فبقيا متفرقين . ولكن لم يتزوج غيرها ، وذاع أمرهما وشاع ، ولكن في الحقيقة ، وإن كان يعتقد فيها ذلك ، إلا أنه بمجرد القرائن لا بالمشاهدة ، وإلا لا نثلّم عرضه . فمادّة العرض التي تشبه الفرنسية فيها العرب ، هو اعتبار المروءة وصدق المقال وغير ذلك من صفات الكمال ، ويدخل في العرض أيضاً العفاف ، فإنهم ثقل فيهم دناءة النفس . وهذه الصفة من الصفات الموجودة عند العرب والمركوزة في طباعهم الشريفة ، وإن كانت الآن قد تلاشت فيهم واضمحلت ، فإنما هو لكونهم قاسوا مشاق الظلم ونكبات الدهر ، وأحوجهم الحال إلى التذلل والسؤال . ومع ذلك فقد بقي منهم من هو على أصل الفطرة العربية ، عفيف النفس ، عليّ الهمة ، كما قال الشاعر :

فدعني ونفسي والعفاف فإنني
أخذت عفا في حياتي ديدني
وأصعب من قطع اليدين على الفتى
صنيعة برّ نالها من يدي دني

وأما الحرّية التي تتطلبها الإفرنج دائماً ، فكانت أيضاً من طباع العرب في قديم الزمان ، كما تنطبق به المفارقة التي وقعت بين النعمان ابن المنذر ملك العرب ، وكسرى ملك الفرس . وصورتها أنه قدم النعمان على كسرى وكان عنده وفود الروم والهند والصين والعجم والترك وغيرهم ، فذكروا من ملوكهم وبلادهم وعماراتهم وحصونهم ، فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم ولم يستثن فارساً ولا غيرها ، فقال كسرى وقد أخذته الغيرة : يا نعمان ، لقد فكرت في العرب وفي غيرها من الأمم ، ونظرت في حال من يقدم عليّ من الوفود ، فوجدت الروم لها حظ في اجتماع ألفتها ، وعظيم سلطانها ، وكثرة مدائنها ، ووثيق دينها ؛ ورأيت الهند شهيرة الحكماء ، طيبة الثراء ، كثيرة الأنهار والبلاد والثمار ، عجيبة الصناعة ، مرونقة الحسان ، معمورة بالأهل ؛ وكذلك الصين عجيبة في اجتماعها ، وكثرة صنائع أيديها ، وهمتها في الحروب ، وصنعة الحديد ، وأنّ لها ملكاً يجمعها ؛ وكذلك الترك مع ما هم عليه من سوء الحال في المعاش ، وقلة الريف والثمار والحصون ، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس ، فإن لهم بعد ذلك ملوكاً تضم قاصيهم وتدبر أمورهم ؛ ولم أر للعرب شيئاً من ذلك من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا ، ولا حرمة ولا قوّة ، ولا عقد ولا حكمة ، مع ما يدل على تدانيها وذلتها وضعف همتها بحالهم التي هم بها مع الوحوش النافرة والطيور الحائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة ، قد حرموا من مطاعم الدنيا ومشاربها وملابسها ولهوها ولذاتها ، وأعظم طعام ظفروا به لحوم الإبل التي يعافها كثير من الطيور والسباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها ، وإن أقرى أحد ضيفاً اعتدتها مكربة ، وإن أطعم لقمة عدّها غنيمة ، تنطق بذلك أشعارهم وتفتخر بذلك رجالهم ، ما عدا هذه التتوخية التي أسس جدّي اجتماعها وشدّ مملكتها ومنعها من عدوّها ليجري له ذلك إلى يومنا هذا ، فإن لها مع ذلك أثاراً وحصوناً وأموالاً تشبه أموال بعض الناس ؛ لكنني

أراكم لا تسكتون على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس ، حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس . فقال النعمان أصلح الله الملك ، صدقت أن هذه الأمة تسمو بفضلها وبِعَظَم خطبها وعلو درجتها ، إلا أن عندي جواباً في كل ما نطق به الملك ، من غير ردّه عليه ولا تكذيب له ، فإن أمنتني من الغضب مما أتكلم به ، فعلت . قال كسرى : وأنت آمن . فقال النعمان : أما أمتك فلا تنازع في الفضل لموضعها التي هي به من عقولها وأخلاقها ، وبسطة محلها وبحبوحة عزها ، وما كرّمها الله تعالى به من ولايتك وولاية آبائك وأجدادك . وأما الأم التي ذكرت ، فما من أمة إلا فضلتها العرب بفضلها . قال كسرى : لماذا؟ قال النعمان : بعزها ومنعتها وحسن وجوها وذمتها وبأسها ورياستها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها ووفائها . فأما عزها ومنعتها فإنها لم تزل مجاورة لآبائك وأجدادك الذين فتحوا البلاد ووطنوا العباد وأقاموا الملك وقادوا الجيوش ، ولم يطمع فيهم طامع ولم يزلوا عندهم محترمين ، ولا نال أحداً منهم نائل بل حصونهم ظهور خيولهم ومهادهم الأرض وسقوفهم السماء ، وإلى جانبهم السيوف وعدتهم السقف ، إذ غيرها من الأمم إنما عزها بالحجارة والطين والجزائر والبحور والقلاع والحصون . وأما حسن وجوها وألوانها فقد يعرف بذلك فضلهم على الهند المحترقة والصين المتجشمة والترك المشوهة والروم المقترّة الوجوه . وأما أنسابها وأحسابها ، فليس أمة من الأمم إلا وقد جهل أبؤها وأصولها وكثير من أولها وآخرها ، حتى أن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه فلا ينسب ولا يعرفه ، وليس أحد من العرب إلا ويسمى أباه أبا فابا ، أحاطوا بذلك أحسابهم وحفظوا بذلك أنسابهم ، فلا يدخل رجل في غير قومه ولا ينسب إلى غير نسبه ولا يدعى إلى غير أبيه . وأما شجاعته وسخاؤها فإن أدناهم رجلاً يكون عنده البكرة والناب عليها بلغته وحمولته وشبعه وريه ، فيطرق الطارق الذي يقتدي بالقادة ويجتري بالشربة ، فيعقرها له ويرضى أن يخرج له عن دنياه كلها فيما يكتسبه من حسن الأحداث وطيب الذكر والثناء . وأما حكمة ألسنتها فإن الله تعالى أعطاها أشعاراً وروناً كاملاً وحسن وزنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالإشارة وضربهم الأمثال وبلاغتهم في الصفات ما ليس من ألسنة الأجnas ، ثم إن خيولهم أفضل الخيول ، ونساءهم أعف النساء ، ولباسهم أحسن اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة ، وأحجار جبالهم الجزع ، ومطاياهم التي لا

يبلغ إلا على مثلها سفر ، ولا يقطع إلا بمثلها بلد قفر . وأما دينها وشريعتها ، فإنهم متمسكون به أعظم تمسك ، وإن لهم أشهراً حرماً ، وبلداً محرماً ، وبيتاً محجوجاً ينسكون فيه مناسكهم ، ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقي الرجل فيه قاتل أبيه وأخيه وهو قادر على أخذ ثأره منه ، وإدراك رغبته فيه ، فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله إياه ، احتراماً لذلك البيت وتشريفاً له . وأما وفاؤهم ، فإن أحدهم يلحظ اللحظة فهي عقد لأهلها لا يرجع عما أضمره في نفسه حتى يبلغه ، وإن أحدهم يرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدينه فلا يطلق رهنه ولا يخفر ذمته ، خوفاً من الله تعالى ، وإن أحدهم يبلغه أن أحداً استجار به وعسى أن يكون نائباً عن داره ، فيمنع عنه عدوه ويحميه منه ولو تفنى قبيلته أو تلك القبيلة التي استجار عليها ، وذلك لما أخفر من جواره ، وإن أحدهم ليلجأ إليه المحروم والمحدث عنه بغير معرفة ولا قرابة ، فينزله عندهم وتكون أنفسهم وأموالهم دون ماله . وأما قولك أيها الملك ، حفظك الله ، أنهم يقتلون أولادهم من الحاجة فإنما يفعله من فعله منهم رغم أنفه حذراً من العار ، وخيفة وغيره من الأزواج . وأما قولك أيها الملك إن أفضل طعام ظفروا به لحوم الإبل على ما وصفت منها ، فماتركوا ما دونها لإحتقاراً له ، فعمدوا إلى أجلها وأفضلها فكانت مراكبهم ومطاعمهم ، مع أنها أكثر البهائم لحوماً ، وأطيبها شحوماً ، وأرقها ألباناً ، وأقلها غائلة ، وأحلاها مضغة ، وأنه لا شيء من اللحوم يفاخر لحمها إلا استبان فضلها عليه . وأما محاربتهم ، وأكلهم بعضهم بعضاً ، وتركهم الانقياد إلى رجل واحد يسوسهم ويدبر أمورهم ، فإنما يفعل ذلك من الأمم من علمت الضعف من أنفسها ، وتخوفت من نهوض عدوها عليها ، فإنهم يحتاجون إلى ملك يدبر أمرهم ويكون رجلاً من أعظمهم شأناً وقدرًا ، ويكونون معترفين بشرفه على سائرهم فينقادون إليه بأزمته وينقادون إلى أمره ؛ وأما العرب أيها الملك ، فإن كثيراً منهم لعظم كرمهم ووفائهم ودينهم وحكمة ألسنتهم وسخاء نفوسهم يقولون إنهم ملوك بأجمعهم مع رفعتهم ، فلا ينقاد أحد إلى الآخر ، فإنهم أشراف . وأما اليمن التي وصفها الملك ، فإن أبائك وأجدادك أعلم بصاحبها لما أتاه ملك الحبشة في مائتي ألف وتغلب على ملكه ، وجاء إلى بابك وهو مستصرخ ذليل حقير مسلوب ، فلم يجره أحد من أجدادك ولا آبائك ، فاستجار بالعرب فأجاروه . ولولا ما وتر به من بلية العرب لمال إلى نقص ، ولم يرجع

إلى محله . ولولا أنه وجد من يجيد معه الطعان بقتل الأحرار وتبدّد شمل الكفار
ويذبح العبيد الأشرار ، لم يرجع إلى اليمن . قال فعجب كسرى مما جاء به النعمان ،
ثم قال : إنك لأهل لموضعك من الرياسة ولأهلك ولأهل إقليمتك ، ولما هو أفضل
منه . ثم كساه وأنعم عليه وأعطاه أشياء جزيلة ، ثم سيره إلى موضعه من الحيرة ، ثم
بعد ذلك سير إليه وقتله . والتنوخية فرقة من اليمن ، قال المتنبي على لسان بعضهم :

قضاة تعلم أنني الفتى الـ

لذي ادخرت لصروف الزمان

ومجدي يدل بني خندف

على أن كل كـريم يمان

أنا ابن اللقاء أنا ابن السخاء

أنا ابن الضراب أنا ابن الطعان

أنا ابن الفيافي أنا ابن القوافي

أنا ابن السروج أنا ابن الرعان

طويل النجاد طويل العماد

طويل القناة طويل السنان

حديد اللحاظ حديد الحفاظ

حديد الحسام حديد الجنان

يسابق سبقي منايا العباد

إليهم كأنهم في رهان

يرى حدة غامضات القلوب

إذا كنت في هبوة لا أراني

سأجعله حكماً في النفوس

ولو ناب عنه لساني كفاني

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : حضر رجل من أهالي مصر إلى عمر بن
الخطاب وجعل يشكو من عمرو بن العاص ، فقال : يا أمير المؤمنين إن هذا مقام
العائد ، فقال عمر : لقد عذت ، فما شأنك؟ قال : تسابقت بفرسي أنا وابن عمرو بن

العاص فسبقته ، فحمل عليّ بسوط في يده وجعل يقنعني بالسوط ويقول لي : أنا ابن الأكرمين ، وبلغ ذلك عمرو بن العاص ، فخشى أن أتيك لأشتكي ولده ، وحبسني فقلت من الحبس ، وهأنا قد أتيتك . قال فكتب كتاباً : من عمرو بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، إنه إذا أتاك كتابي هذا احضر الموسم ، يعني الحج أنت وابنك . ثم التفت إلى المصري وقال له : قم حتى يأتي غريمك . فلما حضر عمرو بن العاص وابنه الحج ، وجلس عمر بن الخطاب ، وجلسوا بين يديه ، وشكى المصري كما شكى أول مرة ، أوماً عمر بن الخطاب وقال له : خذ الدرة وأنزل بها عليه . قال فدنا المصري من ابن عمرو بن العاص ، ونزل عليه بها . وعن أنس قال : والله ، لقد ضربه ونحن نشتهي أن نضربه ، فلم يزل يضربه حتى استجبنا أن لا يضربه ، وذلك من كثرة ما يضربه ، وعمر رضي الله عنه يقول : اضرب ابن الأكرمين . قال عمرو بن العاص : قد شفيت يا أمير المؤمنين . قال عمر بن الخطاب للمصري : انزع عمامته ، وضع الدرة على صلعة عمرو . فخاف المصري من ذلك وقال : يا أمير المؤمنين ، قد ضربت من ضربني ، فما لي أضرب من لم يضربني . فقال عمر رضي الله عنه : والله لو فعلت لما منعك أحد . ثم التفت رضي الله عنه وقال لعمرو بن العاص : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ فمنهم يفهم أن الحرية أيضاً من طباع العرب من قديم الزمان . هذا ، ولا ينبغي لنا أن نختم هذه الرحلة من غير أن نشكر محاسن من ساعد وليّ النعم في نجاح مقصوده من ترتيب أمور التلامذة ، وتعليمهم بمدينة باريس ، محب البلاد المصرية وأهلها الخواجة جومار ، فإنه يسعى بهمة ورغبته في تنفيذ مقصد أفندينا وليّ النعم ، ويسارع في المصلحة بلا إنكار ، فكأنه من أبناء مصر البارين بها ، فهو جدير بأن ينظم في سلك الحبين للذات الخديوية . وما يدل على ذلك غاية الدلالة ما ذكره في روزنامته التي ألفها لاستعمال مصر والشام سنة ألف ومائتين وأربع وأربعين من الهجرة ، فإنه ذكر فيها أنه ، إن صدرت له إرادة سنوية وأوامر خديوية ، ليؤلفن كل عام روزنامة بهذا الوضع ، ليعين على حسن تمدن الإيالات المصرية . فمن جملة ما قاله في مقدمته أنه يذكر في هذه الروزنامة عدة أمور : الأمر الأول الدلالة على تقدّم الحرف والصنائع اللازمة لمصر من أولها لآخرها . الثاني تجارة أهالي أوروبا وآسيا وأفريقية ، كقوافل بلاد البربر ودارفور وسنار وبلاد

الحجاز ، ومقابلة الأقيسة والمكايل والموازين المختلفة باختلاف البلاد المستعملة هي فيها . الثالث ذكر أمور الزراعة ، فإنها كانت سبباً في سالف الأعصر في غنى أهل مصر ، فلهذا ينبغي أن تكون أول ما تهتم به الدولة في مملكة مصر الطيبة التربة والزراعة ، كثيرة الفروع المهمة . فمن ذلك علم توفير المصاريف الخلائية ، ويتشعب عنه إصلاح المزارع والمروج المستحدثة المدبرة ، وتتميم زراعة القطن والنيلة والعنب والزيتون والتوت ، واستخراج دقيق النيلة ، واستخراج أنواع كثيرة من الزيوت ، ومعرفة تربية النحل ودود لقز ودود الصباغة ، وتعهّد الحيوانات الأهلية ، وتحسين الحيوانات البلدية بعزلها عن غيرها ، كالخيل والمعز وحيوانات الأصواف ، وجلب البهائم البرانية ، ومعرفة طب البهائم ومعالجة أمراضها كمرض السواف⁽⁶⁾ وحفظ الحبوب من السوسة ، وغرس الأشجار وترتيبها بحافات الطرق ، وخدمة البساتين وسائر الأبنية الخلائية المناسبة لمصالح الزراعة . وفي مادة الزراعة نذكر الترع والخلجان المعدة لسقي الأراضي وللأسفار ، وكذلك نذكر الطرق والجسور والقناطر في السهول والجبال المعدة لتوصيل المياه ، فهذه كلها تذكر في الفلاحة . الرابع نتكلم عن أمور مختلفة من علوم الطبيعة ، ومن علم المواليّد الثلاثة ، ومن العلوم الرياضية . وهناك نتكلم عن المادة المغناطيسية التي يستعملها الأطباء في معالجة الشلل ونحوه ، وكذلك القوة الكهربائية والحرارة الكروية ، والحوادث السماوية ، والندى والمطر الذي يحدث بين المدارين . وكذلك نتكلم عن أحجار الصواعق ، وعلى جبال النار المسماة بالبركانية ، وعلى الآلات الطبيعية كميزان الزمان وميزان الحرّ وميزان الرطوبة ووقاية الرعد ، والنظارات الفلكية والنظارات المعظمة للأشياء الدقيقة التي لا يدركها النظر . ونتكلم أيضاً على علم المعادن واستخراجها وقطع الحجارة من مقاطعها ، وعلى علم الحشائش الطبية والنباتات المستعملة في الفنون والصنائع ، وعلى البهائم النافعة ، وعلى علم الجبر والمقابلة والهندسة . الأمر الخامس يشتمل على جملة فروع من علم توفير المصاريف وسياسة الدولة ، وعلى تنبيهات على علم أحوال الممالك والدول ، وعلى سبب ثروتها وغنى أهلها ، وعلى أحوال المعاش والمعاد ، وعلى ولادة الذكور والإناث

(6) السواف (بفتح السين وضمها) : مرض مهلك يصيب المواشي .

في كل بلدة من البلاد ، وعلى الإدارة الملكية ، وعلى الأصول العامة المستعملة أساساً لسياسات الإفرنج ، وهي الحقوق العقلية والحقوق القانونية والحقوق البشرية ، أي الحقوق التي للدول بعضها على بعض . السادس سياسة الصحة العمومية والخصوصية ، ففي ذلك نتكلم على تلقيح البقري للجذري ، وعلى الطاعون ومعالجته ، وعلى الأمراض والعوارض العامة ، وعلى بعض تشريح . السابع نذكر فيه جملة تعليمات مختلفة من مسائل أدبية وفلسفية ولغات ، وعلوم مثل علم الفصاحة ، وفيه نتكلم أيضاً على المكاتب والمدارس في البلاد المختلفة ، ونبذات في تواريخ البلاد خصوصاً مصر ، وعلى حكايات ونوادير من غرائب الآداب والبلاغة الإفرنجية والمشرقية ، وكذلك نذكر شيئاً من علم المنطق ، ونبين الوسائط المسهلة المعلمة بالإيجاز للقراءة والكتابة والحساب ، وطرق تعليم هذه الأشياء في أقرب زمن لسائر العامة . الثامن نبحت فيه عن عدة أشياء متنوعة ، وفيه نذكر أخبار التجارة والسفن البحرية ، وإقامة العربات العامة وتحسين الطرق والترع والخلجان والقناطر المعلقة ، والإشارة المسماة تلغراف ، يعني إشارة الأخبار ، وجميع الأشغال المتجددة عند الإفرنج ، وتضم لذلك لوحات أشكال لكمال الفائدة . وكذلك نرسم خرطرات جغرافية ، وصور النباتات والحيوانات التي تنقل من البلاد الغربية وترى في مصر ، ونذكر كثيراً من الأمور التي تتجدد على تداول الأزمان . وبالجمل ، فنذكر نبذاً صغيرة متشعبة من أصول عظيمة ومستفادة من أفواه الثقات ، سهلة الفهم لسائر الناس ، ولا نستعير منها شيئاً من صعاب الكتب .

انتهى كلامه ولم ينجز ما وعد به ، لأنه علق ذلك على الإرادة السنية ولم يصدر له أمر إلى الآن . وبالجمل ، فهو من المولعين بحب مصر ظاهراً وباطناً ومن الراغبين في خدمة وليّ النعم حباً له ولدولته .

وهذا آخر ما يسره الله سبحانه وتعالى في ذكر حوادث السفر لتلك الجهة التي لا ينكر معارفها إلا من لا إنصاف عنده ولا معرفة له . قال الشاعر⁽⁷⁾ :

(7) شرف الدين البوصيري (608-696هـ/1212-1296م) والأبيات من قصيدة «البردة» .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم الماء من سقم
والفضل كالشمس لا يخفى على أحد
إلا على أكمه عما يراه عمي
ولا ينبغي أن يمنع ذو الحق حقه ، كما قال الشاعر في هذه الأبيات المملوءة من
الحكمة :

إذا كنت في حاجة مرسلاً
فأرسل حكيماً ولا توصه
وإن ناصح منك يوماً دنا
فلا تنأ عنه ولا تقصه
وإن باب أمر عليك التوى
فشاور لبيباً ولا تعصه
وذو الحق لا تنتقص حقه
فإن القطيعة في نقصه
ولا تذكر الدهر في مجلس
حديثاً إذا كنت لم تحسه
وقص الحديث إلى أهله
فإن الوثيقة في قصه
ولا تحرصن فرب امرئ
حريص مضاع على حرصه
وكم من فتى ساقط عقله
وقد يعجب الناس من شخصه
وأخر تحسبه أنوكا
ويأتيك بالأمر من نصه⁽⁸⁾

(8) تنسب هذه الأبيات إلى طرفة بن العبد وعبد الله بن معاوية الطالبي معا .

ولا أحد يخلص من قال الناس وقيلهم ، كما قال الشاعر :

ومن ذا الذي ينجو من الناس سالما

وللناس قال بالظنون وقيل

وحيث كان العمل بالنية ، والمدار على حسن الطوية ، فلا معول على من لم يكن
نير السياسة ، ساطع الكياسة ، ولا اكتراث إلا بمن رقي رتبة عليّة في الرسوم
والقوانين ، وتشبث بالشرعية وكان فيها ذا رياسة ، ودرى أن القصد إنما هو حث أهل
ديارنا على استجلاب ما يكسبهم القوة والبأس ، وما يؤهلهم لإملائهم الحكام على
هؤلاء الناس . وبالجملّة ، فنحن الآن على ما كان عليه الأمر في زمن الخلفاء
العباسية ، كما قال الشاعر :

وأزرق الصبح يبدو قبل أبيضه

وأول الغيث قطر ثم ينهمل

ولبعض أقاربي :

يا من غدا معجبا بما اقترحت وقد

أضحى يروم مقال العاذل اللاحي

أما رأيت إذا شمس الضحى غربت

يلجي الحريص إلى ضوء بمصباح

وقال آخر :

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به

ولا يكون له في الأرض آثار

وعلى كل حال فأرجو من نظر فيه أن يتصفحه بجملته ليكون على بصيرة بما يقول
فإن المتصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل منه ولا أقول إلا كما قال الشاعر :

فإليك وشيأ حاكه

في الطرس ذو باع قصير

واستتر إذا عيب بدا

والله يعفو عن كثير

ولنختتمها بالدعاء للحكومة الخديوية ، حماها الله وذريتها ، وجعلها سامية القدر

بين دول الممالك المشرقية والمغربية . شعر :

فتية لم تلد سواها المعالي

والمعالي قليلة الأولاد

متع الله مصر وإيالاتها بما أفاضه عليها وليّ النعم من حسن التمدّن والعدل ، وأمدّ لها أيّامه بجاه خاتم الرسل الذي على مولاه دل . وحيث وافق من الطبعة الثانية تمامها ، وصادف بالعناية ختامها ، مبدأ تولية وليّ النعم ، وفيّ الكرم الذي سرّ بولايته الحاضر والبادي ، والرائع والغادي ، وحسن عند الخاصة والعامة منه المبادي ، وله على الرعايا في القديم والحديث جزيل النعم وجميل الأيادي ، من سلك جادة العدل والإنصاف وعن مفارز الجور والاعتساف تحاشى ، سعادة أفندينا الأكرم الحاج عباس باشا . وكانت قد تشرّفت مدرسة الألسن بتهنئته بالقدوم من حجه المبرور ، وتقلده بمنصب الولاية الذي أدخل على الجميع السرور ، في ضمن قصائد لا تفي من مديحه بالمعشار ، ولو نشرت بساط الإسهاب والإكثار ، كما قلت :

ماذا قصائد شاعر

لو أنه فيها مجيد

في مدح من يروي العلا

والمجد عن عبد المجيد

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ،
والصلاة والسلام على صاحب المعجزات الباهرات ،
وعلى آله وأصحابه ، وعترته وأحبابه ،
آمين .

تمت الرحلة

ملاحق الكتاب

ملحق (1)

تقريظ شيخنا، شيخ الإسلام الشيخ العطار شيخ الجامع الأزهر على هذا الكتاب

سبحان من أظهر عجائب مصنوعاته ، في اختلاف أوضاع مخلوقاته ، وتباين أنواع العالم واختلاف هيئاته ، يرى ذلك بعين الاستبصار ، من ولج في البحار واقتحم القفار ، فإن السفر مرآة الأعاجيب ، وقسطاس التجاريب ، وقد أودع في هذه الرحلة مؤلفها الأديب الأريب ، والفاضل الذكي اللبيب ، ما شاهده من عجائب تلك البلاد ، وأحوال هؤلاء العباد ، ما يحرض العاقل على الأسفار ، والتنقل في الأمصار ، حتى يزداد بذلك علماً يقيناً ، ويفوق بالإحاطة بأحوال عبادته في الزمن اليسير بما لا يدركه القاطن بداره ولو عاش من السنين مئينا .

حرره الفقير حسن العطار
خادم العلم بالأزهر
عفا الله عنه

ملحق (2)

أحببت أن أحلي طرس هذه الرحلة من تلك القصائد بفرائد ،
ليسوغ بذلك مشربها للصادر والوارد ،
فابتدأت منها بقصيدتي السينية ، المتضمنة لبعض أوصافه السنية ، فقلت :

ما بال مصر وقد جلّت عن باسها
وافترّ ثغر البشر من عباسها
وروت حديث الجود عنه مثل ما
روت ارتفاع النيل عن مقياسها
ما بالها حيث الأمانى قد وفّت
باب الرجا من بعد شدة ياسها
ما بالها حيث الحفيد يسوسها
ويزيد تشييداً لرفع أساسها
شبل تأسد حيث ساد كأصله
هل تترك الأرام حفظ كناسها
إن سار نحو الحج خلف وحشة
أوعاد عادت مصر في إيناسها
فلسانها بالشكر يلهج والثناء
والشكر للنعماء أجلّ لباسها
لا غرو إن دانت له مصر فقد
أسدى له طسن محبة ناسها
ربحت تجارة من خزائن ماله
قلب الرعية وهو من حرّاسها
صدر وبالإخلاص مفرد عصره
يشفي صدور الناس من وسواسها

لما رقى العلياء رق لحالها
وصفت وراقت منه خمرة كاسها
بشرى الأهالي إذ وفاها سعدا
في فرط يقظتها وفقد نعاسها
قد كان يوم فدائه شبانها
تاريخ طرد مرآتها ومراسها
جادت به مصر وحازت سؤدداً
ببدوّه إن كان نتج غراسها
هو من بنيها حيث والى برّها
فلدى الولاية لا تقل له واسها
فبجدّه يحيي مآثر جدّه
وعدّ بالتأييد قوّة بأسها
بالألمعية لا يسام ذكاؤه
إن شئت قسه بقسها وإياسها
وسلالة علويّة هو دوحها
وبيان معناها بديع جناسها
وفصاحة عربية هوربها
وبراعة هو منتهى نبراسها
وعقيدة مما يشين سليمة
تأبى طموح النفس في أهجاسها
هو جسم مصر وفرد جوهر روحها
فاعجب لفرد وهو جمع حواسها
تزهبه مصر كيانه جنة
تزهو بروض شقيقها أو أسها
وإذا المروءة قابلت به بأصله
وفت النتيجة طبق شكل قياسها

يرمي الغفاة بطارف ويتالد
رمي الكمأة السهم عن أقواسها
إن أحبست وقفاً عليه حبها
فالخير كل الخير في أحباسها
يوم الولاية كان يوم مسرة
فرحت به أم على أجناسها
فشريعة الإسلام زاد فخارها
وتشيدت بالعز بعد دراسها
وأولو العهود به تقوى جاشها
أما وقد شدت عرى استئناسها
ماذا مديحي وهو بدر طالع
يرقى من الجوزاء ذروة راسها
وسيرتقي في الفخر أقصى شأوه
إن تضرب الأخماس في أسداسها
ما جل قصدي في قصيدي كثرة
بل زينة الأبيات سبك حماسها
حسبي القبول إجازة لقصيدتي
أرج القبول يفوح من أنفاسها
هي بنت هذا الفكر عباسية
طور الخلافة لاح في قرطاسها
وقال إبراهيم أفندي مرزوق خوجه بمدرسة الألسن ، مهنتاً لوليّ النعم الأكرم
بالقدوم من الحج ، مطرّزاً الاسم واللقب :
علو رأيك في الأفاق مشهور
وسيف عزمك للعلياء مشهور
بوحدة المجد فقت السبع منزلة
وبيت مجدك مرفوع ومعمور

أنت الفريد الذي حازت خلائقه
ما ليس يبلغه حصر وتقدير
سست البلاد وأهلها فما أحد
إلا بعدلك والإحسان مأسور
بهمة قيصر لو نال أسرها
ما كان نال مناه منه سابور
أسست بالدين والتقوى علاك وكم
للدين عندك تعظيم وتوقير
شاهدت أنوار بيت الله ساطعة
فعمّ وجهك نور فوقه نور
إن تسع نحوك من أقصى المدى رتب
فقد أفادتك أن الحج مبرور
حج به نلت ما أمّلت من شرف
وأنت فيه بفضل الله مأجور
لا فضل أعظم من هذا وأنت به
أولى ولله اللطاف وتدبير
من ذا يدانيك في مجد وفي كرم
وبحر جودك بالإحسان مغمور
يا واحد الملك زد عزاً وزد شرفاً
فكل شخص بما أوتيت مسرور
ومصر قد نشرت أعلام بهجتها
شوقاً إليك وروض البشر ممطور
إن كان ذا الدهر أصمانا برميته
فكل ذنب له مذ جئت مغفور
لم يبق في الأرض لا بدو ولا حضر
إلا علا منه تهليل وتكبير

يا أيها الصدر عذراً عن مديح فتى
به عن القول في عليك تقصير
ما مدح مثلي وكل بالثنا لهج
وكل لفظ أتى في المدح إكسير
صن بكر فكر تروق الطرف بهجتها
كأن سامعها في الناس مسحور
روح القبول بها قالت مؤرخة
بشراك حجك يا عباس مشكور
وله أيضاً تهنئة لوليّ النعم الأعظم بالمنصب الأعلى ، الذي عالي جنباه العباسي
به أولى :

يا روض حسن في حديقة أس
ما للمحب سوى وصالك آسي
ما حيلة الآسى وعقلي والحشا
ما بين كأس طلا وظبي كناس
ما حيلة الآسى وما لك مهجتي
صلف كثير التيه صعب مراس
وأرى غرامي والجوى من طرفه الند
عباس أو من قدّه الميساس
هو شمس حسن إن بدت ظلت لها ال
أحداق بين محقق أو خاسي
بهرت محاسنه العقول وزاده
حسناً عذار للملاحة كاسي
يا عاذلي وأنا الوفيّ بعهده
لو مرّ صبري أو حلالني ياسي
سل شعره عن طول ليل بته
وخلعت فيه على الخليّ نعاسي

قصرت به زهر النجوم وصبوتي
 طالت وذكري موحشي إيناسي
 سهر ألد من الكرى لما سرى
 طيف الخيال ولم يكن بمواسي
 ماذا عليه لو أفاد بأنني
 نشوان من دمعي وجفني كاسي
 ما لي نديم لا ولا شاق له
 قلب على أهل المحبة قاسي
 أبنقطة في خده يرجو الوفا
 دمع زيادته بلا مقياس
 والوعد والطرف السقيم وخصره
 كل بعهدي في الهوى متناسي
 وأرى الصبا أركى رسول في الهوى
 لمراقب الواشين والخـراس
 فيخص ذا وجد بما يهفو له
 وتعم نفحته على الجلاس
 أرايت حين سرى إلي مبشراً
 بالقرب من ظبي الكناس الناسي
 وظللت فيه زهير وقتي منشداً
 بالله قل يا طيب الأنفاس
 من أين هاتيك الشذا لك يا صبا
 ما ذاك عن ورد ولا عن أس
 عمن أحب رويت لا بل ذاك عن
 أخلاق والي مصرنا عباس
 عباس المولى الذي أخلاقه
 أصفى من الراح احتساه الحاسي

مولى لطالب رفته ولضده
يرجى ويخشى في الندى والباس
مولى توافقت الورى في حبه
وهواه بين تباين الأجناس
أكرم به في حكمه من عادل
بجميل لطف للأنام يواسي
فكأنما الرحمن صور شخصه
مما تألف من قلوب الناس
ما حلم أحنف ما سماحة حاتم
ما كرّ عنتر ما ذكاء إياس
من قاسه بسواه ممن قد مضى
كانت نتيجته بغير قياس
هو ما له فيما حواه مشابه
من حسن أخلاق وطيب غراس
من شاد تالد مجده أباه
فطريفه قد جاء فوق أساس
إن كان من حلم وبشر خلقه
فالبأس دكدك كل طود راسي
فرحت به مصر وزاد سرورها
وانجباب عنها طارق الأهجاس
لولا ندى هذا العزيز وبره
لرحلت عن وطني العزيز وناسي
نشر الأمان بها وأجرى عدله
وأزال ما بالصدر من وسواس
عدل به نفس العباد توطنت
من بعد ما قد كان من إيجاس

وامتدّ موكبه الشريف يحفه
إفراط بشر بل مزيد حماس
ويزينه الخط الشريف مكللاً
باسم شريف فيه كالنبراس
عبد المجيد الشهم سلطان الوري
من نسل غرّ طاهر الأنفاس
ملك الملوك المنتقى من معشر
هم في الوري كالتاج فوق الراس
من آل عثمان الذين فخارهم
لم يحوه الكتاب في قرطاس
فيه ازدهي يا مصر مجدداً والبسي
ثوب التشكر فهو خير لباس
أبقاك من ولاك مصر وأهلها
من بعد ضرب الخمس في الأسداس
ووقاك مما يتقى وأمدنا
بك أنعماً وتزايد استئناس
فاقبل قصيد فتى مديحك زانها
لا ما حوته من بديع جناس
من كل بيت رق جوهر لفظه
بلطيف معنى دق عن إحساس
لما رقيت الملك قلت مؤرخاً
مصر رقت بعزیزها عباس

وقال محمد أفندي عبد الرازق، أحد المترجمين بمدرسة الألسن :

بشراك قد نلت من أيامك الأربا
هذا الحبيب بما تهواه قد قربا

محجب بالبهـا لا عين ترمقه
لقد جلا كرمأ في وصلنا الحجبـا
وزاروهنا وجنح الليل يستـره
ولم أكن لازديار منه مرتقبـا
فقلت مستبشراً عند الوفا فرحاً
أقبل الأرض من إجلاله أدبا
فلا تسلني عن طيف يبشـرني
لولا بشارته ناديت واحـربا
إذ كل جارحة مني لها طرب
به ولا عاشق إلا به طربا
ظبي من الترك فتاك له خفر
أما تراه قلوب العرب قد سلبـا
تغار غيد ملاح الحي قاطبة
من قدّه إذ سلا أرواحنا وسبـا
أصاب أفئدة العشاق ناظره
فهل ترى عقل صب عن هواه صبـا
وما ازدرى الروض إلا ورد وجنتـه
ولا الشغور سوى ما زانه شنبـا
فانظر إلى وجهه والبدر يحسده
وهم غراماً ودع من لام أوعتبـا
بدر أعار بدور الحي بهجتـها
والشمس أبلاجها في الكون والشهبـا
شبهته مذ بدا والبشر سيمته
بوجه عباسنا للملك منتخبـا
أمير كل أمير سعد طالعه
بالعز قد غمر الأعجام والعربـا

روى حديث الندى والعز عن سلف
مسلسلاً عن عطا أنساك من ذهباً
يفتر عن ثغر ندب ظل مبتسماً
إلى العفاة فلا حدّ لما وهباً
سل عن نداه بحار الأرض قاطبة
والغيث والسييل والنيل الذي عذبا
فكلها في معانيها لها طرف
إلى معالي نداه صار منتسباً
حتى غدا البائس العافي النزيل به
من بعد عسراه أغنى من يرى نشبا
أتى الحكومة لما عز جانبه
وقد قضى من فروض الحج ما وجبا
شريف مفخرها سام كهمته
وكامل فهي عباسية النجبا
فإن زهت مصر في عهد العزيز به
وفاخرت كل أمصار الورى رتبا
فاليوم عباسها عن جدّه خلف
ذيل الفخار على الماضين قد سحبا
فمن يكن حاذياً حذو الجدود إلى الخ
يرات نال بعون الله ما رغبا
فاستقبل العدل في أيام دولته
ولا تخف قط في أيامه عطبا
يا خير من أم بيت الله مبتهلاً
بالحزم وانبهرت أعداؤه رهبا
وخير من صار في الأفاق سيرته
ومن عليه لواء النصر قد ضربا

وخير من شرفت مصر به وسمت
وخير من هو أعلى الماجدين أبا
وخير من حاز فضل السيف مستبقاً
وخير من دبر الدنيا إذا كتبها
وخير من تعجز الأقلام أجمعها
عن وصفه بمدح جاء منتخباً
هنيت بالحج مبروراً وفزت به
ومثلك القائل المعروف إذ طلبا
سعيت والسعي مشكور إلى حرم
من حجه لم يخف ضيماً ولا نصبا
وطفت بالبیت منقاداً لعزته
فكنت أفضل من قد طاف واقتربا
ونلت من زمزم شرباً هنيت به
فكنت أكرم من في حجه شربا
وأصبحت مكة في سوحها فرح
لما رأت من ندى معروفك العجبا
تالله ما وطئت رجلاك في بلد
إلاً وأخصب منه القحل واعتشبا
فكان ذا الحج مقبولاً وقد فتحت
له الإجابة من أبوابها حجبا
فاهناً به فهو مبرور وزد شرفاً
بحوزك المنصب الأعلى كما وجبا
وزارة في بيوت المجد قد قصرت
عليك كنت لديها خير من خطبا
وكنت قبل ثنيت العزم عن طلب
لها وصبرك عنها خير ما ندبا

فأقبلت وخيام الفوز قد نصبت
على علاك ومدّت حوله طنبا
واقبل من النظم بكرةً في امتداحك قد
تضمنت من معالي جدك النخب
بقيت في العز ما شادي السرور شدا
بشراك قد نلت من أيامك الإربا

وقال سيد أفندي صالح :

ما جاز ذكرك في الحشا إلا وجب
فلقد قضى من فرط حبك ما وجب
مالي وللاحي وما يهذي به
ما باله يلحى المتيم ما السبب
يا قلب لا تسمع مقالة عاذل
واركض بخيلك في ميادين الطرب
وإذا نهاك فقل له متهمكاً
أرح الفؤاد من العنا ومن النصب
واجعل نديك إن شربت مهفهفاً
واستحل عذب لماه لا بنت العنب
واخلع عذارك في الهوى متهتكا
طلق العنان وخل فيه من عتب
واقطع بماضي العزم حجة أمر
ينهاك عن وصل الملاح ولا تهب
وإذا صبوت فلا يصدك عادل
عن شادن أصمى فؤادك واحتجب
ألبي كثير التيه أخوى أحور
تبت يدا من لأمني فيه وتب

كيف الملام ودون ما لاقيته
لم ينج من أهواله في الحب صب
وجواد فكري لم يزل مذ نشأتي
سباق غايات بمضمار الأدب
حتى افتخرت بمدح أعلى سيد
حامي حمى أقطارنا عالي الحسب
عباسُ المولى المعز ببأسه
للدين والحامي به دول العرب
فهو العزيز بمصره وبه سمت
وبحكمه عزت فلا تخشى النوب
وبعدله المنشور في أرجائها
لم يبق جور وانجلت عنها الكرب
بلد على الدنيا لقد فخرت به
وبه تشرفت المناصب والرتب
أفديه من مولى ملك عادل
شهم حلیم للمعالي منتخب
أنسى بما أعطى سماحة حاتم
ونوال مسعن أو عرابة إن وهب
يا أيها المولى المولى مصره
من يمن جدك قد سموت ولا عجب
يا خير من أم الحجاز تطوعا
بشراك حجك للقبول قد اكتسب
يم حمى دار الخلافة بالغاً
فيها المرام كفوز جدك بالإرب
دم في المعالي راقياً رتب العلا
فإلى علاكم ينتهي شرف النسب

وقال حسن أفندي رضوان ، أحد تلامذة درس الفقه بمدرسة الألسن ، تهنئة لسعادة أفندينا ، وليّ النعم عباس باشا :

برق الحجاز له قلب المشوق صبا
أم عطر نجد به ازداد الشجى وصبا
أم نسمة من منى فاحت بجانيه
فهام من عرفها نحو الحمى طربا
أم طلعة لمحيك البهيج بها
غدا الفؤاد من الأشواق مضطربا
يا طلعة البدر رفقا بالمشوق فقد
أبدى الغرام به ما يوجب العجبا
جسم ضعيف وأجفان مقرحة
من السهاد وقلب في الهوى وجبا
عظفاً عليه ولو بالطيف إن به
وجداً تحمل منه قلبه لهبا
لله ألحاظ جفن منك ما طلبت
قلباً إلى الحب إلا نالت الطلبا
وعذب شهد رضاب كالرحيق غدا
برشفه قد مللت الخمر والحببا
وقامة فضحت غصن النقا ميلا
فكل عدل رآها عقله سلبا
من لي بجلب وصال طالما فقدت
بسلبه أنفـس لم تبلغ الأربا
كيف الوصول وواشي المسك يوقعنا
مع الرقيب ونور الوجه ما احتجبا
أرى رسولي إليها بالوفاء أتى
مخبراً أن وعد الوصل قد قربا

إن طال هجرك لا تخشى صدود فتى
يرى عذابك في أهل الهوى عذبا
كم طاردتني عذال وكلهم
جوادهم في طراد العاشقين كبا
يا عاذل الصب في ذل المحبة هل
شريت من كأسه مثل الذي شربا
دعني وشوقي إني في محبتهم
من بعدهم قد عشقت العلم والأدبا
وكنت قبل أرى الأيام تظلمني
والآن قد وضعت عن كاهلي النصب
واليوم أضحت ثنايا الدهر باسمه
نحوي تشير بكف العزم مختضبا
واستبشر الناس إذ في عصرهم وجدوا
لواء عباسهم بالملك قد ضربا
هو الحليم ووصف العدل شيمته
عباس ذو البأس مهما حاول الغضبا
سلالة الفخر أنساب مطهرة
كرمة الجد من ذا يجهل النسبا
هم الذين لهم في الحكم مرتبة
لم يعطها قبلهم من حاول الرتبا
عصابة شمسهم في الكون مشرقة
سل عنهم إن جهلت العجم والعربا
هذا الوزير الذي إن جاء سائلا
لم يبق من ماله شيئا إذا وهبا
هذا الجواد فلا معن يماثله
فلا يصدك عنه عتب من عتبا

هذا الأمير الذي ذلت لهيبته
كل الأعادي ولاقوا الويل والحربا
إن أشهروا الحرب لم تعمل سيوفهم
أو أوقدوا نارها كانوا لها حطبا
نعم المشير الذي حازت مدائحه
فضائلاً في سناها تشبه الشهاب
مجد أثيل وعزم في الأمور له
حزم متين وكف في الندى رحبا
قد ساد كل أمير بالمفاخر إذ
في الناس قد صار أعلام بها حسبا
فرع من الدوحة العليا إن لها
مجداً به صار أعلى المنتمين أبا
حامي حمى ملة الإسلام قائدها
كاليث يردي الأعادي أينما وثبا
يا من تفرّد في عز وفي شيم
ومن بشأ المعالي نال ما رغبا
قلدت أمر الرعايا فاستعد له
يا خير من صار للإصلاح منتخبا
جاءتك مني بكر بالجمال سمت
لا فضة أبتغي منها ولا ذهباً
لكنني أرتجي منها إذا عرضت
أن لا يكون سوى الإقبال مكتسباً
كفى فخاراً ومدحاً إن ذكركم
بين الأنام ملا الأوراق والكتبا

ولا مانع أن نختم ذلك بقصيدة الجناب المهاب ، المولى الشهاب ، لما أنها من فرائد

هذا الباب ، كيف لا وربها رب الآداب ، لتكون مسك الختام ، وبدر التمام ، قال لا
فض فوه ، وكل ينتحل منه أو يقفوه :

أجبهة الدهر زانتها حلى غررك
أم لاح يا مصر في الدنيا سنا قمرك
بشراك بالكوكب الوضاح فابتهجي
واقضي الأمانى إذ جاءت على قدرك
هذا الحفيد السعيد الجدّ طالعه
في أمانه بالكبرى عوّضت عن سهرك
ناهيك بالقصور العباس من أسد
يحمي الحمى وهو مستول على سررك
إليه آلت أمور الملك قائلة
مرني تجد خير من يأتي بمؤمرك
نعم الحليم الذي قالت مراحمه
كفى بحلمي افتخاراً عند مفتخرك
يا صاح عش عيشة في حكمه رغدا
لقد منحت الغنى من بعد مفتقرك
وانظر إلى ما ترى من حسن سيرته
تشهد محاسن منها مجتلى نظرك
ترى الزمان بعباسي دولته
قد طاب في روضها الزاهي جني ثمرك
واستجلها دولة أيامها ابتسمت
ثغورها وغدت تفتّر عن دررك
وقل أيا ملك الإسماعاد دمت لنا
والحظ من جندك السامي ومن وزرك
طالت لياليك والعلياء خادمة
والدهر سمح بما تهوى مدى عمرك

نور على نورك الباهي المضيء بدا
وأنت في حجك الأسنى ومعمرك
فأشرقت مصر واختالت به وزهت
فقليل نلت المنى وازددت في خفرك
هذي تباشيره قالت مؤرخة
الملك صار قرين الحج في سفرك
ولما قدم من دار السعادة العلية ، حائزاً رتبة الصدارة العظمى السنية ، وتزينت مصر
المحروسة لقدم طلعت المأنوسة ، قلت مؤرخاً للزينة :

يا أيها الصدر أقبل
واشرح بمصر صدورا
وأنت يا سـمـعد أرخ
زينت مـصـراً سـرورا

وقلت أيضاً في التهئة بالقدوم :

لا زلت تسمو في الفخار وتعظم
فلأنت صدر في الوزارة أعظم
نهضت بك العلياء من مصر إلى
أسـتـانة بقم الموالي تلثم
يا حبذا دار السعادة مقصداً
هي كعبة كل إليها يحرم
حرم بك ملك الملوك أجلهم
خاقان أهل الخافقين الأكرم
حرم به ظل الإله على الورى
حامي حماة الدين ليث ضيغم
فدخلت في ذاك الحمى متيامنا
ويحفك الإقبال أين تيمم

ودنوت من عالي الجناب مؤدياً
من واجب التشريف ما يتحتم
بصدارة عظمى حظيت عناية
والصدر مشروح وسعدك يخدم
يوم الضيافة مهرجان حافل
هل ثم عيد مثله أو موسم
حسن التوجه منه صار كرامة
صدر سواك بمثلها لا يكرم
سطعت بك الأنوار يا قمر العلا
حتى ازدهت بالنور حولك أنجم
إلهام باشا ناجب من ناجب
من طيب غرس أصوله هو ملهم
ما أنجز الإقبال نحوك وعده
إلاً وأعجز وهم من يتوهم
هيمنة المنان فاشكر فضله
هي نعمة الرحمن جلّ المنعم
ما كل ساع يدرك العليا ولا
داع يجاب لما دعاه ويغنى
يا أيها المولى المولى مصره
كل يظنّ الخير فيك ويعشم
كل تفاءل بالنجاح وبالهنا
حسبان جدّك صائب لا يثلم
جدّ رأى فيك الشهامة في الصبا
إذ أنت مغرى بالمعالي مغرم
جدّ توسم فيك تبلغ شأوه
فبلغته لا خاب فيك توسم

جدّ تفرّس فيك تقفّو أثره
 ولطالما أمسى به يتسرّغ
 إذ أحسنت فيك الفراسة رأيها
 فدلّيل حسن الظن فيك مسلم
 رحم خطير القدر منك وصلته
 ويمثله أنت الأبرّ الأرحم
 طوّقت أجياد الأماجد بالندى
 كل بجودك واثق مستعصم
 رأي سديد للسداد موفق
 باع مديد بالسخا يتكرّم
 وسما بك الدين الخفيف جلالة
 فالدين إذ ترعاه دين قيم
 لك همّة هام الكواكب دونها
 لك عزمة هي غارب لا منسم
 إن أضمرت ودّ العزيز نفوسنا
 سرّ الضمير يكاد يظهره الفم
 وإن اشتهكت مصر نواه برهة
 وغدت لبشرى عوده تتنسم
 فمع السيادة والسعادة سائر
 ومع الكرامة بالسلامة يقدم
 هو خاطب العليا وهي تسومه
 هو طالب الجوزاء وهي السلم
 شهم جلا في قاب مضمار العلا
 سهم السباق فحاز ما لا يسهم
 لا ينكر الركن اليماني يمنه
 ونداه يعرفه العذيب وزمزم

شد بيت مجدك بالهناء مؤثلاً
هذا بناء مثل عدلك محكم
إن شدت فيك قصائدي أنشدتها
دوراً لغـيـرك لا تكاد تنظم
إن صادفت منك القبول فسعدتها
في ظل أفنان القبول مخيم
دم في جليل الملك واحكم واحتكم
لا زلت تسمو في الفخار وتعظم

وقال إبراهيم أفندي مرزوق :

أتى يحمل البشرى بنيل مرام
بشير التهاني من بعيد مرام
فعم الورى بشر تضيوع نشره
فأزرى برىا مندل وبشام
وفازت بحمد منه عاقبة السرى
بما كان من مجد ورفع مقام
فنعم اغتراب غارب المجد حامل
به كل عز في أعز سنام
ويا حبذا أسفار فخر وسؤدد
يلازمها الإقبال كل لزام
فكم أسفرت أسفاره عن مراتب
كما لاحت الأقمار غب غمام
فهم طرباً يا قلب واغنم مسرة
وأبد من الأشواق كل غرام
فقد زينت أقطار مصر وشرفت
بصدر رحيب الصدر خير همام

بصدر أثيل المجد حاز طريقه
وتالده عن طاهرين كــــرام
بصدر العلا ليث الوغى قد تعززت
وألهمت الإسعاد بالشبل إلهام
سلالة مجد أيده يد العلا
تحوز رفيع المجد غب فظام
وليدهم يسمو به كل منصب
وجدهم للخير خير إمام
فكم زان عباس من المجد والعلا
من همم فوق السماك عظام
وزير نشابين المكارم والعلا
ترى للذكافيه وميض ضرام
فمن بشره سل من وفود نواله
وعن بأسه من ذابل وحسام
هو الصدر عباس أجل مملك
روى جوده في الأرض كل أوام
يسابق للعليا ويحرز شأوها
ويبدوله فيها مزيد هيام
فأكرم به من ماجد وابن ماجد
يقوم بدين الله أي قيام
فللدين والخيرات منه قوامه
وللملك والدينا أعز قوام
رعاه الذي استرعاه أمر عباده
وأبقاه غيث الجود غوث أنام
له نظر سام ورأي مسدد
ترى منه للإسلام أشجع حامي

فلا زال في عز منيع وسؤدد
 تسرّ العلامه برعي ذمام
 ولا زال محفوظ الجناح ممتعاً
 يقنّاد له مستصعب بزمّام
 فيا لائماً في جوده لعبيده
 إلام ملام واكتساب إثم
 ترى الجود طبعاً فيه ليس بمقصر
 مدى الدهر عنه بازدياد ملام
 فدعني ونفسي والقوافي ومدحه
 وبثّ ثناه أو يحم حمّامي
 فقد صار مدحي فيه سكري مصباحاً
 ومغتبقاً لا من كؤوس مدام
 فلو شمتني أنشدته المدح خلّتني
 أرى الدهر عبدي والزمان غلامي
 وقلت أهني ملك مصر مؤرخاً
 فبشراه عباس أتى بسلام
 فبشراه ممدوحاً وبشراي مادحاً
 بأبهي نثار في بديع نظام
 وما الشعر فني والمديح وإنما
 يشرف مدحي للوزير كلامي
 وما بخل مثلي بالمديح وبالثنا
 وجودك خلفي زائد وأمامي
 قدم للمعالي فوق رأسك تاجها
 عزيزاً مهابةً سعد جدك نامي
 وحسن ابتدائي في مديحك عاطر
 تضوّع رياه بمسك ختام

وما هو إلا كالنسيم لطافة
أتى يحمل البشرى بنيل مرام

وقال السيد أفندي صالح :

هات اسقني من شفاه سكريات
فقد صفا الوقت وازدادت مسراتي
وبشرت باللقا ورق مطوقة
فجدت بالروح للورق البشيرات
وكم كتمت غرامي خوف ذي عدل
فباح شوقي بأسراري الخفيات
وكم سترت الهوى كيما أغالطه
فدل حالي على ما في طوياتي
علام تعذل في ظبي ينازلني
من قدّه بعوال سمهرات
مهفف قد روي عن سحر مقلته
هاروته نفثات بابلات
أغار إن قال عوادي فديت وما
أبغى الفدا من ضعيفات قويات
سود إذا ما رنت أصمت وما ظهرت
من الجفون ظهور المشرفيات
وكيف يجدي ملام في هوى رشاء
سبي الورى بحلاه اليوسفيات
أم كيف يسلوه مفتون بطرته
وعنبر في خدود عندميات
ومبسم جوهرى طيب نكهته
من طيب أخلاق والينا الزكيات

هو الحفيد حليف العدل ناصره
عباس الأصفي رب المبررات
صدر صدارته العظمى له صدرت
من ذي المأثر سلطان البريات
عزيز مصر ومولاها الذي قمعت
أسياف آرائه خطب الملهمات
فياله من أمير طاب عنصره
أذل بالعزم أنافاً أبيات
دار الخلاف لما زارها فرحت
وقابلته بأنواع التحيات
ونال مانال من عز ومن شرف
أرى سناه على الزهر المنيرات
وهنث مصرنا الغرا بطلعته
وبره وسنيه الكسريات
هذا الوزير الذي أنسى ابن زائدة
وحاشاً بالمبرات الجزيلات
هذا الذي لم يزل للعدل ينشره
حتى غدا الجور مطوي السجلات
يا مصر تبهي برب المجد واغتفري
للدهر من أجله كل الإساءات
لئن تشرف أقوام بمرتبة
لما رقوها وسادوا بالمقامات
فواحد الدهر مولانا به شرفت
مناصب قد سمت فوق السماوات
والدهر جاد على مصر وساكنها
بأسمح الناس من ماض ومن آتي

كل يهني بهذا الداوري رتبا
تزان منه بأخلاق حميدات
وأصبحت مصرفي عزوفي ترف
بعدل رب السجايا العادليات
وأنشدت صدرها لما ألم بها
هنئت بالفوز من دار السعادات
وهاك مني عروساً بالخلي ابتهجت
من حسن مدحك لاحسن الجناسات
وكيف لا ولا يا سيدي شبه
بطيب أخلاقك الغرّ النديات
ترجو القبول وقد جاءتك منشدة
هات اسقني من شفاه سكريات

وقال مصطفى أفندي رضوان ، من تلامذة مدرسة الألسن :
علل بذكرى ناعس الأجفان
قلبي فقد صحت به أشجاني
عربية ألفاظه هندية
ألحاظه وتقول يا لسان
فلكم لها بذوي الصبابة معرك
ولكم لها وقع بكل جنان
ومراشف قد أخجلت كأس الطلا
ومعاطف أزرت بغصن البان
وشمائل حكمت الشمول ولفنة
فضحت جمالا لفته الغزلان
دع عنك جلباب التورع والحياء
وانثر على سمعي عقود جمان

وأدر كؤوس سلافة من ذكره
وقتا وراقت في صفا الأذن
أو ليس أن حديثه في مسمعي
أشهى من الدوكات للندمان
ولقد كتبت عن الوشاة صبابتي
ومدامعي لم ترض بالكتمان
كبدي على ذاك القوام حمامة
طارت جوى من شدة الخفقان
ولكم سهرت صباة في حبه
أرعى السهى ما حيلة الولهان
والنجم في جو السماء كأنه
درر تنظم في نحو رغوان
إن كنت تجهل في هواه تولهي
شغفاً فشأنى معرب عن شأني
وأرى العدالة ترتجى من قدّه
أو حكم عباس فتى الفتيان
صدر الوزارة والعلا بحر العطا
شرفت به مصر على البلدان
وغدت به مصر تنافس غيرها
فخراً ولا تخشى صروف زمان
سبحان من أولاه حلماً قد غدت
فيه رعاياه بظل أمان
ذو هيبة ملء الصدور وصوله
عند النزال وملتقى الشجعان
شهم شمائله المروءة والسخا
بحر عباب دائم الفيضان

أراؤه مثل السيوف قواطع
آلاؤه كالوابل الهتان
لما تحلى بالفصاحة أنشدت
في مدحه شعرا بديع معاني
يروى الوزارة عن أبيه وجده
والعدل عن كسرى أنوشروان
ولكونه رب البلاغة والذكا
زفت إليه عرائس الأذهان
إن رمت أن أحصي مآثر فضله
نفد المداد وقصرت أوزاني
دم في سماء المجد يا قمر العلا
متوشحاً بالعز كل أوان
فلمصر أنت حياتها بل روحها
ولعين هذا العصر كالإنسان
لما قدمت لها وقرت عينها
بالمدح أفصح عنك كل لسان
أمنت به مصر فقلت مؤرخاً
بولاية العباس أمن ثاني

ولما صادف ثاني يوم ولايته انسكاب الغيث الذي عاد بالمنافع على الزراعة
المصرية ، غب ما كان من العاهات والمضار الجوية والمائية ، تفاءل الناس باليمن
والبركة ، لأهل هذه المملكة ، فقلت :

تقلد مصر عباس فجادت
بما فيها من الغيث السحاب
فقال الفأل يحصل للرعايا
بفيض سخائه العجب العجائب .

المحتويات

7	استهلال
11	المقدمة
21	ديباجة المؤلف
25	مقدمة المؤلف
47	الانطلاق
269	العودة
289	الملاحق
291	ملحق (1)
292	ملحق (2)